



عمادة الدراسات العليا
جامعة القدس

القيم الإنسانية في شعر حسان بن ثابت؛
" دراسة موضوعية فنية "

كفاء ناهض عمر البرغوثي

رسالة ماجستير

القدس - فلسطين

1432 هـ / 2011م

القيم الإنسانية في شعر حسان بن ثابت ؛
" دراسة موضوعية فنية "

مقدمة من الطالبة
كفاء ناهض عمر البرغوثي

بكالوريوس اللغة العربية وآدابها
من جامعة القدس / كلية هند الحسيني

المشرف:

أ.د. خليل عودة

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية
وآدابها

جامعة القدس

1432هـ / 2011م



برنامج اللغة العربية وآدابها

عمادة الدراسات العليا

جامعة القدس

إجازة رسالة




القيم الإنسانية في شعر حسان بن ثابت؛
"دراسة موضوعية فنية"

اسم الطالبة: كفاء ناهض عمر البرغوثي

الرقم الجامعي: 20610017

المشرف: أ.د. خليل عودة

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ / 2011/ م من لجنة المناقشة المدرجة
أسمائهم وتواقيعهم

- | | |
|---|--------------------------------------|
|: التوقيع:  | 1- أ.د. خليل عودة رئيس لجنة المناقشة |
|: التوقيع:  | 2- د. جمال غيطان ممتحناً داخلياً |
|: التوقيع:  | 3- أ.د. حسن السلوادي ممتحناً خارجياً |

القدس - فلسطين

1432هـ/2011م

الإقرار:

أقر أنا مقدمة هذه الرسالة أنني قدمتها إلى جامعة القدس لنيل درجة الماجستير، وأنها نتيجة أبحاثي الخاصة باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة أو أي جزء منها لم يقدم لنيل أية درجة عليا بأي جامعة أو معهد.

الاسم: كفاء ناهض عمر البرغوثي

التوقيع:

الإهداء:

إلى أمي وأبي، اللذين تعلمت منهما أبجدية الحب والمعرفة، وكانا الحاضنة التي
أعطت لحياتي أبعاداً لها ألوان قوس قزح،
فصرت على ما أنا عليه.

إلى رفيق دربي، زوجي وصديقي الذي تخطى ذاته، فكان نهراً من الحب والخير
الذي أطلقت في مداه أشرعتي، وسافرت في رحلة العلم
فكان قوة الإسناد الأولى.

إلى أبنائي، ورمز امتدادي، حذيفة، شهد، هند، عبد الرحيم، الذين صبروا، وتحملوا
بصمت، الذين أردت أن أقدم لهم نموذجاً مختلفاً،
هي الأم أولاً وعاشقة المعرفة ثانياً.

إلى إخوتي وأخواتي، الذين في سياق وجودهم ومشاكساتهم وحبهم تعلمت معنى أن
أكون أنا.

إلى كل هؤلاء أهدي عملي هذا
وفاءً واعترافاً بالجميل.

كفاء

شكر وتقدير:

أحمدك الله حمداً أنت أهله، تبارك اسمك وعزت كلمتك، ألتمس رضاك، وأصلي على خير خلقك، وأسلم تسليماً.

يطيب لي أن أتقدم بخالص شكري وعظيم امتناني إلى أستاذي الفاضل، الأستاذ الدكتور خليل عودة، الذي أشرف على الرسالة وقدم لي النصائح النافعة، والإرشادات القيمة، فوجدت منه كل تشجيع ورعاية، والذي كانت سعة صدره وطول صبره معيناً لي لإتمام هذا البحث.

كما أنني أجد في الشكر العميق ديناً عليّ وحقاً لأساتذتي الأفاضل في جامعة القدس، الذين ما ضنوا بعلم وما بخلوا بجهد.

كما وأشكر الأستاذين الفاضلين: الدكتور جمال غيطان

الأستاذ الدكتور حسن السلوادي

لتفضلهما بقبول مناقشة هذه الرسالة .

المخلص:

تناولت هذه الدراسة موضوع القيم الإنسانية في شعر حسان بن ثابت؛ دراسة موضوعية فنية، في كلا العصرين الجاهلي والإسلامي.

وهدفت هذه الدراسة إلى إبراز أهم القيم التي تمثلها حسان في نفسه وفي قومه، ودورها في سمو النفس الإنسانية، ورفي المجتمع وتطوره.

قد اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج التكاملي، إذ اعتمدت المنهج التاريخي في التمهيد، والمنهج الوصفي التحليلي في الفصلين الأول والثاني، والمنهج الجمالي في الفصل الثالث.

ومن أهم النتائج التي توصلت إليها في هذه الدراسة:

إن حسان بن ثابت شاعر القيم والأخلاق في جاهليته وإسلامه، فهو نبيل الخلق، أبي النفس، كريم، شريف، عفيف، وقد تضمنت أغراضه الشعرية كثيراً من هذه الفضائل حتى تبوأ مكانة مرموقة

وهذه الدراسة تفتح باباً واسعاً للبحث، وتشير إلى بعض الأمور التي تحتاج إلى تعمق وتمحيص، مثل التغيير الذي أحدثه الإسلام في قيم المخضرمين، وكذلك حاجة أشعارهم إلى دراسة أسلوبية تجمع ما بين اللغة والصورة والموسيقى في آن واحد، إذ إن جلّ هذه الدراسات كان حول شعراء معاصرين. ومثل هذه الدراسات تثري الأدب والنقد العربي.

Abstract

This study deals with the subject of human values in the poetry of Hassan Bin Thabit as an objective artistic study , in both pre-Islamic and Islamic eras.

This study aims to highlight the most important values represented by Hassan himself and his close people, and its role in transcendence of human psyche, social progress and development.

In this study, I have adopted the integrative approach, where I have adopted the historical approach in the preliminary and the descriptive analytical approach in the two chapters ;the first and the second chapters and aesthetic approach in the third chapter.

The most important findings in this study:

Hassan Bin Thabet is the poet of values and ethics in pre-Islam and Islam. He had noble ethics , brave, generous, honest .His poetical purposes had included many virtues .He had occupied high status among his tribe , as his sayings matched his actions . On the other hand, this study has highlighted two heroes. Hassan poetry has been classified as charity poetry , he used it to serve his society , charity and reform.

This study opens the door wide for research, and refers to some matters that need deepening and scrutiny, such as the change resulted from Islam in the values of poets in the two eras (pre-Islam and Islam), as well as the need of their poetry to stylistic study that combines between language, image and music at the same time, since most of these studies was about contemporary poets as such studies enrich the literature and the Arab criticism.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا الصادق الأمين، إمام المهتدين، وقائد الغرّ المحجلين، أدبه ربه فأحسن تأديبه، وأنزل فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾¹، وقال فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾². فختم به الرسالة، وهدى به من الضلالة، فأشرق به الأرض بعد ظلماتها، وتألقت به القلوب بعد شتاتها. وبعد:

فهذا البحث مقدم لاستكمال متطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، وموضوعه "القيم الإنسانية في شعر حسان بن ثابت؛ دراسة موضوعية فنية". أتناول فيه دراسة القيم في شعر حسان بن ثابت رضي الله عنه في كلا العصرين الجاهلي والإسلامي.

وقد دفعتني أسباب عديدة لدراسة هذا الموضوع منها: أهمية شعر حسان بن ثابت، فهو يمثل أدب عصرين عظيمين متتاليين، يقوم عليهما تراثنا الأدبي الضخم. وتعد دراسة شعر حسان بن ثابت خير ما يمثل هذين العصرين بكل اتجاهاتهما وخصائصهما، لا سيما أن حسان قد عاش حياة طويلة خصبة مليئة بالأحداث والتطورات. ومن جانب آخر تبرز هذه الدراسة مدى تأثير حسان بالدين الجديد، ومدى تأثير هذا الدين في فنه ومثله وقيمه، بخاصة ما أضفته عليه صحبة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم من تغيير ملموس، ارتقت به وبشعره حتى غدا منارة من منارات الفن الإسلامي، فزادته هذه الصحبة قدراً على قدره، ورفعته على رفعته.

وتتبع أهمية هذه الدراسة كونها تسلط الضوء على القيم الإنسانية في كلا العصرين. فإن هذا الجانب لم ينل من مؤرخي الأدب العربي ونقاده ما هو جدير به من العناية والدراسة والتحقيق ما نالته منهم الاتجاهات الأخرى من شعر حسان بن ثابت، بخاصة أن دراسة القيم الإنسانية وتتبعها في مختلف الميادين باتت من القضايا التي تشغل بال الدارسين، وتحظى باهتمامهم في عصرنا الحاضر، وكأنها فرضت نفسها على الإنسان المعاصر فرضاً.

¹ . سورة القلم، 4/68.

² . سورة الشورى، 52/42.

وقد اعتمدت في بحثي هذا على المنهج التكاملي، فاتبعت المنهج التاريخي في ترجمة حياة حسان ابن ثابت، وفي تحديد مناسبات القصائد. في حين اعتمدت المنهج الوصفي التحليلي في الفصلين الأول والثاني. أما المنهج الجمالي فقد أعانني على إتمام الفصل الثالث، وهو الدراسة الفنية لشعر حسان بن ثابت.

وقسمت الدراسة إلى تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة. تناولت في التمهيد حياة حسان بن ثابت في الجاهلية والإسلام، مما سلط الضوء على العديد من القضايا التي جاءت في شعره.

أما الفصل الأول فكان بعنوان (المعاني الإنسانية في شعر حسان الجاهلي)، وقد جاء في ثلاثة مباحث، تناولت في المبحث الأول المعاني الإنسانية في حديثه عن المرأة، وقد بينت نظرته إليها وأهم المعايير والقيم التي اتبعتها في معاملته معها. في حين تحدث المبحث الثاني يتحدث عن المعاني الإنسانية في حديثه عن ذاته، وتهذيبه وصقله لها، حتى غدا رمزاً من رموز قومه. وأما المبحث الثالث فدار حول حديثه عن قبيلته، وأهم المثل والقيم السائدة فيهم حتى أصبحوا ذؤابة يثرب.

أما الفصل الثاني فهو بعنوان (المعاني الإنسانية في شعر حسان الإسلامي)، وضم أربعة مباحث، جعلت المبحث الأول في علاقة الشعر بالدعوة، إذ إن الإسلام اتخذ من الشعر وسيلة إيضاحية لمبادئه وقيمه السامية، فقام حسان بهذا الدور خير قيام. ودار المبحث الثاني حول علاقة الشعر بالخير والشر ليتضح أن الشعر لا يسقط ولا يلين باتباعه سبل الخير والقيم. وجاء المبحث الثالث عن التقليد والتجديد في القيم التي انتهجها حسان في حياته الجاهلية والإسلامية، وعبر عنها في شعره. وكان المبحث الرابع بعنوان الهجاء، بينت فيه أن الهجاء ليس غرضاً للسب والقذف، وإنما يخرج أحياناً لهدف التقويم والتهذيب.

أما الفصل الثالث فهو بعنوان (دراسة فنية)، وقد قام على دراسة أسلوبية لما ورد من قيم إنسانية في شعر حسان بن ثابت، أهمها العفة والشجاعة والكرم والمروءة .

قد استقيت مادة البحث من ديوان حسان بن ثابت، تحقيق سيد حنفي حسين، وقد استعنت بكثير من المصادر القيمة التي تناولت سيرة حسان وشعره، كالسيرة النبوية لابن هشام، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، ومؤلف الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني،

ومقدمة ابن خلدون لعبد الرحمن بن خلدون، ومن المراجع الحديثة فقد أفدت من كتاب حسان بن ثابت لمحمد طاهر درويش، وكذلك خصائص شعر المخضرمين ليحيى الجبوري.

وختمت الدراسة بخاتمة تضمنتها أهم النتائج التي توصلت إليها، وأهم التوصيات التي ارتأيت أنها تقدم كثيراً في مجالها.

وقد واجهتني صعوبة واحدة لإتمام هذا البحث، إلا أنها تعد عقبة رئيسية، وهي قلة المراجع التي تناولت موضوع القيم من الناحية الأدبية، إلا من بعض الإشارات المتناثرة هنا وهناك، والتي كانت في أغلبها حول شعراء معاصرين، وكانت في أغلبها تحمل مدلول النزعة الإنسانية أو الإتجاه الإنساني مما يؤدي إلى اختلاف في الرؤى والأبعاد إلى حد ما بين المدلولين. لكنني بحمد الله تغلبت عليها بفضل المخزون الديني والأخلاقي الذي يحمله كل عربي ومسلم منا، فضلاً عن السهولة النسبية في شعر حسان بن ثابت ولغته.

وأخيراً: لا أدعي أنني وصلت ببحثي إلى غاية الكمال، فالكمال لله وحده، ولكن حسبي أنني بذلت قصارى جهدي، وحرصت على الدفاع عن شاعر الدعوة الطاهرة الذي كاد له الكثيرون وتقولوا عليه، واتهموه بضعف شعره وهنته، فأنتى لهم ذلك وقد زكاه خير البشر الذي لا ينطق عن الهوى محمد صلى الله عليه وسلم.

فإن كنت أصبت في بعض جوانبها فهذا فضل من الله ومنة، وإن كنت قصرت فمن نفسي، وحسبي أنني بذلت الجهد.

حسان بين الجاهلية والإسلام:

هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة من عدي بن عمرو بن مالك بن النجار الأنصاري. شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم. أمه الفريعة بنت خالد بن خنيس بن لوذان، خزرجية أيضاً، أدركت الإسلام فأسلمت وبايعت. وبذلك يكون حسان بن ثابت خزرجياً من جهة أبيه وأمه معاً، ومن أقوى بطونها جميعاً. وكنيته أبو الوليد وهي الأشهر، وأبو عبد الرحمن، وأبو المضرب، وأبو الحسام.¹

ليس لدينا من الأنباء الموثوقة ما يتيح لنا أن نحدد تاريخ مولده على وجه الدقة، ولا سنة وفاته أيضاً. ورواية المؤرخين القدامى في هذا الشأن لا تخلو من اضطراب وتناقض. فأكثر الذين ترجموا له يذكرون أنه عاش مائة وعشرين سنة. نصفها في الجاهلية ونصفها الآخر في الإسلام، معتمدين في تحديد سنة ولادته على الخبر المروي على لسانه، والذي أورده ابن هشام في سيرته.²

كان قوم حسان سادة اليمن. وأهل الرياسة فيها، وهم أبناء عمرو بن عامر،³ نزحوا إلى شمال الجزيرة عند خراب سد مأرب، وتفرقوا في البلدان، فنزل آل جفنة الشام، ونزلت الأوس والخزرج يثرب، ونزل اللخميون الحيرة.⁴

وكانت الخزرج أعظم قبائل المدينة قاطبة وأقواها، وكانت العرب تسمى ذلك الحي من الأنصار بالخزرج، خزرجها وأوسها، ولهذا تولت الزعامة، وأقامت وسط البلدة حيث تقوم المدينة.

¹ ينظر: ابن حجر العسقلاني، الإصابة، 92/2؛ أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، 141/4؛ ابن عبد البر، الإستيعاب،

341/1؛ ابن الأثير، أسد الغابة، 7/2؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 378/12.

² ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، 120.

³ عمرو بن عامر الملقب (بمزيقيا)، هو أعظم ملوك اليمن الجاهليين، وكانت له تحت سد مأرب من الحدايق ما لا يحاط به، رحل بعد خراب سد مارب إلى وادي عك، واعتل فيه ثم مات. ينظر: الزركلي، الأعلام، 80/5.

⁴ ينظر: ابن هشام، م. س، 12/1.

وكان من أشهر بطونها بنو النجار، رهط حسان بن ثابت، فكانوا ذؤابة الخزرج في الكثرة والمحل والأرفع، ولهم في آل هاشم بن عبد مناف رحم، وبرسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة.¹ وفيهم نجدة وبأس وكرم.

كانت أسرة حسان ذات شأن عظيم في الجاهلية والإسلام معاً، فجدّه المنذر كان الحكم في يوم سميحة، الذي التقت عليه الخصوم فقبلت بقضائه بعد أن ردت قضاء غيره، وأبوه ثابت من سادة قومه وأشرفهم، وله فيهم ما تقتضيه السيادة من البذل والنصرة، وكذلك أخواله بنو ساعدة وذوو قرياه. أما أخواه فلهما بلاء حسن في الإسلام. فأخوه لأبيه أوس بن ثابت وكان ممن شهد العقبة الأخيرة من الأنصار²، ونزل عليه الصحابي الجليل عثمان بن عفان حين آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار³، وكان ممن استشهد يوم أحد⁴. وأخوه الثاني أبي بن ثابت. وكان ممن شهد بدرًا وأحدًا، وقتل يوم بئر معونة⁵ شهيداً مع من غدر بهم بنو سليم من المسلمين⁶.

تزوج حسان في جاهليته من سعتاء الأوسية⁷، وعمرة الأوسية⁸. بينما تزوج في الإسلام من سيرين القبطية أخت مارية القبطية زوج الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد وهبها له الرسول صلى الله عليه وسلم تعويضاً عن ضربة صفوان بن المعطل⁹، وقد أنجبت له ابنه عبد الرحمن¹⁰.

¹ قرابة في سلمى بنت عمرو بن عدي، وهي أم جد النبي صلى الله عليه وسلم عبد المطلب. ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، 83/1.

² ابن هشام، م، ن، 88/2.

³ ابن هشام، م، ن، 130/2.

⁴ ابن هشام، م، ن، 117/3.

⁵ هي أرض بني عامر وحرّة سليم، استشهد فيها سبعون رجلاً من المسلمين، بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عامر ابن مالك فاغتالهم هناك واستغاث عليهم بقوم من بني سليم. ينظر: ابن هشام، م، ن، 168/3؛ ابن حجر العسقلاني، الإصابة، 104/4.

⁶ ابن سعد، الطبقات الكبرى، 382/3.

⁷ هي امرأة من أسلم، وقيل أنها من بني ماسكة من اليهود. ينظر: الأصفهاني، الأغاني، 172/17 وما بعدها.

⁸ هي عمرة بنت الصامت بن خالد الأوسية، تزوجها حسان وكان كل واحد منهم معجباً بصاحبه، إلى أن تكلم حسان بأمر أغضبها، فغيرته بأخواله فطلقها، فأصابهما من ذلك ندم وشدة، وله في ذلك شعر. ينظر: الأصفهاني، م، ن، 16/3.

⁹ هو صفوان بن المعطل بن رخصة بن المؤمل، صحابي جليل شهد الخندق وما بعدها، وهو الذي تقولوا عليه في حديث الإفك فبرأه الله عزوجل، وقيل إنه ضرب حسان بن ثابت إثر ما بلغه من ذلك، فشكا حسان إلى النبي صلى الله عليه وسلم فعوضه النبي صلى الله عليه وسلم بحائط من نخل ويسيرين الجارية. ينظر: ابن الأثير، أسد الغابة، 456/2.

¹⁰ ابن هشام، السيرة النبوية، 280/3.

عرفت أسرة حسان بالبيان، وكانت موصولة النسب بالشعر، معرفة فيه، قال فيها أبو العباس المبرد: "وأعرق قوم كانوا في الشعر آل حسان، فإنهم يعتدون ستة في نسق كلهم شاعر، وهم سعيد ابن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام".¹

كانت المدينة حاضرة زاهرة توافر فيها الخصب وكثر المال، وما يصحب ذلك من مجالس اللهو ومراتع اللذة، وقد شهد حسان ذلك كله مذ نشأ فيها، وشهد أيضاً الحروب المستعرة بين الأوس والخزرج. لذلك يمكننا القول إن حياته في الجاهلية كانت قسمين: قسم استوفى فيه حق الشباب من الرغائب والشهوات، ومن حياة النعيم واللهو شأنه شأن أقرانه من الشباب المزهوين بمالهم وجمالهم. لكنه في الوقت نفسه كان يتخير الرفاق والندماء، ويتباعد عن الإفراط والعريضة والفحش، وكان عفيفاً في حبه وغزله. وقسم آخر قام فيه بدوره المحتوم بينه وبين قومه وإخوتهم الأوس في الصراع الذي تقتتل فيه القبيلتان وتتناحران. ويشارك حسان في هذه الحروب مع قومه الخزرج، يفاخر بمآثرهم ويسجل وقائعهم، حتى لا نكاد نجد إلى جانبه شاعراً خزرجياً آخر. فقد هجم وهجا وفخر في كل موقعة، ووقف لشعرائهم بالمرصاد، فأصابهم ونال منهم.

كان لحسان مشاركة في الحياة الأدبية عصرئذ، فقد عرض شعره بسوق عكاظ مجمع الشعراء على النابغة الذبياني، ناقد عصره، فضله على الخنساء- في رواية- إذ جعلها بكاءه، وجعله شاعراً. وفضلها عليه في رواية أخرى- فغضب حسان وادّعي أنه أشعر من النابغة.²

طمحت نفس حسان إلى الملوك، فطفق يتنقل في أسفاره بين جلق الغساسنة وحيرة المناذرة، يمدح ملوك الدولتين، مدح المترفع عن الابتزاز والانتهاز، الطامح في سعة الشهرة، الحريص على مجالسة العظماء من أمراء وشعراء، غير أنه كان على الغساسنة أحرص، وإلى قلوبهم أقرب، وبمدحهم أحفل، حتى انقطع لبني جفنة. ولعلّه وجد في قدومه عليهم تأكيداً لأواصر القرابة والنسب، ففي مدحه لهم فخر لنفسه، يرى فيه استمرار التغني بمجد قومه.

¹ المبرد، الكامل، 1/200.

² ينظر: الأصفهاني، الأغاني، 8/11.

كان ملوك غسان وأمراؤها يعرفون له نسبة فيهم، ومن أشهر ملوكهم الذين مدحهم الحارث ابن شمر¹، وعمرو بن الحارث²، وجبله بن الأيهم³ الذي ظل مقيماً على عهد حسان حتى بعد إسلام حسان⁴. ومن الصعب تتبع كل الذين مدحهم حسان في بلاط الغساسنة، ومعرفة أسماء من اتصل بهم على وجه الدقة، فهو قلماً يذكر أسماء ممدوحيه، لأنه لم يمدحهم أفراداً على عادة المادحين، إنما كان يمدحهم جملة، ويفخر بهم أسرة، تأكيداً لأواصر القرابة بينهما.

ولئن ضن علينا شعر حسان بأسماء ممدوحيه من الغساسنة، فقد أفادنا في معرفة الأماكن التي كانوا ينزلون بها، وصور لنا جانباً من حياتهم الحضرية المترفة، وكأنه كان موكلاً بتحديد معالمها وتعيين مدنها⁵.

أما حظ المناذرة منه، فقد كان دون حظ الغساسنة، وإذا كانت كتب الأدب تحدثنا عن وفوده إلى الحيرة، وفوزه من ملوكها بالحظوة المرجوة، إلا أن ديوان الشاعر نفسه لم يثبت تلك الروايات، على الرغم مما أورده أبو الفرج الأصفهاني في روايتين بينهما اختلاف يسير، ملخصهما أن حسان وفد على النعمان بن المنذر⁶ بعد أن كان قد قلب ظهر المجن للنابغة وجافاه وأبعده، وذكر أبو الفرج أن حسان ظفر من النعمان بعطايا سخية تليق بمنزلته⁷. ولكن ليس في ديوان حسان على طوله وكثرة مدائحه واحدة تخص النعمان بالمدح فأما أن يكون الخبر من وضع الرواة وإما أن تكون الوفادة وقعت لكن الشعر ضاع⁸. وقلما نجد في ديوانه ذكراً عارضاً يطوف بالمناذرة من بعيد، والعارض لا يعتقد به، فضلاً على أنه لا يمكن للمرء أن يتصور أن يرحل شاعر كحسان هذه الرحلة الطويلة إلى ملك عظيم مثل النعمان دون أن يكون قد أعد العدة، وأجمع أن يعرض في تلك السوق النافقة بضاعته.

¹ الحارث بن شمر الجفني (ت8هـ-630م)، من أمراء غسان أدرك الإسلام، أرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم رسالة مع شجاع بن وهب. ينظر: الزركلي، الأعلام، 2/155.

² عمرو بن الحارث بن عمرو بن عدي بن حجر، كان شديد الملك، بعيد الصيت، تولى بعد والده عمرو بن حجر، ينظر خبره كاملاً عند الأصفهاني، الأغاني، 9/95.

³ جبله بن الأيهم (ت20هـ-641م)، من آل جفنة، آخر ملوك الغساسنة في بلاد الشام، عاش زمنياً في العصر الجاهلي، وقاتل المسلمين في دومة الجندل 12هـ، ثم أسلم وهاجر إلى المدينة ثم ارتد وخرج إلى بلاد الروم. ينظر: الزركلي، م. س: 2/111.

⁴ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 1/306.

⁵ ينظر: القوائد رقم: 27، 38، 39، 218.

⁶ النعمان بن المنذر (ت15هـ-608م)، من أشهر ملوك الحيرة في الجاهلية، ظل حاكماً عليها إلى أن نقم عليه كسرى فعزله عنها ونفاه إلى خانقين وسجن فيها. ينظر: الزركلي، الأعلام 8/43.

⁷ ينظر: الأصفهاني، الأغاني، 11/29 وما بعدها.

⁸ ينظر: محمد طاهر درويش، حسان بن ثابت 153.

قد صور شعره عموماً في الحقبة الأولى من حياته بعدين أساسيين: أولهما أنه لسان حال الخزرج المناقض لشعراء منافسيها وأعدائها من القبائل الأخرى، بخاصة القبائل الأوسية ومناصريها، وثانيهما يبرز شخصيته المعتدة بنفسها وبفضائلها وبخصالها على الخصوم والمنافسين.

نلمح البعد الأول للشخصية فيما شجر من مناقضات بين حسان كشاعر للخزرج وبين قيس ابن الخطيم¹ كشاعر للأوس، وقد استطاع حسان أن يشيد بالخزرج وأيامها، وأن يقف من قيس موقف الند بالند. ويظهر البعد الثاني في إطار فني رائع، يرسم حسان فيه المثل العليا لشخصيته، فمنزله مهبط الفقير والغني، ومألف المعوزين والجانعين يجد كل عنده الأمن والقرى. فلا يذل جاره، ولا يهان حليفه، ويرى أن الفرد لا تعلق منزلته ولا تسمو رتبته لما يحوزه من أسباب الغنى المادي فقط، إنما بما يتمتع به من قيم عليا معنوية كالشجاعة والكرم والإباء والأنفة والنجدة والعفة.

وهكذا عجت حياة حسان في جاهليته بكثير من الأيام والأحداث والمناقضات والمفاخرات والرحلات، إلى أن عُرف في يثرب أمر النبوة حين قفل الناس من الموسم، ورووا ما شهدوا وسمعوا عن أنباء النبي الأمي مع قومه. ولعل الأوس والخزرج أعرف بأمره من غيرهم لكثرة ما حدثهم به أحبار اليهود هناك، فضلاً عن أن الخزرج عامة وبني النجار خاصة أحوال جده عبد المطلب فكانوا أشد اهتماماً بظهور هذا النبي وتتبع أخباره .

ولا تعطينا كتب السيرة والرواية صورة واضحة للمراحل الأولى باتصال حسان بالرسول صلى الله عليه وسلم، ولا لتاريخ دقيق لبدء إسلامه، أو لتعريف بذكره في بيعتي العقبة الأولى والثانية. فأغلب الظن أن يكون صدره قد انشرح للإسلام بعد وصول الرسول صلى الله عليه وسلم يثرب ونزوله في دار بني النجار، ولا شك أنه اهتز لما أصاب قومه من كرامة بنزول الرسول في دورهم، وبنزول عثمان بن عفان على أخيه أوس فدخل فيما دخل فيه قومه من الإسلام.

كان إسلام حسان فاتحة عهد جديد في حياته، إذ وضع موهبته الفذة تحت إمرة النبي صلى الله عليه وسلم، وطاب بما أصاب، وخلع أوزار الجاهلية، وأخلص للدعوة الجديدة، وشحذ لسانه للدفاع عنها، فكان شعره في هذه الحقبة سجلاً لجميع الأحداث التي توالى على المسلمين، فكان غزياً بشعره ولسانه، ولم يترك موضعاً من الأعداء إلا وطعن فيه، والقوم أهل حفيظة وحمية وفصاحة،

¹ قيس بن الخطيم بن عدي بن عمرو، قتل أبوه وهو صغير، فلما بلغ قتل قاتل والده، فنشبت جراء ذلك حروب بين قومه وبين الخزرج، كان شاعراً مجيداً له مناقضات مع حسان بن ثابت. ينظر: الأصفاني، الأغاني، 3/3.

ينال منهم القول ما يناله الرمح والسيف، حتى قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: [**مجاهم حسان حتى شفى واستشفى**]¹ وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم كثير من الأحاديث الشريفة في هذا الصدد، والتي توضح تأييده صلى الله عليه وسلم لحسان وشعره، والتي ربطت اسم حسان بن ثابت ربطاً تلازمياً بالدعوة الإسلامية، والانتصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم.² حتى أن كثيراً من الدارسين يعولون على أخبار حسان للبرهان على أن الإسلام لم يعاد الفن الشعري.

لم تتوقف طبيعة حسان الفتية عن قول الشعر، خاصة أن العوامل التي كانت تدفعه في جاهليته إلى نظمه استمرت تدفعه بعد إسلامه، فالقتال ناشب بين المسلمين والمشركين كما كان ناشباً بين القبائل الجاهلية، وقد عاش حسان الأحداث وانفعل بها، فليس هناك من غزوة ومن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم إلا ونجد فيها لحسان شعراً - على الرغم أنه لم يشترك في أي منها اشتراكاً فعلياً - إما في هجاء المشركين أو في مناقضاتهم والرد عليهم.

بذلك يكون حسان قد قضى عشر سنوات في ظل الرسول صلى الله عليه وسلم، مستمتعاً بالحيطة والعطف والتقدير، شديد الحب للنبي الكريم، قوي العصبية للإسلام، حتى حل ذلك الرزء العظيم بالمسلمين، وانتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه، فأدرك حسان حينها أنه فقد راعيه المسؤول، وفقد معه العز والمنعة والحصانة، إذ كانت شخصية النبي الكريم ملهمة حسان الحماسة والمضاء، وكانت سراجة وهداه، فحاول أن يبكيه ويرثيه، ولكن المصاب جلل، أكبر مما قال فيه حسان.³

ولحسان في كل مناسبة إسلامية قصيدة، أو قصائد، ومن جياذ قصائده التي كان لها أبعد الأثر، وأحسن الذكر عن المسلمين، قصيدة الفتح - فتح مكة - سنة ثمان، وقد سمت هذه القصيدة بحسان سمواً لم يدركه شاعر إسلامي آخر. فالنفس الإسلامي فيها واضح متميز، ويعبر عما يجيش في نفوس المسلمين من الحق والإيمان.

جاهد حسان بلسانه طوال العشرة الأعوام الأخيرة من حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان له في كل موقف من مواقف المسلمين شعر ونظم، لذلك يعد شعره مصدراً من مصادر التاريخ الإسلامي لتلك السنوات، فقد جاهد بلسانه في يوم بدر، ويوم أحد، ورثى حمزة وخبيب بن عدي،

¹ صحيح مسلم، الحديث رقم (6345).

² ينظر: صحيح بخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة؛ صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل حسان ابن ثابت.

³ ينظر: محمد طاهر درويش، 205.

ورثى شهداء مؤتة (زيد بن حارثة، وجعفر، وعبد الله بن رواحة) وتصدى لوفد تميم فأفحم شاعرهم، وآل حال الوفد إلى الإسلام بعد عينيته الراقية.

هدأ نشاط حسان بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، بخاصة في عهد خلافتي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. ولما ولي عثمان الخلافة برز اسم حسان في المشاحنات التي نشبت في تلك الحقبة، وأدت إلى الفتنة التي سجلها التاريخ، إذ انضم حسان إلى الجانب العثماني¹.

ثم اختفت أخباره بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، وقد كف بصره أواخر حياته². ويبدو أنه توفي بعد مقتل علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - إذ تنفق الأقوال على أنه عمّر نحواً من مائة وعشرين سنة³. وبذلك تكون سيرة حسان حلقة من تاريخ الإسلام بعد أن كان هو نفسه مؤرخاً لهذا التاريخ العتيق.

أخذ على حسان مأخذان، وتوالت الروايات بين تأكيد هذين المأخذين عليه وبين دحضهما عنه، وهما جبنه، واشتراكه في حديث الإفك. وإن كنت في بداية الأمر لم أحبذ الخوض فيهما، لكنني عدلت عن ذلك وآثرت الحديث فيهما، لاتصالهما بموضوع دراسة القيم الإنسانية، فلا يعقل أن يوصف بهما شاعر القيم والفضائل.

نرى أكثر من أرخوا له يصفونه بالجبن⁴. ولكننا في الوقت نفسه لا نرى إنكاراً عليه أو إعراضاً من الرسول صلى الله عليه وسلم، أو من أحد صحابته رضوان الله عليهم أجمعين. بل نرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ ذلك مأخذ الأمر المقرّر، على حين أنه كان عليه السلام لا يعذر متخلفاً قادراً عن القتال، وما كان شعر حسان ليعفيه عن المشاركة في القتال في سبيل الله، فقد كان له من قومه صاحبان شاعران، وكان لهما فضل السبق إلى دين الله، وقاتلا مع ذلك مع رسول الله، وهما كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة⁵.

مما تقدم لا بد أن يكون ثمة عذر لحسان يفعه عن القتال، ويكون على حال تجعله قليل الغناء والمشاركة في الحروب، ولعل السبب يعود إلى السن، فهذه الأخبار جميعاً التي رويت عن حسان

¹ تنظر القصائد: 93، 94، 95، 96، 97، 98.

² ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 306/1.

³ ابن حجر العسقلاني، الإصابة، 94/2؛ ينظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق، 434/12.

⁴ ينظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 305/1؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، 348/1؛ ابن الأثير، أسد الغابة، 9/4؛ الذهبي،

سير أعلام النبلاء، 521/2؛ الصفي، الوافي بالوفيات، 272/11.

⁵ ينظر: محمد طاهر درويش، حسان بن ثابت، 177.

وقد بلغ الستين من العمر، ورجل في مثل هذه السن لا يقوى أن يدخل حرباً أو يساهم في قتال¹. غير أن ثمة علة أخرى أشار إليها صاحب الأغاني. وهي أن أكحله كان قد قطع في الجاهلية، فلم يكن يضرب بيده². يقول حسان: ³

[المتقارب]

أَضْرَبَ بِجِسْمِي مَرُّ الدُّهُورِ وَخَانَ قِرَاعَ يَدِي الأَكْحَلُ
وَقَدْ كُنْتُ أَشْهَدُ عَيْنَ الحُرُوبِ وَيَحْمَرُّ فِي كَفِّي المُنْصَلُ

جدير بالملاحظة أن الوقائع التي استشهد بها الإخباريون على جبن حسان كلها وقائع إسلامية، وأن قطع أكحله كان في الجاهلية. ولعل القول الفصل في دحض هذه الفرية التي ألصقها بعضهم بشاعر النبوة، هو أنه كان يهاجي خلقاً كثيراً وقد نال منهم، وأوجعهم، بل أفحش فيهم، ومع ذلك لم يعيره أحد منهم بالجبن، والفرار من الحروب.

وقد سجلت المصادر على حسان تهمة أخرى، وهي من أشد التهم بالقياس إلى منزلته من النبي صلى الله عليه وسلم، وهي اشتراكه في حديث الإفك وتقوله فيه، وأنه قد أقيم عليه الحد⁴. إلا أن إثبات هذه التهمة أو نفيها يبقى مثار جدل كما ورد في بعض التفاسير. فقد جاء في تفسير الإمام الطبري لقوله تعالى: [وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ]⁵: "أن الذي بدأ الخوض في حديث الإفك، وتحمل معظمه له عذاب عظيم. وقد اختلف أهل التأويل في الذي تولى كبره ومعظم الحديث، فقال بعضهم حسان بن ثابت، وقال آخرون هو عبد الله بن أبي ابن سلول. والراجح هو القول الثاني"⁶، وكذلك جاء في تفسير القمي النيسابوري في تفسير الآية الكريمة السابقة "والأشهر أنه عبد الله رأس النفاق"⁷.

قد تكون تلك فرية من أعداء الله على صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذين آووه ونصروه، ودافعوا عنه بأيديهم وألسنتهم، وما اتهمهم لحسان إلا ليقبلوا من قيمته في نظر

¹ ينظر: سيد حنفي حسنين، حسان بن ثابت، 160.

² ينظر: الأصفهاني، الأغاني، 4/171. والأكحل: وريد في وسط الذراع يفصد أو يحقن، ابن منظور، اللسان، مادة كحل.

³ حسان، الديوان، 352.

⁴ ابن هشام، السيرة النبوية، 270 وما بعدها.

⁵ سورة النور، 24/11.

⁶ الإمام الطبري، تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 5/524.

⁷ القمي النيسابوري، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، 5/167.

المسلمين، فالمسلمون يعظمونه لأنه شاعر النبي صلى الله عليه وسلم، والشعر في نظر العرب أقوى من السيف، فهو يرفع بالمدح ويخفض بالذم.

وقد أشار سيد قطب في الضلال في تفسير قوله تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ]¹، قال "هم ليسوا فرداً ولا أفراداً، وإنما هم عصابة مجتمعة، ذات هدف واحد، ولم يكن عبد الله ابن أبي سلول وحده هو الذي أطلق ذلك الإفك، وإنما هو الذي تولى معظمه، وهو يمثل عصابة اليهود أو المنافقين الذين عجزوا عن حرب الإسلام جهرة، فتواردوا وراء ستار الإسلام ليكيدوا للإسلام خفية، وكان حديث الإفك إحدى مكائدهم القاتلة"². وقد برأته السيدة عائشة رضي الله عنها في بعض الروايات³.

أما خلاله وأخلاقه وأحواله النفسية. فقد كان رضي الله عنه أبيعاً شريف النفس، فلم يعرف عنه أنه اتخذ شعره أداة لكسبه، ولم يرحل إلى الملوك مستمنحاً عطاياهم ونوالهم، لأنه كان سيداً شريفاً، معتزلاً بالسيادة والشرف. ولم يرو عنه أنه هجا أحداً لأنه حبس عنه رده. وهذا ما يؤكد (الصدق الفني) في شعره. فهو لم يدهن ولم يتزلف لأحد. فقد كان رضي الله عنه شجاع الرأي، حراً صريحاً، يكره المنافق والنمام. ووضحت كثيراً من المواقف ذلك، فقد جاهر علياً برأيه في مقتل عثمان⁴، وكذلك صرح عمر بن الخطاب برأيه في ارتداء جبلة بن الأيهم⁵.

وهكذا تنقلت حياة حسان مناصفة، فقد عاش في الجاهلية كشعرائها، لها لهوهم، ونزع في شعره إلى ما نزعوا إليه من مفاخر وهجاء، وتردد على الملوك، ووفد على بلاطهم، لكنه عاملهم معاملة الند للند، والقرين للقرين. وقد بقي على هذا الزهو بنفسه، والفخر بقومه حتى جاء الإسلام، ونصبه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم مدافعاً عن الدعوة الجديدة، ذاباً عن حياضها، حاجياً من يتعرض لأصحابها وشرائعها، وقد أبلى في ذلك بلاء حسناً، حتى نال بذلك أعظم لقب يناله شاعر على وجه البسيطة، وهو لقب شاعر النبوة.

من المحقق أنه كان شاعراً فحلاً بارعاً. وقد اتفق الرواة والنقاد على أنه أشعر أهل المدر في عصره، وأنه أشعر أهل اليمن قاطبة.

¹ سورة النور، 24/ 11.

² سيد قطب، في ضلال القرآن، 4/ 2500.

³ الأصفهاني، الأغاني، 4/ 168؛ ابن الأثير، أسد الغابة، 2/ 9.

⁴ حسان الديوان، قصيدة رقم 97.

⁵ ابن سعد، الطبقات الكبرى، 2/ 30.

الفصل الأول:

المعاني الإنسانية في شعره الجاهلي

مدخل: القيم مفهومها ودلالاتها

المبحث الأول: المعاني الإنسانية في حديثه عن المرأة

المبحث الثاني: المعاني الإنسانية في حديثه عن الذات

المبحث الثالث: المعاني الإنسانية في حديثه عن القبيلة

مدخل: القيم مفهوماً ودلالاتها

وظّف الإنسان عقله توظيفاً شمولياً لمعرفة الذات الإنسانية وحقائق الوجود عامة، وهكذا تكونت لديه قيم ومفاهيم لهذا الكون، سرعان ما ترسخت في ذهنه. وأصبحت شيئاً ضرورياً لحفظ توازنه وبقائه وتجنبيه شر الفناء والتلاشي.

ونظراً لأهمية القيم وإرتباطها ببقاء الإنسان، تطور هذا المفهوم، حتى أصبح مبحثاً قائماً بذاته، يعد من أهم المباحث التي شغلت الفكر الإنساني، بخاصة في العصر الحديث، ومن أكثرها إحاطة بجوانب الحياة الإنسانية، كالإقتصاد، والسياسة، والفن، والأخلاق، والأدب، والعلوم. حتى غدا هذا المفهوم لا يقتصر على جانب دون الآخر إنما هو الإحاطة والشمول.

وقد لاقت دراسة هذا المبحث في بادئ الأمر اهتماماً كبيراً وعناية، بخاصة لدى رواد الفكر الفلسفي، انطلاقاً من نظرية المثل الأفلاطونية التي حاولت أن تكشف أسرار الإنسان وكوامنه، فجردت المادة، واقتصرت على ماله علاقة بالروح وبالمثل الإنسانية العليا.

ثم أخذ نطاق هذا العلم بالتبلور والانتساع على الأصعدة كافة حتى غدا نقطة تلاق لمختلف العلوم. فنجد كل علم تناوله وإستخدامه واستوفى مفهومه بمعنى يختلف عن غيره. وأصبح هذا العلم يمس جميع جوانب الحياة المختلفة التي تتصل اتصالاً وثيقاً بالإنسان. وأصبح له أصداء واسعة في تقويم السلوك الإنساني والتي تدفعه إلى تغيير واقعه وحاله الراهن، سعياً وراء المثل الأعلى المنشود.

واستخدم لفظ القيمة بداية في مجال الإقتصاد، بمعنى السعر الذي قدر لسلعة معينة، ولكن اتسع المفهوم فيما بعد وتطور ليشمل مجالات معنوية أخرى، وذلك بإضافته إلى نعت غير مادي يحدده كأن نقول مثلاً: القيم الاجتماعية أو الدينية أو الخلقية أو الإنسانية. وإلا سيبقى يتردد هذا اللفظ دائماً في مجال الأوراق المادية والمستندات التجارية بوجه عام.

القيمة لغة:

تدل كلمة (قيمة) من الناحية اللغوية على الاعتدال والاستواء وبلوغ الغاية، فهي مشتقة أصلاً من الفعل (قام) بمعنى وقف واعتدل وانتصب وبلغ واستوى.

جاء في اللسان: "القيمة واحدة القيم، وهي ثمن الشيء"¹ وقد أورد ابن منظور من مادة (ق و م) المشتقات التالية:

القوام: العدل [وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا]²، وقوام الأمر: نظامه وعماده. والدّين القيم: أي المستقيم الذي لا زيف فيه ولا ميل عن الحق. والقيّم: السيّد وسائس الأمر. والقيوم: المدبر وهي من أسماء الله الحسنی. والقوام من العيش: ما يقيمك، وقوام العيش: عماده. وقوام كل شيء: ما استقام به³.

ونلاحظ أن مادة (ق.و.م) تحيل كل شيء إلى معنيين: أحدهما مادي وهو ثمن الشيء وسعره. والآخر معنوي وهو بمعنى الاستقامة والعدل والحق. ومن جهة أخرى. يرتبط المعنيان أحدهما بالآخر، لأن ثمن الشيء هو ما يساويه، وهو معادله وحقه.

القيمة اصطلاحاً:

من الناحية الاصطلاحية اختلف الباحثون في وضع تعريف محدد للقيمة، ومرّد هذا الاختلاف يعزى إلى المنطلقات النظرية التخصصية للباحثين، كعلماء النفس، وعلماء الدين، وعلماء الاقتصاد، وعلماء الرياضيات، وعلماء اللغة. حيث كان لكل منهم مفهومه الخاص للقيمة والذي يتفق مع تخصصه.

فقد عرفها محمد عبد الهادي عفيفي على أنها "مجموعة من الأهداف والمثّل العليا، التي توجه الإنسان، سواء في علاقته بالعالم المادي أو الاجتماعي أو السماوي"⁴.

بينما ترى نورهان فهمي⁵ أنها "كل ما هو جدير باهتمام المرء وعنايته لاعتبارات سيكولوجية واقتصادية وأخلاقية". ويرى عبد العزيز حمد أنها "المدلول المعنوي الذي يشبع رغبة أو ميلاً أو نزعة روحية أو عقلية في الفرد. ويشمل ذلك القيم الكبرى الخاصة بالحق والخير والجمال"⁶

¹ ابن منظور، اللسان، مادة قوم.

² سورة الفرقان، 67/25.

³ ابن منظور، م.س.

⁴ محمد الهادي عفيفي، في أصول التربية، 379.

⁵ نورهان فهمي، القيم الدينية للشباب، 30.

⁶ عبد العزيز حمد، القيم الفلسفية الكبرى، 9.

ولعل المفهوم الذي يستوعب التعريفات السابقة هو: "أن القيم أفكار أو تصورات يعتقها الفرد أو الجماعة تجعل الاختيار الحر أو السلوك يتفق مع ما تقبله الجماعة، وكل انحراف عنها يولد عند الفرد شعوراً بالخروج من قاعدة الالتزام"¹

أصناف القيم:

تقسم القيم إلى معنوية ومادية، أما المعنوية فتقسم على مسميات متعددة هي:

1 -القيم العقلية: وهي القيم التي ترتبط بالحق، لأنه غاية الإنسان عندما يفكر وبيحث عن

المعرفة الصحيحة، وعندما يسعى وراء القوانين التي تحكم عناصر الكون.

2 -القيم الجمالية: ويعبر عنها إهتمام الفرد وميله إلى ما هو جميل من ناحية الشكل، أو

التوافق أو التنسيق، ويتميز الأشخاص الذين تسود عندهم هذه القيمة بالفن والابتكار

وتذوق الجمال².

3-القيم الأخلاقية: وهي القيم المتعلقة بالخير، وبث الأخلاق الكريمة، وغرس الفضائل في

نفوس، كالصدق والأمانة والعدل وغيرها، وتتمثل أهميتها في أنها توجد الوازع النفسي الذي

يمنع من الانحراف عن الصلاح. وتتضمن هذه القيم مطلباً يعبر عنه بصيغة "ينبغي أن

يكون".

والقيم الأخلاقية تعلو على جميع القيم الأخرى، لأنها لا تتوقف على أي منها، وهي قيمة مطلقة

لا يمكن لأحد أن يتجاهلها أو يتجاوزها، وهي "تستجيب لمطامح الإنسانية، وجميع القيم الأخرى تقع

تحتها، فما الذي يعلو على العدل والخير والعفو"³. وتتجسد أهميتها في أنها ترتقي بالفرد من

التفوق على ذاته، إلى مرحلة تتفق فيها أغراضه وغاياته مع أغراض غيره وغاياتهم، فهي موجّهات

ضمنية لأنماط السلوك الإنساني.

الإنسان والقيم :

خلق الله جلت قدرته الكون بما فيه وفق نظام في غاية متناهية من الدقة والتناسق، وبث فيه

الحياة التي ينعم بها الإنسان وغيره من الكائنات الحية. وخص الإنسان بعقل أسمى عليه

الأحاسيس والرؤى والأفكار التي اقتصر على غيره من المخلوقات.

¹ محمد عبد العزيز نظمي، القيم الجمالية، 35.

² سيد أحمد طهطاوي، القيم التربوية في القصص القرآني، 47.

³ محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي، 56.

وقد تباينت الرؤى والأفكار بين الشعوب عامة، ولو قارنا بين جنس وآخر لوجدنا ثمة تمايزاً واختلافاً كبيرين. وقد يكون مرد هذا التباين في الأفكار والسلوك إلى طبيعة القيم التي سادت أي مجتمع من المجتمعات كلها، وإلى موقفهم من القضايا التي تتعلق بالكون والحياة.

توجه القيم فعاليات الإنسان فكراً وسلوكاً إزاء العالم من حوله، فالإنسان أهل للخير والشر، فهو محمود بالخير ومذموم بالشر، ولا يعني ذلك "أنه يذم ويحمد في آن واحد، وإنما معناه أنه أهل للكمال والنقص بما فطر عليه من استعداد لكل منهما، فهو أهل للخير والشر لأنه أهل للتكليف"¹، لذلك وصف الإنسان "بالكائن الحي المفكر"²، ومن الإنسان اشتق مصطلح الإنسانية والتي تعني: "ما اختص به الإنسان من المحامد من نحو الجود وكرم الأخلاق"³.

وفق التعريفات السابقة - للقيمة والإنسانية- يمكننا القول إن القيم ساعدت على حفظ التوازنات الحياتية للإنسان، إذ جعلت لحياته غاية سامية، ينشد تحقيقها في ظل نواميس معينة سواء أكانت ناتجة عن عقله أم متأثرة بتعاليم دينية. ومن تلك القيم التي تتحول إلى غايات؛ قيمة الولاء للقبيلة، إذ يهدف الفرد من ورائها إلى رفعة قبيلته وإعلاء شأنها. وكذلك قيمة العفة التي يتطلع الإنسان بها إلى صون العرض وحفظ الأنساب، وكذلك قيمة الشجاعة التي يرنو منها أن يكون مهاب الجانب، غير مستباح الحمى والعرض. وغيرها من القيم التي تحفظ للإنسان كرامته وبقائه. وثبات القيمة أو زوالها يتأتى من اتفاق المجتمع عليها، وهذا ليس معناه أن الإنسان يتقبل قيماً أو يرفض أخرى بناء على مزاج خاص، ولكن التطور الإنساني، وتعاقب الحضارات يجعل بعض القيم نسبية وبعضها الآخر ثابتاً وفق انسجامها مع الحياة الجديدة. وخير مثال على ذلك بعض العادات والقيم التي أرسى الإسلام قواعدها وعززها في النفوس، بالمقابل مع القيم التي أبطلها وجبّها للضرر المترتب عليها وما تخلفه من نتائج، لأن القيم هي التي توجه فعاليات الإنسان فكراً أو سلوكاً.

انطلاقاً مما سبق تعاملت مع القيم في شعر حسان بن ثابت، فارتباطها بالجانب الأخلاقي كان الأقرب للجانب الإنساني، إذ تؤكد على إنسانية الإنسان ورغباته السامية، وتطلعاته التي جبل عليها.

¹ عباس محمود العقاد، الإنسان في القرآن، 10.

² المعجم الوسيط، 50/1.

³ محمد إبراهيم حور، النزعة الإنسانية في الشعر القديم، 15.

المبحث الأول: المعاني الإنسانية في حديثه عن المرأة:

موقف حسان من المرأة:

نزلت المرأة في نفس العربي منزلة رفيعة فهي الأم والأخت والبنات والحببية، وهي العرض والشرف، وهي التي تستهزئ بهم، وتشخذ القرائح، وتأسر الألباب والقلوب، بها يأنس الأنيس، ويرتقي بها ومعها في علاقات إنسانية خاصة ومميزة.

لذا عني الشعراء عناية كبيرة بالمرأة في أشعارهم، فهي مصدر إلهامهم، وديوان الشعر العربي يحفل بجزء عظيم من الحديث عنها حتى غدا افتتاح القصائد بها أمراً موروثاً وتقليداً فنياً عند الشعراء، فيقفون على ديارها، ويبثونها أشواقهم وأحاسيسهم وما يختلج في نفوسهم، وأسهبوا الحديث عن محاسنها الخلقية والخلقية، وخلعوا عليها الأوصاف والنعوت والتشبيهات بما لم يظفر به موضوع آخر من مواضيع الشعر العربي، حتى غدا ذكرها قضية مهمة تشغل حيزاً كبيراً بين قضايا الأدب والنقد.

كذلك حال المرأة عند حسان فقد نظر إليها باعتدال، فلم يعن فقط بمحاسن بدنها ومواطن الجمال فيه، وإنما صور تأثيرها في نفسه، وما تفيض به من حنان ودفء، وأنه لا غنى له عن حضورها في حياته حتى في لحظات صدودها وإعراضها، وقد تمثلت تلك القيم بمعانيها الصريحة أو برموزها ودلالاتها في مختلف قصائده، فهو يخاف على زوجته من بعده، ويقدم لها النصائح ويدعوها ألا تتخذ من بعده من كان ظلاماً للعشيرة حسداً للكرام، يبغض سادات القوم وأشرفهم لتقصيره عن اللحاق بهم، ويمتدح شتم أعراضها سفاهاً وحمقاً، وإن عاتبه القوم على تفریطه في حق العشيرة ازداد غياً وإعراضاً عن نصرتها، يقول لها¹:

[المتقارب]

فإِذَا هَلَكْتُ فَلَا تَنْكَحِي خَذُولَ الْعَشِيرَةِ حَسَّادَهَا
يَرَى مَذْحَةَ شَتَمَ أَعْرَاضِهَا سَافَاها وَيُبْغِضُ مَنْ سَادَهَا
وإنْ عَاتَبْتَهُ عَلَى مِرَّةٍ وَنَابَتِ مُبَيَّتُهُ زَادَهَا²

¹حسان، الديوان، 103.

²أي نزلت وقبعه.

وهنا نجد بعض القيم وإن اتهمه نقاد بها "بقلة حذقه بأساليب الغزل"¹ إلا أنها تحمل في طياتها معاني جليلة محببة إلى النفس كالحياء والعفة، فهو هنا الحيي الخفر الذي لا يملك الطاقة والجرأة على مدّ الذراع إليها، ومجاذبتها ما يتبادلها العشاق في خلواتهم من المتاع والحديث، إذ يقول² :

[الكامل]

وَلَقَدْ تُجَالِسُنِي فَيَمْنَعُنِي ضَيْقُ الذَّرَاعِ وَعِلَّةُ الخَفْرِ
لَوْ كُنْتُ لَا تَهْوِينَ لَمْ تَرِدِي أَوْ كَانَ مَا تَلْوِينَ فِي وَكْرِ
لَأَتَيْتُهُ لِأُبَدَّ طَالِبَهُ فَاقْتِي حِيَاءَكَ وَأَقْبَلِي عُذْرِي

والخفر هنا أليق بالمرأة منه بالرجل، إلا أن الحياء ما دخل شيئاً إلا زانه، فهو ليس كشعراء الغزل الحسي في العصر الجاهلي كامرئ القيس مثلاً الذي يجاهر بخلواته المريبة، إذ يقول³ :

[الطويل]

فَلَمَّا أَجْزَا سَاحَةَ الحَيِّ وَانْتَحَى بِنَا بَطْنَ حَقْفِ ذِي رِكَامِ عَقْتَلِ
وَإِذَا قَلْتُ هَاتِي نَوَّلِينِي تَمَائِلْتُ عَلَيَّ هَضِيمَ الكَشْحِ رِيَا الْمُخْلَلِ
مُفَهَّفَةً بِيضَاءٍ غَيْرُ مُفَاضَةٍ تَرَائِبُهَا مَصْقُولَةٌ كَالسَّجْنَجَلِ

أو كالتابغة الذبياني الذي أفحش في بعض نسيبه خاصة في قصيدته "المتجردة"⁴، والتي كانت سبباً في الجفوة التي حدثت بينه وبين النعمان بن المنذر، أو كعمرو بن كلثوم الذي أسبغ على فتاته في معلقته نعتاً حسية صرفة⁵.

ارتقى حسان بشعره وعفته عن ذكر الخلوات المريبة التي عج بها شعر بعض الشعراء الجاهليين، فهو لا يقدم على زيارة المحبوبة في وقت متأخر من الليل، عندما يهجع الرقباء وينام الأهل، وهو لا يخرج بها إلى الأماكن النائية في أعماق الصحراء بعيداً عن الحي وتغفية آثار الأقدام على الرمال، كي لا يهتدي أحد إلى مكان اللقاء.

¹ محمد طاهر درويش، حسان بن ثابت، 272.

² حسان، الديوان، 190-191.

³ امرؤ القيس، الديوان، 26-27.

⁴ المتجردة هي زوجة النعمان بن المنذر ملك الحيرة. ينظر: النابغة، الديوان، 139-146؛ الأصفهاني، الأغاني، 10/11.

⁵ ينظر: عمرو بن كلثوم، الديوان، 54-55.

ويؤكد حسان في أبياته السابقة على حيائه وضيق ذرعه بقوله (اقبلي عذري)، أي اقبلي تمنعي عن مجاراتك الهوى لشدة حيائي وخفري، ولربّما دل أسلوبه على بعده عن مناهج الغزل، إلا أنه يحمل معه قيمة كبرى، "وإن كنا لا نربط بين الشعر والأخلاق من حيث القيمة الفنية إلا أن اللافت للنظر أن الشعر يعكس -بصورة ضمنية- صورة لأخلاق صاحبه وأخلاق المجتمع"¹. ولكنه إذا اجتمعت الأخلاق مع الفن وتلاحما، أصبحت هناك قيمة تضاف للنموذج الفني فتزيده جمالاً.

وبرسخ أيضاً تلك القيمة في حديثه مع شعثاء إذ يقول لها²:

[الطويل]

فلا المال يُنسيني حَيَايَ وَحِفْظَتِي ولا وَقَعَاتُ الدَّهْرِ يَفْلُئُنَ مِبردي

وقد امتد موقف حسان وغيره من شعراء العفة في العصر الجاهلي إلى شعراء الغزل العذري فيما بعد، فامتازت أشعارهم بالعفة وطهر القول، والمباشرة في الأسلوب، من غير إباحة مسرفة، فلم يحفلوا بجمال المرأة الجسدي بقدر ما حفلوا بقوة أسرها وجاذبيتها، ومن ذلك قول جميل بثينة الذي تحول الحفيظة بينه وبين أن ينطلق كلما وجد مكاناً للانطلاق، يقول³:

[الطويل]

وإني لتنسيني الحفيظة كلِّما لقيتُك يَوْماً أن أبثُّك مايبا

وبذلك جعل جميل بثينة عفته تسمو فوق أمور الحس، فتخمد عند رؤيته من يحب كل غريزة حسية، وتتلاشى كل نازعة لا تعرف الطهر والنقاء.

ومنه أيضاً قول قيس بن الملوّح⁴:

[الطويل]

حلفتُ بمن صلتُ قريشٌ وجمّرتُ له بمنى يوم الإفاضة والنحرِ
لقد أصبحت مني حصاناً بريئةً مطهرةً ليلى من الفُخْشِ والنُّكْرِ
من الخفّراتِ البيضِ لم تدرِ ماالخنا ولم تُلفَ يوماً بعد هَجَعَتِها تَسْري

¹ حسني عبد الجليل، الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، 184 .

² حسان، الديوان، 132.

³ جميل بثينه، الديوان، 122. وقوله: يموت مني الهوى إذا ما لقيتها ويحيا إذا فارقتها فيعود الديوان، 33.

⁴ قيس بن الملوّح، الديوان، 121.

وهذا يجعلنا نتفق مع شوقي ضيف في رأيه: "إن الغزل العذري له أصول في الجاهلية"¹. وكذلك مع يوسف خليف الذي جعل للعاطفة صورتين طبيعيتين من صور الحب وهما: صورة الحب الحسي الذي يفتن فيه الرجل بالمرأة من حيث هي أنثى، تحقق له المتعة واللهو، وإرضاء الحواس، فتنة تدفعه إلى طلب الجنس الآخر في عمومته، وليست لغاية الحب لكنها وسيلة إليه. وصورة الحب الروحي الذي يتعلق فيه العاشق بمحبوبته، يرى فيها كل ما يحقق له متعة الروح، وإرضاء النفس، واستقرار العاطفة. وهذه الصورة تسيطر عليها تقاليد خاصة ومثل معينة².

وحسان لم يتبذل ولم يفحش في وصف محاسن المرأة الحسية، فأقصى ما وصل الوصف عنده أن ريقها يشبه الخمر اللذيذة المعتقة، وقد تكرر هذا الوصف عنده، يقول³:

[السريع]

كَأَنَّ فَاهَا ثَغْبٌ بَارِدٌ فِي رَصْفٍ تَحْتَ ظِلَالِ الْغَمَامِ⁴
شُجَّ بِصَهْبَاءٍ لَهَا سَوْرَةٌ مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ عُتَّقَتْ فِي الْخِيَامِ

وورد من تشبيهاته الحسية أن محبوبته ممكورة الساقين، وأن ساقها تشبهان برديتين نابنتين في ماء كثير، فهما مرويتان⁵:

[الطويل]

مَمَكُورَةٌ السَّاقَيْنِ شِبْهُهُمَا بَرْدِيَّتَا مُتَحَيَّرَ غَمْرٍ

وأن شعرها المغدودن الشديد السواد يتقلها إذا نهضت لغزارته وطوله وكثرت، يقول فيه⁶:

[المتقارب]

وَقَامَتْ تُرَائِيكَ مُغْدُونًا إِذَا مَا تَتَوَّعُ بِهِ آدَهَا⁷
وَوَجْهًا كَوَجْهِ الْغَزَالِ الرَّيِّبِ يَقْرُو تِلَاعًا وَأَسْنَادَهَا⁸

¹ شوقي ضيف، العصر الجاهلي، 214.

² ينظر: يوسف خليف، الحب المثالي، ص 11.

³ حسان، الديوان، 185.

⁴ الثغب: ما بقي من الماء في بطن الوادي، ابن منظور، اللسان، مادة ثغب .

⁵ حسان، م. س، 190.

⁶ حسان، الديوان، 102.

⁷ شعر مغدودن: شعر كثير ملتف طويل، ابن منظور، اللسان، مادة غدن.

⁸ التلاع: مجرى الماء من أعلى الوادي إلى بطون الأرض، ابن منظور، اللسان، مادة تلغ. أسنادها: ما قبالك من الجبل، ابن منظور، اللسان، مادة سند.

وحسان لا يقف كثيراً عند وصفه لجسد صاحبه على عكس ما يفعل الشعراء الجاهليون، وإن فعل ذلك فإنه يرسم لها صورة سريعة، كأنه لا يعنيه إلا وقع جمالها في نفسه، فهو "مصور تأثري أكثر منه مصوراً واقعياً حسياً"¹. فيظهر بذلك الجوانب الإنسانية المتمثلة في نفس محبوبته، وما تنثريه في نفسه من عواطف، فهي حانية عطوف كالظبية التي ترعى طفلها وتحنو عليه لضعف جسمه وخفوت صوته، وهي قيمة تزيد من جمال المرأة وحسنها² :

[السريع]

هَلْ هِيَ إِلَّا ظَبِيَّةٌ مُغَزِلٌ مَأْلَفُهَا السَّذْرُ بِنَعْفِي بَرَامٌ³
تُرْجِي غَزَالاً فَاتِرًا طَرْفُهُ مُقَارِبَ الْخَطِّ وَضَعِيفَ الْبُغَامِ

وهو بذلك يقدم صورة ضمنية لإعادة النظر للمرأة، وللاعترااف بدورها في المجتمع والحياة.

ويصفها في موضع آخر (بالألوف)، وهي من الصفات المعنوية المحببة إلى النفس، إذ تطيب ألفتها وعشرتها، يقول⁴:

[الخفيف]

تَلُكُ دَارَ الْأُلوْفِ أَضْحَتَ خَلَاءٍ بَعْدَ مَا قَدْ تَخَلَّاهَا فِي نَشَاطِ

وهكذا تتضح نظرة حسان للعلاقة القائمة ما بين الرجل والمرأة، والتي تجعله يستحي من أن يعرض مفاتها وكأنها تمثال يستعرض من خلاله عناصر الصورة الحسية، فكلما كان العاشق ماجناً كان غزله مكشوفاً، وكلما كان ذا خلق كريم وقيم أصيلة، التفت إلى تأثيرها في نفسه.

ولما كان خلق الوفاء عند المرأة من الصفات المثالية التي وقف عندها الشعراء، فقد بادل الشاعر المرأة الوفاء ليشكل ذلك بينهما رباطاً مقدساً ذا قيمة إنسانية. ومن ذلك قول حسان⁵:

¹ سيد حنفي حسنين، حسان بن ثابت، شاعر الرسول، 87.

² حسان، الديوان، 185.

³ وجاء ظبية مطلق، أي معها طفل، حسان، م. ن، حاشية ص 185. والبرام: اسم جبل، ابن منظور، اللسان، مادة برم.

⁴ حسان، الديوان، 168 وردت في الديوان بتحقيق سيد حنفي حسنين (الألوف) بضم الألف، بينما في الديوان تحقيق عبد الرحمن البرقوقي ص 184 (الألوف) بفتح الألف.

⁵ حسان، الديوان، 182.

[الطويل]

لَعَنُرُ أَبِيكَ الْخَيْرِ مَا ضَاعَ سِرُّكُمْ لَدِي فَتَجْزِينِي بِعَادَاً وَتَصْرِمِي
وَمَا ضِفْتُ دَرْعاً بِالْهَوَى إِذْ ضَمِنْتَهُ وَمَا كَظَّ صَدْرِي بِالْحَدِيثِ الْمَكْتَمِّ

فيصرح أن عهدها وثيق وليس بالرت، وأن سرها ليس بذائع، وأنه لا يعجز عن كتمان سرها، فهو من أهل الوفاء والإخلاص، وكلها معانٍ تعاورها الشعراء في سياق الغزل.

ويقول حسان¹:

[الخفيف]

دَارَهَا إِذْ تَقُولُ مَا لِابْنِ عَمْرٍو لَجَّ مِنْ بَعْدِ قُرْبِهِ فِي شِطَاطِ
بَلَّغَاهَا بِأَنْتِي خَيْرُ رَاعٍ لِلذِي حَمَّالَتْ بِغَيْرِ افْتِرَاطِ

ويقول أيضاً²:

[الكامل]

وَحَلَفْتُ لَا أَنْسَاكُمْ أَبَدًا مَا قَادَ طَرْفَ الْعَيْنِ نَوْ شُفْرِ
وَحَلَفْتُ لَا أَنْسَى حَدِيثَكَ مَا نَكَرَ الْعَوِيُّ لَأَذَاةَ الْخَمْرِ

ويقسم حسان بربِّ الإبل المذلَّة، وما يقطعن من مفازات واسعة، وبربِّ البُدن التي تقدم أضاحٍ في مكة أنه لن يتحول عن خير ما عهدته به، وأنه ما أحب على حبها أحداً، يقول³:

[المنسرح]

إِنِّي وَرَبِّ الْمُخَيَّسَاتِ وَمَا يَقْطَعْنَ مِنْ كُلِّ سَرِيحٍ جَدِّدِ
وَالْبُؤْدُنِ إِذْ قُرَّبْتِ لِمَنْحَرِهَا حَلْفَةَ بَرِّ الْيَمِينِ مُجْتَهِدِ
مَا حُلْتُ عَنْ خَيْرِ مَا عَهَدْتِ وَمَا أَحْبَبْتِ حَبِّي إِيَّاكَ مِنْ أَحَدِ

ولعل خير ما يوضح قيمة الوفاء عنده علاقته مع زوجته عمرة الأوسية، التي ظل يذكرها في بعض قصائده بأحسن ما تذكر به أنثى بالرغم من نشوزها وانفصالها عنه، وقد ذكرها في معرض

¹ حسان، الديوان، 168.

² حسان، م، ن، 189.

³ حسان، م، ن، 150.

هجائه للأوس قومها، وأنه قد سكت عنهم كونها منهم يقول¹:

[الوافر]

وقد أكرمتمكم وسكنت عنكم سارة الأوس لو نفع السكون
حياء أن أشاتمكم وصوناً لعرضي إنه حسب سمين
وأكرمت النساء وأنت رهطي وهذا حين أنطق أو أبين

إن ظاهرة العذل شائعة في العصر الجاهلي وتكشف تباين الأفكار ما بين الرجل والمرأة تجاه القيم، وينطلق كل منهما في مواجهتها من زاوية مختلفة، ففي الوقت الذي ينطلق فيه الرجل إلى مجارة القبيلة في قيمها ومثلها التي تدفعه إلى بذل المال، تقف المرأة التي أحب تجادله محاولة صده وتثبيته عن تحقيق مبتغاه، وليس ذلك نابعا عن بخلها، إنما حرصاً عليه وعلى ماله.

وقد صور لنا حسان هذا المشهد التحاوري بينه وبين زوجته التي تلومه على كثرة شربه، وتطلب منه أن يقلع عنه ليصبح صاحب ثراء ومال، ولكنه يبين لها نظرتة الخاصة تجاه القيم التي ينتهجها في حياته، والتي لا يتخلى عنها حتى في لحظة سكره، فهو لا يسيئ إلى نديمه، ولا يخشاه جليسه إذا سكر، ولا ينادم سيئ الخلق ولا البخيل، ولا يخشى جاره الفقر والبأس مادام حسان حياً، فهو يقول²:

[المنسرح]

تقول شغناء لو تفيق من ال خمير لأفويت مثيري العدد
أشهى حديث النذمان في فلق الصبح وصوت المغرد الغرد
لا أخذش الخدش بالنديم ولا يخشى نديمي إذا انشئت يدي
ولا نديمي العوض البخيل ولا يخاف جاري ما عشت من وبد³

وحسان يعذل نفسه ويلومها إن أخطأت، فهو يرى أن العلاقة بين الرجل والمرأة لا يجب أن تكون علاقة تصاب بل رباط مقدس، وكيف له أن يتصابى وقد جاوز الأربعين، واشتعل الرأس شيباً وقد حنكته التجارب وصقلته، يقول⁴:

[الطويل]

¹ حسان، الديوان، 321.

² حسان، م، ن، 150-151.

³ العوض: الداهية، ابن منظور، اللسان، مادة عضض. وبد: الفقر والبؤس، ابن منظور، اللسان، مادة وبد.

⁴ حسان، م، س، 148 - 149.

وَكَيْفَ وَلَا يَنْسَى النَّصَابِي بَعْدَمَا تَجَاوَزَ رَأْسَ الْأَرْبَعِينَ وَجَرَّيَا
وَقَدْ بَانَ مَا يَأْتِي مِنَ الْأَمْرِ وَاکْتَسَتْ مَفَارِقُهُ لُونًا مِنَ الشَّيْبِ مُغْرِيَا

ويرى أنه لا يجمل بالعاقل الأريب أن يتصدى للصبأ وجهله، وليس بمعذور إن فعل بعدما عرف ما يجلبه النَّصَابِي¹:

[الطويل]

وَكَيْفَ تَصَدَّى الْمَرْءُ ذِي اللَّبِّ لِلصَّبَا وَلَيْسَ بِمَعْذُورٍ إِذَا مَا تَطْرِيَا

وبذلك تشكل علاقة حسان بالمرأة موضوعاً مهماً في منظومة القيم عنده، فقد أولاها عناية واهتماماً، ولم يكتفِ بذكرها في مقدمات قصائده، بل أفرد لها ثلاث قصائد من قصائده الجاهلية، مصوراً محبوبته المرأة المثال شكلاً ومضموناً²، أي اعتنى بصفاتهما المادية والمعنوية دون أن يغلب عليه جانباً دون الآخر، كبعض الشعراء الذين تباروا برسم صورة جمالية للمرأة من حيث تفاصيل أجزاء الصورة حتى الصغير منها، فحديثه عنها "عفيف وفيه رجولة"³ وهذا موقف التزمه حسان حتى عند مصاحبته للغساسنة الذين كثرت عندهم القيان والغانيات، أو بين قومه في يثرب حيث نساء بني يهود. ويرى ربيعة أبو فاضل أن موقف حسان من المرأة موقف معتدل، ليس فيه إباحة أو ادعاءات متخيلة، وأنه من الضعف أن نقول أنه كان ركاضاً وراءهن، ساعياً وراء إغوائهن⁴.

إن نظرتة إلى المرأة نابعة من دوافع إنسانية أساسها الشراكة في الحياة لا العبث واللغو. فصورها في مواقف مختلفة، فهي الزوجة التي يخاف عليها، ويقدم لها النصائح القيمة التي تفيدها بعد موته، وهي المطلقة التي ما زال يذكرها يحفظ غيبها على الرغم من انفصالها ونشوزها عنه. وهي الحبيبة التي يبادلها الإخلاص والوفاء في حلها وترحالها، وهي العاذلة الي تلومه حرصاً على ماله. وفي كل هذه الصور للمرأة عكس لنا حسان نظرتة إليها وما تحمله من مدلول قيمي يبين مكانتها، ويضمن سلامة الحياة الإنسانية واستمرارها .

¹ حسان، الديوان، 149.

² أرقام القصائد في الديوان: 38، 39، 72، كلها باستثناء ثلاثة أبيات من بين ثلاثة وأربعين بيتاً من القصيدة 72.

³ وليد الاعظمي، شاعر الإسلام حسان بن ثابت، 34.

⁴ ينظر: حسان بن ثابت الأنصاري، 55.

المبحث الثاني: المعاني الإنسانية في حديثه عن الذات .

حسان والذات:

المنتبع لديوان حسان يلحظ تعالي (الأنا) وتعاضها في شعره، وهذا أمر قل وجوده عند الشعراء الجاهليين، إلا عند أولئك الذين وجدت عندهم قضية ما، أرادوا بها إثبات ذواتهم في القبيلة، أمثال عنتره وطرفة والشعراء الصعاليك .

كانت قضية عنتره الأساسية هي تحقيق الانتماء للقبيلة، وإجبار السادة على الاعتراف به، والتغاضي عن هجته لحقته من جهة أمه. " وشعر عنتره يدور في إطار هذه القضية يبدأ منها وينتهي إليها، ولا يفتأ يقدم لعالم السادة الدليل تلو الدليل على أنه أحق الناس بالانتماء من كثير ممن أفسحت لهم المجالس"¹.

ومما يدل على هذه العقدة إحساسه بالبرء والشفاء حين استغاث به الفرسان في الحرب، وفي بعض قصائده ذكر لأسمائهم، يقول:²

[الطويل]

ومما شَفَى نَفْسِي وَأَبْرَأَ سُقْمَهَا قِيلُ الْفَوَارِسِ وَيَاكَ عَنْتَرَ أَقْدِمِ

بينما نجد قضية تعالي الأنا عند طرفة جدلية بين الأنا والآخر، حيث أنكر القوم حياته اللاهية وسعيه وراء اللذة وإسرافه في الخمر، وطرفة لا ينكر ذلك إذ يقول:³

[الطويل]

وما زال تَشْرَابِي الْخُمُورَ وَلَذَّتِي وَيَبِيعِي وَإِنْفَاقِي طَرِيفِي وَمُتَلْدِي
إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا وَأَفْرَدْتُ إِفْرَادَ الْبَعِيرِ الْمُعَبَّدِ

كذلك نلاحظ التمرد المتفجر في شعر الصعاليك، الذي يؤكد حضور الأنا إزاء الآخرين، والتي يفجر معها رفضهم لقوانين القبيلة الجائرة، والتميز العنصري المقبوت، الذي يركز على المكانة الاجتماعية واللون والغنى. وإن إلحاحهم على هذا الضمير الدال على الفردية يؤكد سعيهم لإبراز خصوصية ما في قصائدهم، وهي بطلان النظرة القبلية الدونية لهم .

¹ فوزي أمين، الشعر الجاهلي، دراسات ونصوص، 104.

² عنتره بن شداد، الديوان، 194.

³ طرفة بن العبد، الديوان، 33.

ويقابل تعالي (الأنا) عند بعض الشعراء تضخيم (نحن) عند غيرهم أمثال عمرو بن كلثوم مثلاً والتي تتجلى في معلقته، فقد بلغت ستة وتسعين بيتاً، يدور فلكها حول ضمير الجماعة باستثناء بيت واحد، "حتى أنه تخير لمعلقته تلك القافية المنتهية بالنون والألف الممدودة ليهيئ لنفسه المجال الفسيح لاستخدام ضمير الجماعة (نا)"¹.

أما قضية حسان بن ثابت فهي مغايرة لذلك تماماً، بينما هو شاعر القبيلة الأول ولسانها الناطق، إلا أننا نجد تعاضم (الأنا) في شعره لدرجة أنه ينسب لنفسه أحياناً - وإن كانت قليلة - بطولات لم يقم بها .

فقضية حسان الأساسية هي تحقيق الذات لعلة أصابته وهي قطع أكحله²، والتي أفتدته عن المشاركة في الحروب الدائرة بين قومه وبين الأوس، يقول حسان في ذلك³ :

[المتقارب]

أَضْرَ بِجِسْمِي مَرُّ الدُّهُورِ وَخَانَ قِرَاعَ يَدِي الأَكْحَلُ
وَقَدْ كُنْتُ أَشْهَدُ عَيْنَ الحُرُوبِ وَيَحْمُرُّ فِي كَفِّي المُنْصَلُ

من المعروف أن مظاهر البطولة عند العرب في جاهليتهم اقترنت بجوانب القوة الجسمية، إضافة إلى جوانب البطولة النفسية، وفقدان أحدهما يعني الكثير بالنسبة للجاهلي، فالجانب المعنوي وما يحمله من أخلاق وقيم ونسب كريم يمنحه الثقة، ويؤهله لأن يقود قومه بعزيمة ومضاء، بينما الجانب الجسدي يجعله فارس القبيلة بلا منازع لما يجلبه من انتصارات في الحروب.

وحسان بإصابة أكحله قد افتقر إلى الجانب الجسدي مما جعله يدعم الجانب النفسي، فاضطر إلى تعويض ذلك الجانب المفقود عن طريق تكثيف الحديث عن ذاته، فيصف لسانه أنه يبلغ من الأعداء ما لا يبلغ سيفه في مواقف جرت عادة القوم أن يفخروا بعدتهم وشجاعتهم، فلا نكاد نجد ذكراً لفرس أو سيف أو رمح أو درع إلا لماماً، ففي قصيدته التي يناقض فيها قيس بن الخطيم نراه يفخر فخراً عاماً بسيفه وفخراً خاصاً بلسانه، وتؤكد ذلك بعد إسلامه إذ نجده يباهي الناس بقوافيه الأوابد إذ يقول⁴ :

¹ يوسف خليف، دراسات في الشعر الجاهلي، 177.

² ينظر: الأغاني، 171/4.

³ حسان، الديوان، 352.

⁴ حسان، م، 196.

[الطويل]

كُلُّ أَنْاسٍ مَيَسَمٌ يَعْرِفُونَهُ وَمَيَسَمٌ مَيَسَمٌ فِيْنَا الْقَوَافِي الْأَوَابِدُ

فأراد حسان أن يبرز ذاته الشعرية في الوقت الذي اضمحلت فيه ذاته الحربية، فافتخر بنسبه العريق ومكارمه وسماحته وبذله وحفظه لغيب القبيلة ومآثره في قومه وعفته وحيائه، فكان لفخره في نفسه نصيب وافراً في شعره ليدعم موقفه أمام القبيلة. يقول محمد طاهر درويش في ذلك: "كان حسان يفخر بنفسه وبالخزرج، وكان للفخر غريزة قاهرة غالبة في نفسه غذاها ونماها وزادها قوة ذلك النسب العريق، وتلك المآثر الخالدات، وجاهه العظيم عند الملوك، فكان اضطراره إلى إعلان مفاخره حين رأى خمول ذكره في ميادين المعارك والحروب"¹.

والتعويض من الحيل الدفاعية التي يلجأ إليها المرء لتعويض نقص ما، ورد الاعتبار إلى ذاته وفخر حسان بشخصه، وتضخيمه لذاته ما هو إلا ذلك التعويض عن البطولات الجسدية بفخر فردي يظهر فيه تفوقه العقلي والاجتماعي والفني، ولعل خير دليل على ذلك تخضيبه لشاربه وعنفته بالحناء دون سائر لحيته ليبدو كالأسد الوالغ في الدم"².

ونحن هنا لا نعدم حسان من أية مكرمة أو فضيلة فيلجأ إلى التعويض، فهو من أكابر القوم وعليتهم، وهو ذو رأى صائب وعقل راجح فيهم، وهو ابن النسب العريق والأصل الكريم، لكننا نحاول إيجاد تفسير منطقي لتعالى الأنا في بعض شعره، ونسبة بعض البطولات الحربية إلى نفسه، على الرغم من يقينه التام بأنه عاجز عن القيام بها. ولعل هذا هو الذي دفع المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى الضحك حينما ألقى حسان بعض أبياته"³.

يعل مصطفى حجازي ذلك بأن الإنسان الذي يعاني من مشكلة جسدية ما تتولد عنده حساسية مفرطة تجاه ما يهدد مظهره الخارجي لذلك" فإن همه الأول هو اجتياز الامتحان، وهذا ما يمكن تسميته (الجرح النرجسي). وهو الذي يشكل أكثر مواطن الوجود الإنساني ضعفاً، ومساً بكبريائه الذاتي، إنها الكرامة المهدة. ولذلك فإن العزة والكرامة تحتلان مكانة أساسية في خطاب هذا الإنسان. فبقاء الرأس مرفوعاً، والاحتفاء من كلام الناس كلها تصبح قضايا مصيرية بالنسبة له، لهذا يسعى نحو نوع من التعويض بما يعانيه من نقص أو ضعف لأي سبب من الأسباب"⁴.

¹ محمد طاهر درويش، حسان بن ثابت، 233.

² الأصفهاني، الأغاني، 4/143. والعنفة: شعرات بين الشفة السفلى والذقن. ابن منظور، اللسان، مادة عنفق.

³ الأصفهاني، الأغاني، 4/171.

⁴ مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، 45-48.

ويرى ألفرد أدلر: "أن خلف جميع أنماط السلوك التي تحاول أن تظهر شعوراً (بالتفوق) عقدة نقص تدعوه إلى بذل مجهودات خاصة لإخفاء مشاعر النقص¹. ويرى أن الصراع الذي يخوضه هؤلاء الأشخاص يزيد من قوتهم مما يمكنهم من المضي قدماً، والتغلب على كثير من المشكلات، والوصول إلى هدف قد يفشل الأصحاء في الوصول إليه².

فالشعور بالنقص لعلّة أصابت الإنسان ليس عيباً بل هو أمر طبيعي، ويعد سبباً في إحراز التقدم عند الطموحين منهم، وهذا ما بلغه حسان في شعره، بل هو سر العظمة التي أوصلته لأن يفضل الشعراء بثلاث: كونه شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبي - صلى الله عليه وسلم - في النبوة، وشاعر اليمن كلها في الإسلام³.

وحسان إذ أبدع في وصف ذاته وبيان القيم التي يؤمن بها، إلا أنه لا يمكننا الفصل ما بين ذاته وما بين القبيلة، فقصيته مع (الأنا) وإن تعالت في شعره ليست كقضية عنتره أو طرفه أو شعراء الصعاليك إذ إن قصيتهم تقوم على جدلية الأنا والآخر، ويأتي ذكرهم للآخر بالمعنى السلبي الذي يهدد حياتهم. لكن حسان لقي الاهتمام والعناية والتكريم من الآخر، فكانت قصيته الأولى مع نفسه لا مع غيره، فافتخر بحسبه العريق وفضله وما أوتي من مكارم الأخلاق، غير منقص من قدر قومه، لذلك سار شعره الذاتي جنباً إلى جنب مع شعره القبلي، فتناغم الاثنان وامتزجا مما جعل لوقع شعره قوة ورونقاً. وفي ذلك يقول سيد حنفي حسنين: "حينما تتداخل شخصية حسان في شخصية قبيلته، ويصبح الأصدقاء المتجاوبة والألحان ذات المطالع المتألّفة، تتردد في كل منهما شخصية واحدة يبلغ فيها حسان القمة في تصوير مكارم نفسه وأمجاد قبيلته معاً، ونسمع تلك النغمات في قصائده المنبعثة من نفس فياضة، ومن روح شاعرة ومن طبيعة مرتبطة بينهما، منساقاً مع فطرتها⁴.

وربما يعد الحديث عن النفس والتباهي بالخصال غروراً وادعاءً، إلا أنه مستساغ في الشعر، يقول ابن رشيق: "ليس لأحد من الناس أن يطري نفسه ويمتدحها في غير منافرة إلا أن يكون شاعراً، فإن ذلك جائز له في الشعر غير معيب عليه⁵.

¹ ألفرد أدلر، معنى الحياة، ترجمة: عادل نجيب بشرى، 36.

² ألفرد أدلر، م. ن، 78.

³ الأصفهاني، الأغاني، 4/143.

⁴ سيد حنفي حسنين، حسان بن ثابت، 58.

⁵ ابن رشيق، العمدة، 83/1.

وحسان إذ يفخر بقبيلته فإنه يمتدح فيها الخصال الحميدة والقيم الأصيلة، كالكرم وسخاء اليد في العسر واليسر، والحياء والعفة ونصرة العشيرة وحفظ غيبها ومعاداة أعدائها، ويمتدح أيضاً خلاته وسجاياه مع إخوانه وندمائه ونجدته للجار وحرصه على العرض والشرف .

مما تقدم نستطيع توضيح القيم من شعره على النحو الآتي :

نصرته للعشيرة :

تتضح هذه القيمة من خلال حديثه مع شعثناء زوجته، الذي يوازن فيه ما بين مكارم نفسه وما يقابلها من صفات، فهو يكلف نفسه كل أمر عظيم يؤودها ويثقلها في سبيل مرضاة العشيرة ورفعة شأنها، فيقدم لها كل ما تطلبه وترومه، فيكذب إبعاد من يتوعدها فلا ينال منها أحد، ويتحمل المغارم التي تنتابها من ديات أو غرامات، ويقاقل كل من يكيد لها بسوء، فهو ليس كذاك الحسود، خذول العشيرة الذي يرى مدحة تلب أعراضها ، فيفرح ويعتبط لذلك سفاهاً وحمقاً، وإن أمت بالعشيرة ملامة أو نزلت بها نازلة زاد الخطب وأشعله .

يقول حسان¹:

[المقارب]

فإِذَا هَلَكْتُ فَلَا تَنْكَحِي	خَذُولَ الْعَشِيرَةِ حَسَّادَهَا
يَرَى مَدْحَةً شَتَمَ أَعْرَاضَهَا	سَفَاهَا وَيُبْغِضُ مَنْ سَادَهَا
وَإِنْ عَاتَبْتَهُ عَلَى مِرَّةٍ	وَنَابَتِ مُبَيَّتَةً زَادَهَا
وَمِثْلِي أَطَاقَ وَلَكِنِّي	أُكَلِّفُ نَفْسِي الَّذِي آدَهَا
سَأَوْتِي الْعَشِيرَةَ مَا حَاوَلْتُ	إِلَيَّ وَأُكْذِبُ إِيعَادَهَا
وَأَحْمِلُ إِنْ مَغْرَمَ نَابَهَا	وَأَضْرِبُ بِالسَّيْفِ مَنْ كَادَهَا

ويطلعنا حسان على ما كان لقومه فيه من أمل عريض عقوده عليه، أفصح عنه بقوله:²

[الكامل]

ولقد تُعَمِّئِي الْعَشِيرَةَ أَمْرَهَا فَنُطِيقُ أَمْرَ الْمُعْضِلَاتِ وَنَعْتَايَ

¹ حسان، الديوان، 103.

² حسان، م، ن، 125.

ويحافظ حسان على أوامر القرابة والرحم على الرغم مما يصيبه منهم، حتى لا يفتت عضد العشيرة، فيقول¹:

[البسيط]

لولا ابن هَيْشَةَ إِنَّ الْمَرْءَ ذُو رَجِمٍ إِذَا لَأَنْشَأْتُ بِالْبَزْوَاءِ أَظْفَارِي²

ويشهد الله على مقدار حبه وسعيه لعشيرته، وما يكنه لهم في صدره من ولاء ومحبة، وهذا شعور متبادل ما بينه وبين قومه الذين لم يبطنوا يوماً عن نصرته، فلا يصلح من عاداهم، ويحفظ غيبهم، فلا يجري لسانه بقبيح في حقهم، ويسعى دوماً لنصرتهم منتظماً سيفه القاطع ودرعه الفضفاضة، يقول³:

[البسيط]

الله يَغْلُمُ مَا أَسْعَى لِحَيْهِمْ وَمَا يَغِيبُ بِهِ صَدْرِي وَأَضْلَاعِي
أَسْعَى عَلَى جُلِّ قَوْمٍ كَانَ سَغِيهِمْ وَسَطَ الْعَشِيرَةِ سَهْواً غَيْرَ دَعْدَاعِ⁴
وَأَصَالِحُ مَنْ عَادُوا وَأَخَذُ لَهُمْ وَلَا أُغِيبُ لَهُمْ يَوْماً بِأَقْدَاعِ
وقد أَرَانِي أَمَامَ الْحَيِّ مُنْتَظِماً بِصَارِمٍ مِثْلِ لَوْنِ الْمِلْحِ قَطَّاعِ
يَحْفِزُ عَنِّي نَجَادَ السَّيْفِ سَابِغَةً تَغْشَى الْأَنَامِلَ مَوْرَ النَّهْيِ بِالْقَاعِ⁵

ارتفع الحس القبلي عند حسان، لدرجة شعر معه أنه خلق لأجل قبيلته، فالتزم قضاياها، وناضل عنها بالسلاح الذي تمرس، وهو الشعر، معلناً أعلى درجات الالتزام. ولعل حسه القبلي الصادق نحو الجماعة التي ينتمي إليها هو الذي أهله ليكون شاعر الدعوة فيما بعد.

ترفعه عن الكلام الهذر:

كان حسان شاعر الخزرج الأول، يهجو أعاديها ويسلط عليهم لسانه الذي وصفه بأنه لو وضعه على شعر لحلقه أو على صخر لفلقه⁶، ولكن كان ذاك في الحروب والمعارك وما يدور فيها من

¹ حسان، الديوان، 252.

² البزواء : منزل بني رفاعة من بني سليم ، حسان ، م،ن، 252.

³ حسان، الديوان، 335-336.

⁴ دعْدَاع : القصير المدفوع ،ابن منظور، اللسان مادة دعع.

⁵ النهي : حاجز ينهي الماء أن يفيض، وقيل الغدير في لغة أهل نجد، ابن منظور، اللسان، مادة نهي.

⁶ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 305/1.

أحداث ومناقضات، "إنه هجاء الأبطال للأبطال"¹. ولكن في معرض حياته الخاصة لم يتعرض حسان لأحد بقبيح قول، إذ يأبى له حسبه وما ينشئه من القول أن يتصف بصفات تسوءه، فهو ليس بالرجل الهذر الذي يقول الكلام الكثير الرديء، فهو يكارم من يكارمه. وهو ليس ممن يسرق الشعراء معانيهم، فشعرهم لا يوازن المهمل المتروك من شعره، يقول:²

[الكامل]

إِنِّي أَكْرِمُ مَنْ يُكْرِمُنِّي وَعَلَى الْمُكَاشِحِ يَنْتَحِي ظُفْرِي
تَعِي سِقَاطِي مَنْ يُوَازِنُنِي إِنِّي لَعَمْرُكَ لَسَنْتُ بِالْهَنْزِرِ
لَا أَسْرِقُ الشُّعْرَاءَ مَا نَطَقُوا إِذْ لَا يُوَافِقُ شِعْرُهُمْ شِعْرِي
إِنِّي أَبَى لِي نَلْكُمْ حَسَبِي وَمَقَالَةَ كَمَقَالِ الصَّخْرِ

وقوله هذا قريب من قول كعب بن زهير الذي يفخر بأنه يلزم الحياء ويحفظه، وشيمته كرم الطبيعة، وتجنب الفحش من الكلام، يقول:³

[الكامل]

إِنِّي أَمْرٌ أَقْتَى الْحِيَاءَ وَشِيمَتِي كَرَمُ الطَّبِيعَةِ وَالتَّجَنُّبُ وَالْخَنَا

وما أقرب قول حسان (لست بالهذر) مما جاء في الآية القرآنية الكريمة: [وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ].⁴

وهو يحفظ لسانه من إيذاء خليله⁵:

[الخفيف]

يَوْمَ رُخْنَا وَمَا يَخَافُ خَلِيلِي مِنْ لِسَانِي خِيَانَةَ الْإِنْبِسَاطِ

¹ سيد حنفي حسنين، حسان بن ثابت ، 181.

² حسان، الديوان، 189 . تعد هذه القصيدة من القصائد المهمة في النقد العربي القديم إذ تحمل قضيتين مهمتين ؛ أولاها قضية السرقات الشعرية . وثانيهما قضية شياطين الشعر .

³ كعب بن زهير، الديوان، 11.

⁴ سورة المؤمنون، 3 / 23

⁵ حسان، الديوان، 171.

ولكنه في الوقت ذاته يرد على من يتعرض له بالإساءة، فينال منه بلسانه ما لا يناله بالسيف، وفي قصيدته التي يرد فيها على قيس بن الخطيم شاعر الأوس إشارة إلى ذلك¹:

[الطويل]

لَعَمْرُ أَبِيكَ الْخَيْرِ يَا شَعْتُ مَا نَبَا عَلِيَّ لِسَانِي فِي الْخُطُوبِ وَلَا يَدِي
لِسَانِي وَسَيْفِي صَارِمَانِ كِلَاهُمَا وَيَبْلُغُ مَا لَا يَبْلُغُ السَّيْفُ مِذُودِي

وفي موضع آخر يفخر بنسبه الأصيل وبلسانه الذي يصطلي بناره كل من تعرض له بالإساءة، يقول²:

[الكامل]

نَسَبِي أَصِيلٌ فِي الْكِرَامِ وَمِذُودِي تَكْوِي مَوَاسِمُهُ جُنُوبَ الْمُصْطَلِي

ولعل العفو عند المقدرة من الخصال المثالية التي سادت عند العرب في الجاهلية، وكذلك عدم السكوت على الإهانة والضميم قيمة جليلة أيضا ، وقد أخذ حسان بمجامعهما، فنراه يترفع عن الرد أحيانا صونا لعرضه وإكراما لذويه، فيقول في ذلك³.

[الوافر]

وَقَدْ أَكْرَمْتُمْ وَسَكَنْتُ عَنكُمْ سَرَاةَ الْأَوْسِ لَوْ نَفَعَ السُّكُونُ
حَيَاءً أَنْ أَشَاتِمَكُمْ وَصَوْنًا لِعَرْضِي إِنَّهُ حَسَبٌ سَمِينُ
وَأَكْرَمْتُ النَّسَاءَ وَقَلْتُ رَهْطِي وَهَذَا حِينَ أَنْطَقُ أَوْ أَبِيْنُ

الكرم:

شكلت الظروف القاهرة والبيئة القاسية التي عاشها العربي وما تميزت به من قحط وجفاف نوعاً من التعاطف الإنساني بين العرب، لذلك حرصوا على قرى الضيف وإغاثته، فالعربي يدرك أن راحلته قد تقوده في يوم ما إلى مكان قفر فيجد من يكرمه، فالشعور المشترك بالعجز والضعف ولد عندهم تقديس الكرم والنجدة والمروءة والإغاثة، وعدوها من مفاخرهم .

¹ حسان، الديوان، 132.

² حسان، م، ن، 125.

³ حسان، م، ن، 321.

وحسان يعتد باتصافه بهذه القيمة الجليلة، ويفتخر بها كثيراً في شعره، ويرى أنها من القيم التي ترفع من قدر صاحبها، فهو يجود على ذوي الحاجات وإن كان مجدباً، ويوقد ناره ليستدل بها الأضياف إذ كان للعرب نار تسمى نار القرى¹، ويفخر أنه من مطاعيم الريح²، وأنه يحتفي بأضيافه وقت الشدة والبؤس والفرح فيستقبلهم بالبشر والسرور والطلاقة قائلاً لهم: نزلتم مكاناً رحباً وقصدتم أهلاً، إذ ليس ثمّة شيء أوقع في نفس الضيف من أن يلاقيه المضيف باشاً في وجهه، مرحباً بقدمه، فهو في كرمه هذا أسبق من المطر، يقول³:

[الطويل]

وإن أكّ ذا مالٍ كثيرٍ أجْدُ به وإن يُغتَصِرَ عودي على الجهدِ يُحمَدِ
وإني لمُعْطٍ ما وَجَدْتُ وقائِلٌ لموقدِ ناري ليلةَ الرّيحِ أوقدِ
وإني لقوالٍ لذى البتِّ مَرْحَباً وأهلاً إذا ما جاء من غيرِ مرصدِ
وإني ليدعوني الندى فأجيبُهُ وأضربُ بيضَ العارضِ المُتَوَقِّدِ

لم يكن كرم حسان محصوراً في تقديم وجبات الطعام ليملاً بها معداً فارغةً لأناس ضلت بهم الطريق في صحراء مقفرة، أو جماعات نهد منهم الزاد والمؤونة، بل كان لكرمه هذا بعد نفسي عز نظيره، يتمثل في تخفيف المعاناة عن هذا الضيف، وهذا ما يوضحه البيت الثالث بلفظة (البت) أي سوء الحال والحزن.

ويؤثر حسان على نفسه، فيبيت جائعاً مكتفياً بالماء ليضم إلى أهله أهلاً سواهم يعولهم، فيقول في داليتة السابقة⁴:

[الطويل]

أَكْثَرُ أَهْلِي مِنْ عِيَالٍ سِوَاهُمْ وَأَطْوَى عَلَى الْمَاءِ الْقَرَّاحِ الْمُبَرِّدِ

¹ وهي نار يوقدها العرب ليستدل الأضياف على المنزل، وكانوا يوقدونها في الأماكن المرتفعة لتكون أشهر، وربما أوقدوها بالمندلي الرطب وهو عطر ينسب إلى مندل وهي بلدة من بلاد الهند وهو مما يتبخر به ليهتدي إليها العميان. الألويسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، 70 / 1.

² وهم الذين ينحرون ويذبحون حين تهب الصبا، وقد خصوا الصبا لأنها لا تهب إلا في البرد والجذب. يحيى الجبوري، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، 63.

³ حسان، الديوان، 132 - 133.

⁴ حسان، م، 132.

وما أقرب قوله هذا من قول عروة بن الورد¹ :

[الطويل]

أقسّم جسمي في جسومٍ كثيرةٍ وأحسو قراحَ الماءِ والماءِ بارداً

ويذم حسان البخل ويشبهه الإنسان البخيل الذي يكنز ماله فلا ينفقه شحاً وحرصاً بالحمار المقيد في الخلاء الذي لا هم له إلا ملء بطنه، يقول حسان² :

[الطويل]

إذا كان ذو البخلِ الذميمةً بطنُهُ كَبَطْنِ الحِمَارِ فِي الخَلَاءِ المُقَيَّدِ

وذم البخل ظاهرة عامة في الشعر الجاهلي بوجه عام، يقول زهير بن أبي سلمى ذاماً للبخل³ :

[الطويل]

وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيُبْخَلُ بِفَضْلِهِ عَلَى قَوْمِهِ يَسْتَفْنِ عَنْهُ وَيُذَمُّ

وكان الجاهلي لا يرى خيراً في المرء الذي يقري الضيوف في حال النعيم والكثرة، بل يعد إكرامهم في وقت الفقر والجذب من الشيم الأصيلة المتوارثة عندهم، ويرى إيليا الحاوي هذه الظاهرة على أنها نزاع قائم ما بين الفقر والغنى والبخل والعطاء، وأن العربي بهذه الظاهرة قد تخلى شروط المصير البشري المألوف، فبات يؤثر الفقر في سبيل الكرم في الحين الذي يتدق فيه الإنسان ويحرص على ماله وإن كان في حالة من الاكتفاء أو الثراء⁴.

ويعلل هذه الظاهرة بقوله: "إن الفقر هو ضرب من الحتم الذي يرهق الإنسان ويدعه يتخلى عن القيم التي تصون كرامته، وتحفظ حياة الآخرين فضلاً عن حياته، وأن الجاهلي يبذل في حالة عسره ليتصدى لعبودية الحياة والحاجة وليذل الضرورة، ليبقى حراً يتصرف وفقاً ليقينه وتبعاً للقيم الإنسانية التي يؤمن بها"⁵. لآته من الطبيعي أن يحرص الإنسان على ماله في وقت الشدة وإن كان موسراً، ولكن العربي يزداد كرمًا ليرسخ أصول تلك القيمة في نفسه، انظر إلى قوله عز وجل: [وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ]⁶.

¹ عروة بن الورد، الديوان، 124.

² حسان، الديوان، 132.

³ زهير بن أبي سلمى، الديوان، 110.

⁴ إيليا الحاوي، في النقد الأدبي، 195/2.

⁵ إيليا الحاوي، م. ن، 195/2.

⁶ سورة الحشر، 9/59.

عفته وحرصه على شرفه:

العفة قيمة إنسانية جليلة، طالما اعتر بها الجاهلي وجعلها على رأس مثله وقيمه التي يتباهى بها، فتبعده عن المحارم والأطماع الدنية وكل ما يخدش الحياء والمروءة .

وحسان من الشعراء الذين رفعوا لواء العفة وصون العرض والشرف قولاً وفعلاً، وقد عالجت جانباً من عفته في المبحث السابق، وأوضحت هذه القيمة عنده، والتي بلغت من حدتها في شعره أن محمد طاهر درويش قد وصفه بقلة حذقه بأساليب الغزل والغزليين¹ لترفعه عن كل حسية دنية. وقد كثر فخره بها، فهي "ليست حلية العاجزين أو تعلقة المحرومين، وإنما هي حلية الرجال ومفخرة من مفاخر الأبطال"².

هذه الجزئية من الدراسة تعالج الموازنة بين الشرف والمال، ورجحان كفة الشرف عنده، فهو ييلور نظرته إلى المال بحكمة مفادها أنه من أراد أن يكون طيب الذكر والسمعة والشرف عليه أن يجعل ماله فداء لوالده وعرضه وإن لم يُسأل عن ذلك، لأن الجود والحرص على الشرف نابعان من الإنسان لا مفروضان عليه، يقول³:

[الكامل]

وَفَتَى يُحِبُّ الْحَمْدَ يَجْعَلُ مَالَهُ مِنْ دُونِ وَالِدِهِ وَإِنْ لَمْ يُسْأَلِ

وما أشبه قوله بقول زهير بن أبي سلمى⁴ :

[الطويل]

وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عَرْضِهِ يَفِرُّهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمُ

فالعفة في هذا الجانب تعد قيمة كبرى كالشجاعة والكرم، بل إن العفة بمعنى الحفاظ على العرض، ورعاية الحرمات هي الأصل في القيم، فأى قيمة يفخر بها العربي إذا ضاع الشرف وانتهك العرض.

¹ محمد طاهر درويش، حسان بن ثابت، 272.

² أحمد الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، 283 .

³ حسان، الديوان، 125.

⁴ زهير بن أبي سلمى، الديوان، 109.

ويرى حسان أن الثراء لا ينسيه واجبه من العفة والحياء والحشمة، فهي خصال كريمة تحول بين صاحبها وبين فعل ما لا يليق، وأن نوازل الدهر وصروفه لا تقعدانه عن أداء واجبه من العطاء والقرى. وهذه المعاني أضافت إلى اعتدال حسان في غزله رقياً في فخره¹. يقول في معرض غزله بشعنا²:

[الطويل]

فلا المال يُنسيني حَيَايَ وَحِفْظَتِي ولا وَقَعَاتُ الدَّهْرِ يَفْلُتُنَّ مِبْرِدِي

ولعل في موقفه هذا عفة تسمو على كل حسيّة، ودليل على أنه من المستميتين للدفاع عن الشرف، وما أقرب موقفه هذا من موقف المنقّب العبدى الذي لا يبالي بالمال، حيث يرى أن بذله لازم لصون العرض، فيقول³:

[الرمل]

لا يُبَالِي طَيِّبُ النَّفْسِ بِهِ تَلْفُ الْمَالِ إِذَا الْعَرَضُ سَلِمَ
أَجْعَلُ الْمَالَ لِعَرْضِي جِنَّةً إن خِيرَ الْمَالُ مَا أَدَى الذَّمَّ

فالمال عزيز على الإنسان، يَجِدُّ ويشقى في الحصول عليه، ولكنه بلا قيمة إذا ما وزن مع الشرف والعرض .

حفاظه على رفاقه وندمائه:

كما حافظ حسان على محبوبته وشرفه وعرضه، حافظ على رفاقه وندمائه، فكان لهم الخل الوفي، والصديق المخلص الذي لا يصدر عنه ما يشينه ويسوؤه. فهو يتخير رفاقه وندمائه الذين هم من مثل أخلاقه ، يشد بهم أزره، يقول⁴:

[الطويل]

وَنَدْمَانِ صِدْقِ تُمْطِرُ الْخَيْرَ كَفْهُ إِذَا رَاحَ فِيْأَضَ الْعَشَّيَاتِ خَضْرِمَا
وَصَلْتُ بِهِ كَفِيٍّ وَخَالِطَ شِيمَتِي ولم أكَ سِبَاباً فِي النَّدَامَى مُلُومًا⁵

¹ فاضل أبو ربيعة، حسان شاعر الإسلام، 61.

² حسان، الديوان، 132 .

³ ديوان المفضليات، المفضلية 77. وقد تناولت هذه القصيدة قيماً رفيعة كالوفاء وإكرام الجار وتحاشي الغيبة والنميمة.

⁴ حسان، م.س، 128.

⁵ لم يورد محقق الديوان هذه القصيدة ضمن شعر حسان الجاهلي، لكني أظنها كذلك، إذ إن حسان قد أنشدتها أمام النابغة في الجاهلية، وله فيها نقد، ينظر، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 420-419/12.

يرى حسان أن نديمه صنو نفسه، جواد مثله، تمطر الخير كفه، فلا يقتر ولا يحرص. وحسان يصون أصول المنادمة فهو مثالي لا يلام على فعل شنيع، إذ يرى أن ذلك مرتبط بكرامته، وأن في الكرم ورفعة الأخلاق سعادة للمرء ومن حوله.

ومن ثم هو يوضح أصول تلك العلاقة، إذ يأبى له سيفه ولسانه وقومه أن يصدر عنه ما يسوؤه وما يؤاخذ عليه حتى في لحظة سكره، وهو لا يسيئ إلى نديمه ولو بخدشه، ولا يخشاه جليسه، ولا ينادم سيئ الخلق ولا البخيل، فيقول موضحاً لشعنا موقفه من ندمائ¹ :

[المنسرح]

تَقُولُ شَعْنَاءُ لَوْ تَفِيقُ مِنْ أَلِ حَمْرٍ لِأَلْفِيَّتِ مُثْرِي الْعَدَدِ
لَا أَخْدِشُ الْخَدِشَ بِالنَّدِيمِ وَلَا يَخْشَى نَدِيمِي إِذَا انْتَشَيْتُ يَدِي²
وَلَا نَدِيمِي الْعِضُّ الْبَخِيلُ وَلَا يَخَافُ جَارِي مَا عِشْتُ مِنْ وَبَدِ

وها هي زوجه شعنا تلموه لأنها حريصة على ماله، ولكن المسألة من زاوية نظره مختلفة، إنها تحقيق الذات لا الحرص على المال، ولا تتحقق الذات إلا إذا اعترفت بوجود غيره، وقدم لها كل ما تمليه عليه قيم مجتمعه وأخلاقياته، فهو لا ينادم إلا الكرام أمثاله، ولا يختلط عقله سكرًا فلا يؤذي جليسه، ويبقى محافظاً على حق الجوار. فهو في علاقاته معهم يحقق هدفاً سامياً يجعله ذا شخصية متميزة، تنال اهتمام الجميع وتحظى بتقديرهم من خلال تصرفاته معهم وفق القيم التي يؤمن بها .

ويدلل حسان على أخلاقياته وقيمه مع رفاقه في السفر، إذ يفخر بهدايته للركب، وبذله لهم كل عون ومساعدة في العسر واليسر، فيكون منهم بمنزلة الأهل، ويصف ذلك بقوله³ :

[الكامل]

وَلَقَدْ أَرَيْتُ الرِّكْبَ أَهْلَهُمْ وَهَدَيْتُهُمْ بِمَهَامِهِ غُبْرٍ
وَبَدَلْتُ ذَا رَحْلِي وَكُنْتُ لَهُمْ سَمْحاً بِهِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ

ويقول عن خلقه في إحدى رحلات الصيد⁴ :

¹حسان، الديوان، 150-151.

²ورد في حاشية ص150 عجز البيت على النحو التالي: يخشى جليسي إذا غضبت يدي.

³حسان، م.ن، 188-189 .

⁴حسان، م.ن، 171.

[الخفيف]

يَوْمُ رُحْنَا وَمَا يَخَافُ خَلِيلِي مِنْ لِسَانِي خِيَانَةَ الْإِنْبِسَاطِ

وبذلك يجعل حسان من رفاقه دائرة محرمة، لا يخل بشروطها، ولا يلهيه عن الحفاظ عليها سكر أو حرص على مال، ومن تضمنت أشعاره هذه من الأخلاقيات لا بد أن يكون على قدر عال من الالتزام تجاه الآخرين والقبيلة، وهذا ما أثبتته حسان بعد إسلامه في علاقته مع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام. وعلى الرغم من موقف الإسلام من الخمر ومن رفاق الشرب إلا أننا نبحث القيم النبيلة التي انتهجها معهم والتي بقيت راسخة حتى بعد إسلامه، فبقيت القيم الأصيلة، وقد أبدله الله صحبة الإيمان بدلاً من الندماء .

الصبر والجلد:

إن طبيعة الحياة الجاهلية تتطلب من الإنسان الصبر وعدم الجزع، وحسان كغيره من الشعراء الذين كان للجلد نصيب في شعرهم، فهو يصف نفسه بأنه قوي صلب منيع لا تضععه الحوادث، ولا تفت من عزمه الصعاب، يقول¹:

[الكامل]

فَإِذَا الْحَوَادِثُ لَا تُضَعِّضُنِي إِذْ لَا يَضْرِيْقُ بِحَاجَتِي صَدْرِي

ولعله في القصيدة نفسها يسقط صبره وجلده على ناقته التي يضمّنها نعوت القوة والصبر والتحمل، فقد جمعت في سيرها ما بين شدة المكان وقسوة الزمان، وقطعت براكبها مفازة موحشة مقفرة في ليلة ظلماء لا يتجاوب فيها إلا أصداء البوم الناعقة كما ينعى المفجوع صاحب القبر، ثم يأتي بعد كل هذا الوصف السابق ليدلل على أن كل تلك النوازل والمخاوف والأهوال لا تفجعه ولا توهن صبره. يقول حسان²:

[الكامل]

كُنَّا إِذَا رَكَدَ النَّهَارُ لَنَا نَعْتَالُهُ بِنَجَائِبِ صُغْرٍ³
عَوَجٍ نَوَاجٍ يَغْتَلِينُ بِنَا يُعْفِينُ دُونَ النَّصِّ وَالزَّجْرِ
وَاللَّيْلَةَ الظُّلْمَاءَ أُدِلُّجُهَا بِالْقَوْمِ فِي الدَّيْمُومَةِ الْقَفْرِ⁴

¹ حسان، الديوان، 189.

² حسان، م، 187-188.

³ الصعر: الموائل الرؤوس، ابن منظور، اللسان، مادة صعر.

⁴ الديمومة: المفازة لا ماء فيها، ابن منظور، اللسان، مادة دم.

ينعى الصّدى فيها أخاه كما ينعى المُفجّعُ صاحبَ القَبْرِ
فإذا الحوادثُ لا تُضغِضُني إذ لا يضيقُ بحاجتي صَدري

أراد حسان أن يبرهن على قيمة الصبر، فعمد إلى الناقاة لاستنتاج النص واستظهار ما وراءه من مكنونات، فالناقاة ذات دلالة في الشعر العربي، فهي " ترمز من جهة إلى نية الشاعر وعزمه، ومن جهة أخرى ترمز إلى القبيلة نفسها بصفاتها أساس الحياة القبلية"¹.

ويرى زكريا صيام : "أن العرب تشبه الرجال بالجمال لبيان صفة الصبر وتحمل الشدائد² .
وصورة الناقاة ذات دلالات واسعة ومرام بعيدة إلا أن هذه الجزئية من النص تدلل على قيمة الصبر على المكاره، وإن صورة الناقاة جاءت مطابقة للهدف، إذ إن "الصورة تستمد مضمونها من الدوافع، بحيث تذوب الحاجة في الصورة كما يذوب النسغ في النبات"³.

نجدة الجار :

للجار سنة متبعة عند العرب، يدافعون عنه، ويقدمون له المساعدة والعون في حال غناهم وفقيرهم، ويعدون إهانته إهانة لهم، يقول عوف بن عطية⁴:

[المتقارب]

وأمنع جاري من المُجحفَا تِ والجَارُ مُمْتَنِعٌ حَيْثُ صَارَا

ويضم حسان تلك القيمة إلى منظومة قيمه، فيرسم إطاراً للمثل العليا والتي يرى أنه يمثلها جميعاً، فهو نعم الجار في الفقر والغنى، يجد عنده الأمن القرى إن ضاقت به الدنيا، يقول⁵ :

[الطويل]

ألسْتُ بِنعمِ الجارِ يُؤَلَّفُ بيئَه كذي العُرفِ ذا مالٍ كثيرٍ ومُعديما

¹ سوزان ستيبنفتش، القصيدة العربية وطقوس العبور، 64 ، نقلا عن :ماجد الجعافرة، الشعر الجاهلي، دراسة وتحليل،15.

² زكريا صيام، الأدب العربي في العصر الجاهلي و صدر الإسلام، 14.

³ يوسف اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي،235.

⁴ ديوان المفضليات، المفضلية 124.

⁵ حسان، الديوان،128.

ويعلق فاضل أبو ربيعة على ذلك بقوله "أن حسان يتحدث في هذا البيت عن ذاته المفردة، وأن من طبعه الغيرية والعطاء والكرم لأنه لا يحتمل أن يكون في عز وجاه في حين يجوع جاره ويتحمل مشقات الدهر"¹.

ومن شعره أيضا ما يدل على أن جاره باقٍ في كنفه ورعايته، فلا يخشى بؤساً أو فقراً ما دام حسان حياً²:

[المنسرح]

ولا نديمي العِضُّ ولا البخيْلُ ولا يَخَافُ جاري ما عِشْتُ من وَبَدِ

تلك هي القيم التي التزمها حسان في حياته، وانتهجها في شعره، فسمت بذلك ذاته، وسمت معها مكانته في قومه، حتى غدا شاعر الخزرج الأول ولسانها الناطق .

¹ ربيعة أبي فاضل، حسان شاعر الرسول، 59 .

² حسان، الديوان ، 151 .

المبحث الثالث: المعاني الإنسانية في حديثه عن القبيلة:

الانتماء القبلي:

المجتمع الجاهلي مجتمع قبلي بالدرجة الأولى، يرتبط أفرادُه بعرى وثيقة من النسب والقراية¹، وتحكمهم عادات وتقاليد وأعراف لا يمكنهم التحلل منها أو الخروج عليها، وإلا كان الخلع هو العقاب الأكبر للفرد المسيء الخارج على إجماع القبيلة، حتى وإن كان ذلك الفرد ذا مكانة وشرف في قومه، كعروة بن الورد الذي رفضته القبيلة لاعتراضه أرزاق الناس بصرف النظر عن هدفه، أو كطرفه بن العبد الذي أفردته إفراد البعير المعبد لتبذيره وإسرافه المال في اللهو وشرب الخمر، وقد برز ذلك جلياً في معلته.

وانتماء العربي للقبيلة وولأوه لها هو حاجة نفسية واجتماعية، إذ لا يمكن للفرد أن يعيش في عزلة عن الآخرين، ويعتمد عليهم في تحقيق مطالبه، فيصبح في ذاته الفردية جزءاً منصهراً في الذات الجماعية، يؤثر ويتأثر بهم، وتنتهي حدود حريته عند حدود حريتهم ومصالحهم.

وما كان لظاهرة الخلعاء لتوجد في ذلك المجتمع لو لم ترّ القبيلة أن الجرائر التي يرتكبها بعض الخلعاء تهدد الجماعة والانتماء إليها .

وقد قامت القبيلة على أساس من القيم والعادات المتبعة لدى العرب، منها العادات الحميدة التي يقوم عليها أساس كل مجتمع، والتي عند مجيء الإسلام أرسيت قواعدها. ومنها العادات السيئة التي سادت في المجتمع الجاهلي وقد رفضها الإسلام بعد ذلك وقطع دابرها، ولكن في كلا الأمرين كانت تلك العادات سنناً متبعة لا يمكن للجاهلي تجاهلها أو الخروج عليها.

وما نحن بصدده في هذه الدراسة ذكر القيم الأصيلة والعادات الحميدة التي انتهجها العرب، كالولاء للقبيلة، وتحليمهم بصفات الكرم والمروءة، وإغاثة الملهوف ونجدة الجار، والحفاظ على العهود والمواثيق والعدل والحلم والأناة والحزم. وقد تخلق الجاهلي بتلك الأخلاق مما زاد من التعاون والتكافل بين أبناء القبيلة وإن كان من بعض هدفه الذكر الطيب، والثناء الحسن.

¹ ينظر: ابن منظور، اللسان، مادة، قبل؛ جواد العلي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 4/ 313، "الرابط الذي يوحد أبناء القبيلة ويمنع شتاتهم هو النسب."

وقد تغنى الشاعر الجاهلي بهذه بالقيم الإيجابية في شعره، وافتخر بوجودها في قبيلته، فهو ملزم طوعاً أن ينافح عن قبيلته ويدافع عنها بما أوتي من سحر قول وقوة بيان لتكون النموذج الأمثل في الكمال والرفعة والسؤدد، وإلا لم كان ذلك الاحتفال الذي تقيمه القبيلة عند نبوغ شاعر فيها¹.

وحسان بن ثابت كغيره من الشعراء الذين ضمننت أشعارهم تلك القيم الإنسانية الأصيلة المتعارف عليها بين القبائل، والتي رأى أنها مجمع الفضائل والمحامد والمكرمات .

ومن أبرز تلك القيم الإنسانية التي تغنى بها في شعره:

الولاء للقبيلة :

استطاع حسان أن يحتل مركز الشاعر القبلي الأول في قبيلته لما قام به من الدفاع عنها، والإشادة بأمجادها، والرد على أعدائها.

قد أخلص حسان لقبيلته أيما إخلاص حتى ذابت في ذلك فرديته التي قد صبغ بها بعض شعره، فهو يرى أن خير القبيلة خير له. يقول²:

[الطويل]

مَتَى تَسْأَلِي عَنَّا تَتَّبِي بَأَنَّنَا	كِرَامٌ وَأَنَا أَهْلُ عِزٍّ مُقَدَّم
وَمَا السَّيِّدُ الْجَبَّارُ حِينَ يُرِيدُنَا	بِكَيْدٍ عَلَى أَرْمَاحِنَا بِمُحَرِّمٍ
نَبِيحُ جِمَى ذِي الْعِزِّ حِينَ نَرِيدُهُ	وَنَحْمِي حِمَانَا بِالْوَشِيحِ الْمُقَمِّمِ
وَنَحْنُ إِذَا مَا الْحَرْبُ حُلَّ صِرَارُهَا	وَجَادَتْ عَلَى الْخُلَابِ بِالمَوْتِ وَالدمِّ ³
فَلَمْ يَرْجِ إِلَّا كُلُّ أَرْوَعٍ مَا جَدِ	شَدِيدِ الْقُوى ذِي عِزَّةٍ وَتَكْرُمِ
نَكُونُ زَمَامَ الْفَائِدِينَ إِلَى الوَعَى	إِذَا الْفَشِيلُ الرَّعِيدُ لَمْ يَتَّقَدِّمِ

فهو يرى أنهم يدينون بالولاء لقبيلتهم، وينصرونها على أعدائهم، ويبيحون حمى الأعزة إن أرادوهم بسوء، دون أن تستباح حماهم، فأبطالهم شديداً القوة، ماضو العزم، قادرون على الصراع،

¹ ينظر: ابن رشيقي، العمدة، 1/153.

² حسان، الديوان، 182-183.

³ جعل للحرب صراراً كصرار الناقة، فإذا حلَّ صرارها حلبت دماً كما تحلب الناقة اللبن.

وأن قوادهم متقدمون في الحرب، في الحين الذي تجبن فيه أفئدة الشجعان، ويهرب القادة رعباً وخشية. ولعل أهم قيمة نلاحظها في هذه الأبيات قوله :

[الطويل]

وَمَا السَّيِّدُ الْجَبَّارُ حِينَ يَرِيدُنَا بِكَيْدٍ عَلَى أَرْمَاجِنَا بِمُحْرَمٍ

فهو يقول (حين يريدنا) أي أنهم لا يستبجحون حمى القبائل ولا يبدؤون باعتداء عليها إلا إذا أريد ذلك بهم، حينها يشرعون سيوفهم المشرَّبة المشتاقفة إلى الدماء في وجوه الجبابرة الطغاة.

ويؤكد ذلك بقوله¹:

[الطويل]

مَنْعَنَا عَلَى رَغْمِ الْقَبَائِلِ ضَيْمَنَا بِمُرْهَفَةٍ كَالْمِلْحِ مُخْلِصَةَ الصَّقْلِ

وهذا يقودنا إلى حديث آخر يزيد من كمال تلك القيمة وهو أنه لم ترد في شعره (العصبية القبلية) بمعناها الجاهلي وهو أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، وإنما جل ما ورد في شعره انتماءه وولائه للقبيلة، والاستعداد لتقديم النفس والنفيس لأجلها. فالولاء للقبيلة لا يعني بأي حال من الأحوال أن يبدأ الإنسان بالظلم والبطش وإنما هو أن يكون مستعداً للمنافحة عن القبيلة (إن أريد بها الكيد) أو أحيق بها . وهناك مفارقة عظيمة في هذا المجال بين قول حسان وبين قول عمرو بن كلثوم²:

[الوافر]

لَنَا الدُّنْيَا وَمَنْ أَضْحَى عَلَيْهَا وَنَبْطِشُ حِينَ نَبْطِشُ قَادِرِينَا
نُسَمَّى ظَالِمِينَ وَمَا ظَلَمْنَا وَلَكِنَّا سَنَنْبُدُ ظَالِمِينَا

وبفخر حسان في مواضع أخرى بصبر رجالهم عند اللقاء، وبنودهم عن ديارهم وحماهم، مشبها إياهم بالأسود التي تحمي العرين، فقال³ في معارضة لقيس بن الخطيم في يوم السرارة⁴:

[الطويل]

حُسَامٌ وَأَرْمَاحُ بِأَيْدِي أَعِزَّةٍ مَتَى تَرَهُمْ يَا ابْنَ الْخَطِيمِ تَبَدَّدِ
لِيُوْتُ لَدَى الْأَشْبَالِ تَحْمِي عَرِينَهَا مَدَاعِيسُ بِالْخَطِيِّ فِي كُلِّ مَشْهَدِ

¹حسان، الديوان، 321.

²عمرو بن كلثوم، الديوان، 73.

³حسان، م.س، 133.

⁴يوم السرارة هو: يوم من أيام الأوس والخزرج، وسببه أن رجلاً من الخزرج قتل رجلاً من الأوس، فعدت الأوس على من قتله، فخرج الحيان واقتتلا قتالاً شديداً بالسرارة. ينظر: ابن الأثير، الكامل، 1/662.

ويقول¹:

[الطويل]

متى ما تَرْتَا مِنْ مَعَدِّ بُعْصَبَةٍ وَغَسَانَ تَمْنَعِ حَوْضَنَا أَنْ يُهْدَمَا
بكل فتى عاري الأشاجع لآله قِرَاعُ الكَمَاةِ يَرشَحُ المِسْكَ والِدَمَا²

وقال حسان في يوم الربيع³، قصيدة اعتبرت وكأنها نشيد الخزرج الوطني لخفتها، وعذوبة بحرها وروحها الحماسية الدافقة⁴، وما فيها من ولاء وانتماء ليثرب، يقول⁵:

[المتقارب]

ويثربُ تَعْلَمُ أَنَا بِهَا إِذَا أَلْبَسَ الحَقَّ مِيزَانُهَا
ويثربُ تَعْلَمُ أَنَا بِهَا إِذَا قَطَطَ القَطْرُ نَوَانُهَا
ويثربُ تَعْلَمُ أَنَا بِهَا إِذَا خَافَتِ الأوسَ جِيرَانُهَا

ولعلّ تكرار (ويثرب تعلم أنا بها) أعطى للأبيات بناءً مترابطاً يكشف عن رؤية الشاعر وهدفه، وهو الولاء للقبيلة في لحظات الشدة والبؤس، فهم ميزان الحق فيها، وهم القطر والندى إن ضنت السماء، وهم ناصروها إن خافت جيرانها.

ومن جهة أخرى يحمل تكرار (يثرب) دلالة أعمق من الانتماء للقبيلة، وهي دلالة الانتماء للمكان والوطن والاستقرار فيه، فهم لا يهرعون إلى البحث عن مكان مخصب إذا ما أصاب الجذب ديارهم، أو نالهم سوء وضيق من جيرانهم.

لقد أرسى حسان في بعض قصائده مفهوم الوطن، ورسخ مفهوم الارتباط بالأرض، وعمق مفهوم التعلق بالمكان، خلافاً لما انتهى إليه بعض الدارسين من أن فكرة الوطن كبقعة مكانية، والانتماء إليه، والاستماتة في سبيله، وبذل الغالي والنفيس من أجله، كلها قيم لم يكن لها حضور في الشعر القديم، لأن علاقة الجاهلي بالمكان كانت مرتبطة ارتباطاً كلياً بالماء والكأ، فإذا أعوزاه طوى

¹ حسان، الديوان، 130.

² الأشاجع: عروق في ظاهر الكف، ابن منظور، اللسان، مادة شجع. يريد أنهم إذا جرح أحدهم سال دمه برائحة طيبة.

³ يوم الربيع: هو يوم من أيام الأوس والخزرج وسمي كذلك نسبة إلى ربيع الظفري الذي اعتدى على أحد رجال بني النجار فقتله، فتجمع الحيان والتقوا بالبيع، واقتتلوا قتالاً شديداً حتى كادوا يتفانون، ينظر: ابن الأثير، الكامل، 672/1.

⁴ عبد الله عبد الجبار وزميله، قصة الأدب في الحجاز، 434.

⁵ حسان، الديوان، 313-314.

وطنه، وأودعه ظهر راحلته، وجلس فوقه، وضمن حيث يصفو له العيش، وبطيب له المقام. وقد استعان حسان لترسيخ هذا المفهوم بألفاظ لها دلالات هذا المفهوم منها: يثرب، بلادنا، حمانا.

وشعره في عصر ما قبل الإسلام عج بصور الولاء للقبيلة ونصرتها والاستماتة للدفاع عنها¹، ومن دلائل صدق هذا الولاء أنه ظل يفخر بأجادهما حتى بعد إسلامه.

حسن الجوار:

كان هذا القانون من أكثر قوانين المجتمع الجاهلي شيوعاً، ومن أكثر نظمه أهمية في حياتهم، حتى غدا التمسك به قيمة أخلاقية عالية، فلا يكاد يخلو ديوان من دواوينهم أو قصة من قصصهم إلا وكان لحق الجوار وإغاثة الملهوف نصيب فيه، ولعلنا لا نبالغ إن قلنا أن هذه القيمة الإنسانية لم تتجسد عند أمة من الأمم، ولم ترفع إلى جانب المآثر والمكارم، كما تجسدت عند العرب، إنها قانون يصل إلى حد التقديس.

ولعل هذا النظام " أوجدته ضرورات الحياة العربية قبل الإسلام كبديل للسلطة المركزية، وهو بديل مهما كان ناقصاً استطاع بدرجة أو بأخرى أن يؤدي وظائف السلطة العامة، وأن يوفر قدرًا من الأمن والطمأنينة لأفراد المجتمع و يدفع عنهم بعضاً من الظلم والاضطهاد، ويعيد إليهم حقوقاً مغتصبة وأمواًلاً منتهبة"².

ويرى يوسف خليف أن هذا النظام قد نشأ في أعقاب قانون الخلع الذي تلجأ إليه بعض القبائل أحياناً لخلع أفراد ساء سلوكهم أو كثرت جرائمهم فأصبحوا عبئاً ثقيلاً على قبائلهم، فكان قانون الجوار يعرضهم عن الانتماء القبلي المفقود³.

¹ ينظر: القصائد التالية: قصيدة رقم: 13، الأبيات 13-19.

قصيدة رقم: 27، الأبيات: 27-29.

قصيدة رقم: 30، الأبيات: 16-18.

قصيدة رقم: 70، الأبيات: 17-27.

قصيدة رقم: 215، الأبيات: 11-13.

² محمود محمد زنتي، نظم العرب قبل الإسلام، 113.

³ يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، 95.

وقد يكون هذا النظام نشأ بسبب البيئة الحربية التي أوجبت على العربي القيام بمحالفات ما بين الأفراد أو ما بين القبائل بهدف تعزيز القوة والجماعة، إذ لا جيش يحمي ولا قانون يعصم، وهم بالتمسك بهذه القيمة يوفرون ذلك .

حسان بن ثابت كغيره من شعراء ذلك العصر الذين قدسوا هذا القانون فضمنته أشعارهم، ولا سيما أن حسان من أصل كريم يأبى أن يضام جاره، وألا تلبى دعوة الملهوف المستجير بهم، ولعل في نصرة قومه للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم والذود عنه وعن دعوته حجة بالغة على ذلك. يقول¹:

[الطويل]

لَعَمْرُكَ مَا الْمُعْتَرُّ يَأْتِي بِلَادَنَا لِنَمْنَعَهُ بِالضَّائِعِ الْمُتَهَضِّمِ
وَمَا ضَيْفُنَا عِنْدَ الْقَرَى بِمُدْفَعٍ وَلَا جَازِنَا فِي النَّائِبَاتِ بِمُسْلَمِ

وفي موضع آخر يفخر بنجدة قومه للصريخ وحمائيتهم للجوار ، يقول² :

[البسيط]

فِي فِتْيَةٍ كَسَيُوفِ الْهِنْدِ أَوْجَهُهُمْ نَحْوَ الصَّرِيخِ إِذَا مَا تُؤَبِّ الدَّاعِي³

وقوله⁴:

[السريع]

قَوْمِي بَنُو النَّجَارِ إِنْ أَقْبَلَتْ شَهْبَاءُ تَرْمِي أَهْلَهَا بِالْقَتَامِ
لَا نَخْذِلُ الْجَارَ وَلَا نُسَلِّمُ الْمَوَّ لِي وَلَا نُخْصِمُ يَوْمَ الْخِصَامِ

ويتشارك قومه مع القبائل الأخرى وقت المعضلات⁵:

¹ حسان ، الديوان ، 183 .

² حسان، م.ن، 336 .

³ توب الداعي : لوح بيديه . وتتمثل هذه القيمة كثيرا في أشعارهم كقول وداك بن نميل المازني الذي يمدح النجدة وإجابة الصريخ :

إذا استجدوا لم يسألوا من دعاهم لأية حرب أو بأي مكان .

ديوان الحماسة ، 1/130 .

وقول سلامة بن جندل:

وكنا إذا ما أتانا صارخ فرع كأن الصراخ له قرع الظنانيب .

ديوان المفضليات، المفضلية 22 .

⁴ حسان، الديوان ، 187 .

⁵ حسان، م.ن، 314 .

[المقارب]

وَنَحْنُ إِذَا نَزَلَتْ مُعْضِلًا نَحِسُّ الْقَبَائِلَ إِخْوَانَهَا

وقد كان الاعتداء على الجار المحمي مثيرا لحفيظة العربي، فيشنون حرباً للذبح عن الشرف الممتن، وقد أدرك حسان هذا المعنى فقام بدور جليل في تأصيل تلك القيمة، فامتدح من تمسك بها، وشن حرباً على من لم يلتزمها. وما هجاؤه لسمير قاتل حليف مالك بن عجلان¹ إلا تأكيداً لهذه القيمة، وما مدحه لقومه الذين نصرُوا مالكاً بعد أن تخلى عنه قومه فعزّ بهم من بعد هوان إلا تعريفاً لتلك النصر والنجدة². ومن هجائه لسمير³:

[المنسرح]

إِنَّ سَمِيرًا عَبْدٌ طَغَى سَفَهَا سَاعَدَهُ أَغْبَدَ لَهُمْ نَظْفَ

وفي قوله (أعبد) كناية عن ازدرائه لمن عز عن نصرته مالك بن عجلان. وقال فيه أيضاً⁴:

[الطويل]

وَدَلَّ سُمَيْرٌ عُنُوءَ جَارِ مَالِكٍ عَلَى رَغْمِهِ بَعْدَ التَّخْمُطِ وَالْجَهْلِ

وقد افتخر حسان بحكم أبيه في تلك الحرب، إذ كان الحكم والفصل الذي تقاضت إليه الخصوم فقبلت بقضائه⁵:

[الخفيف]

وَأَبِي فِي سُمَيْجَةَ الْقَائِلُ الْفَا صُلُّ حِينَ التَّقَتِ عَلَيْهِ الْخُصُومُ⁶

فقومه أعراب عز بهم المستجير، إذ ليس ثمة شيء أوقع في قلب العربي وأدعى لفخره من أن يكون قومه حريصين على من يجاورهم .

التزم العرب برعاية أحلاف القبيلة ومعاهداتها، فأحسنوا جوار من استجار بهم، يأوونه ويقدمون له الرعاية والحماية، ويتحملون عنه زلاته وعثراته، ويشاركونه أفراحه وأحزانه ومغامره، ويعتبرون

¹ مالك بن العجلان الخزرجي: سيد الخزرج والأوس في زمانه، اشتهر في حربه مع بني عمرو بن عوف، وكان إذا حارب تنكر وغير لباسه لئلا يعرفه خصومه فيقتدونه، وهو الذي أدل اليهود للأوس والخزرج. ينظر: الزركلي، الأعلام، 5/263.

² ينظر الخبر: الأصفهاني، الأغاني، 3/18؛ محمد الجاوي، أيام العرب في الجاهلية، 62.

³ ورد هذا البيت في حاشية ص 317 من الديوان.

⁴ حسان، الديوان، 321.

⁵ حسان، م ن، 81. وهي من شعره الإسلامي.

⁶ بئر قرب يثرب تحاكت عندها الأوس والخزرج، ورويت (سميحة)، البغدادي، خزنة الأدب 4/462.

الإهانة الموجهة إليه موجهة إليهم. ولن يذل رجل وجاره عزيز، ولن يجوع رجل وجاره ميسور الحال ، لقد أصبح إكرام الجار حقاً من الحقوق المترتبة على العربي .

الكرم:

لم تكن عند العرب خصلة تفوق خصلة الكرم، فهي تحنل قائمة الفضائل عندهم، وقد تضافرت عوامل كثيرة جعلت منها قيمة إنسانية سامية، كالجفاف والقحط وكثرة الترحال والفقر. وقد يلجأ إليها العربي لطلب الثناء وحسن الأحدث، وخوفه من الذم والتشهير بين القبائل بالتقصير والتواني .

ولعل موقف العربي من المال ونظرته إلى الفناء والموت قد رسخ تلك القيمة فأغدق عليها، وخير الدلائل على ذلك بروز طبقة الصعاليك الذين ثاروا على أصحاب الأموال، فكانت غايتهم أخذ تلك الأموال وتقسيمها بين الفقراء والمعوزين .

وقد كان للعرب سنن متبعة ترقى بتلك الخصلة وتسمو بها، كذبح الموسرين الإبل لأبناء القبيلة والمعوزين والضيغان، ومن سننهم أيضاً إشعال النار على الكثبان والجبال لهداية التائهين والضالين في الفيافي والقفار، وقد بلغ من حد كرمهم أن كلابهم لا تتبج الضيوف لكثرة الغادين والرائحين، بل وكنوا عن كرم الرجل بجبن كلبه¹، وقد امتدح حسان في آل جفنة ذلك السبيل في هداية الضيغان بقوله²:

[الكامل]

يُغَشَّوْنَ حَتَّى مَا تَهَرَّ كِلَابُهُمْ وَلَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ

وقد أشاد الحطيئة بهذا البيت فقال: "أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب حيث يقول. وذكر البيت³.

افتخر حسان بولائم قومه العامة وما قام حول بيوتهم من القدور الضخمة، والتي شبهها بجماعات من الخيول الدهم في أيام الشتاء الباردة المقحلة، ينفد إليها المحتاجون والضيوف دون دعوة فيجدون من فيض ولائتهم وكرمهم بحراً من سميحة . ويفخر حسان في أنهم يقدمون في تلك الولائم الفياضة خير الطعام وأجوده من شحم الإبل السليمة المعافاة من كل علة، إذ كانت العرب تعبر من ضمن

¹ شوقي ضيف، العصر الجاهلي ، 68.

² حسان، الديوان، 123.

³ ابن عبد البر، الاستيعاب، 347/1.

بأجود ما عنده في القرى، ولعل تلك القيمة ظلت متبعة في الإسلام إذ كان شرطاً في الأضاحي أن تكون سليمة من أي عيب¹. يقول:²

[الطويل]

وإننا لنُقْري الضَّيفَ إن جاءَ طارقاً
إذا غَبَرَ آفاقُ السَّماءِ فأصْبَحَت
حسبتُ قُدورَ الصَّادِ حَوْلَ بِيوتِنَا
يظلُّ لَدِيهَا الواعِلُونَ كأنَّما
لنا حاضرٌ فَعَمَ وبَادٍ كأنَّهُ
من الشَّخْمِ ما أَمْسَى صَحيحاً مُسَلِّماً
كأنَّ عَلَيْهَا ثوبَ عَصَبٍ مُسَهَّماً³
قنابلَ دُهماً في المَحَلَّةِ صَيِّماً
ينوبونَ بَحراً مِنْ سُمَيْحَةَ مُعَلِّماً
شماريخُ رَضوى عَزَّةً وتَكْرُماً

ويقرن حسان ما بين الكرم والدفاع عن القبيلة فيجعلهما صنوين متلازمين، فهم يطعمون الضيوف والفقراء في المشتى إذا أجدبت الأرض وكفت السماء، وهم أيضاً يطعمون أجساد الأعداء

بالقنا في الحروب⁴:

[الطويل]

مطاعيمُ بالمشْتَى مطاعينُ بالقَنَا إذا الحَرْبُ كَانَتْ كالحَرِيقِ المُضَرِّمِ
ويقول أيضاً⁵:

[السريع]

مِنَّا الَّذِي يُحْمَدُ مَعْرُوفُهُ وَيَفْرُجُ اللَّزْبَةَ يَوْمَ الرَّحَامِ

¹ فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يضحى بالعرجاء بين ظلعها ولا بالعوراء بين عوزها، ولا بالمريضة بين مرضها، ولا بالعجفاء التي لا تنقى" رواه الترمذي، حديث رقم: (1497).

² حسان، الديوان، 129 - 130. وقد اقترب قول حسان هذا من قول أبو ذؤيب الهذلي إذ يقول:

فإنك لو ساءلت عنا فتخبري إذا البزل راحت لا تدر عشارها

لأنبتت أنا نجتدي الحمد إنما يكلفه من النفوس خيارها

لنا صرم ينحرن في كل شتوة إذا ما سماء الناس قل قطارها ديوان الهذليين، 78 / 1

وقول لبيد بن ربيعة:

وأعطونا حقوقاً ضمنوها وراثته عظام الجفان والصيام الحوافلا

توزع صراد الشمال جفانهم إذا أصبحت نجد تسوق الأفتالا لبيد، الديوان، 142

³ عصب: ضرب من برود اليمن أو غيم أحمر تراه في الأفق الغربي، يظهر في سني الجذب. ابن منظور، اللسان، مادة عصب.

⁴ حسان، الديوان، 184.

⁵ حسان، م، ن، 187.

الواهب البازل يوماً إذا ما ضاق بالغرفِ صدور اللئام

ويقول¹ :

[المتقارب]

ويثربُ تعلم أنّا بها إذا قَطَطَ القطرُ نوانها

ويفخر بكرم سيد القبيلة (على العلات)، فلا يتريث في العطاء مهما قست الحياة، وقل ما بيديه من غوث² :

[الطويل]

جوادٍ على العلاتِ رُحِبَ فناؤه إذا سئلَ المعروفَ لم يتجهم

ويتحدث حسان عن اتصاف أخواله بتلك القيمة مقرناً إياها بشجاعتهم فيقول³:

[الكامل]

وأنا من القوم الذين إذا أزم الشّطاءَ محالفَ الجذبِ
أعطى ذو الأموالِ مَغْسِرَهُمُ والضّارِبينَ بموطنِ الرُّعبِ

ويقول⁴ :

[الرملي]

رُبَّ خالٍ لي لو أبصرتِه سَبَطَ المِشْيَةِ في اليومِ الخَصِرِ
يوقِدُ النَّارَ إذا ما أُطْفِئَتْ يُغْسِلُ القِدْرَ بِأُتْبَاجِ الجُرُزِ

وقد افتخر حسان في بعض قصائده ببعض العادات المتبعة آنذاك والتي لها صلة بكرم قومه، كالميسر والمقامرة، إلا أننا لسنا بصدد ذكرها في هذا المقام، إذ إنها من العادات التي حرّمها الدين الحنيف، وإن كان من بعض هدفها الإنفاق على القوم في زمن الجذب والقحط، فينحرون فيها

¹حسان ، الديوان ، 313.

²حسان ، م. ن ، 184.

³حسان ، م.ن، 194.

⁴حسان ، م.ن، 192 . وجاء في حاشية الصفحة : سبط الكفين.

الجزور لإطعام ذوى الحاجة خاصة في أوقات الشتاء وانقطاع اللبن¹. يقول الله عز وجل في ذلك [يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا]².

وبذلك يكون حسان قد صور تلك القيمة الإنسانية الجليلة في قومه أجمل تصوير لما فيها من إنقاذ للفقراء والمعوزين، وحفظ لماء وجوههم من الذلة والسؤال، وقد امتدح حسان فاعليها كما في مدحه للنعمان بن المنذر³:

[الطويل]

تَزُورُ امْرَأً أَعْطَى عَلَى الْحَمْدِ مَالَهُ وَمَنْ يُغِطِ اثْمَانَ الْمَحَامِدِ يُحْمَدِ
وَأَلْفَيْتَهُ بَحْرًا كَثِيرًا فُضُولُهُ جَوَادًا مَتَى يُذَكِّرُ لَهُ الْخَيْرُ يَزْدِدِ

ولا غلو إن قلنا إن ما جاء في شعر حسان من فخر بكرم قومه أصيل فيهم، أليسوا هم بني النجار الذين آوا النبي الكريم ونصروه، وقسموا بين أنفسهم وبين المهاجرين أموالهم وأملاكهم.

الحلم والأناة:

لم نجد في ديوان حسان الجاهلي حول تلك القيمة إلا ثلاثة أبيات في قصيدة واحدة، ولكنها جمعت محاسن تلك القيمة الإنسانية، إذ لا تخلو القبيلة من أفراد فيهم طيش ونزق وخضوع للأهواء، ولكن القبيلة بحلمها تُبقي عليهم أبناء لها حتى يستقيم اعوجاجهم ويخضعوا لقوانينها .

قد جعل حسان من تلك القيمة فضيلة من الفضائل وعنوان السيادة في الوقت الذي يعد فيه العرب سرعة الانفعال والثورة مظهراً من مظاهر القوة والشجاعة، يقول حسان⁴:

[الطويل]

وَلَوْ وُزِنَتْ رِضْوَى بِحِلْمِ سُرَاتِنَا لِمَالِ بَرِضْوَى حِلْمِنَا وَيَأْمَأَمِ
فَنَحْنُ كَذَلِكَ الدَّهْرَ مَا هَبَّتِ الصَّبَا نَعُودُ عَلَى جَهَّالِهِم بِالتَّحَلُّمِ
فَلَوْ فَهَمُوا أَوْ وَفَقُوا رُشْدَ أَمْرِهِم لَعُدْنَا عَلَيْهِم بَعْدَ بُؤْسَى بَأَنْعَمِ

¹ ينظر: شوقي ضيف، العصر الجاهلي، 71؛ عبد الجليل عبد الجبار، قصة الأدب في الحجاز، 486؛ وأحمد الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، 362.

² سورة البقرة 1/ 219.

³ حسان، الديوان، 133.

⁴ حسان، م.ن، 183.

يفخر حسان في هذه الأبيات بقومه وأنهم أصحاب حكمة، وأن حلمهم إذا ما وزن بجبلي رضوى ويللم لفاقهما ثقلاً ورسوخاً، وهم يتحلمون على الجهال ذوي الطيش، فإذا ما عادوا إلى رشدهم عادوا عليهم بالنعماء .

ولعلّ في قوله (التحلّم) والتي جاءت على وزن (تفعل) فأفادت معنى التظاهر بالشيء دليلاً علي أنّهم يحاولون التحلّم فلا يفعلون رغم ما يصدر عن جهّالهم من حماقات.

وينتقد محمد طاهر درويش الصورة في البيت الأول فهو يرى فيها غلوّاً مبالغاً، وتطاولاً في الافتخار، ويصفها أنها أمر لا يتسع له الواقع¹. وإن كنت لا أرى فيها ذلك، لأن تلك المبالغة أضافت للبيت جمالاً ورونقاً، ولننظر إلى المبالغة في بيت عمرو بن كلثوم كيف أدت الغرض الفني والجمالي، يقول²:

[الوافر]

إِذَا بَلَغَ الْفَطَامَ لَنَا صَبِيٌّ تَخِرُّ لَهُ الْجَبَابِرُ سَاجِدِينَ

وإلى قول أبي الطيب المتنبّي الذي بلغ فيه مجامع الذوق الأدبي³:

[البسيط]

أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَدَبِي وَأَسْمَعْتُ كَلِمَاتِي مِنْ بِهِ صَمَمٌ

الحزم:

الحزم من القيم الجليّة التي عدها العرب من مظاهر البطولة، وهي تعني "ضبط الإنسان أمره، والأخذ فيه بالنقّة ... والرجل الحازم هو العاقل المميّز ذو الحنكة"⁴. وهي قيمة إنسانية عظيمة، تدفع صاحبها إلى التمييز بين الأمور ووزنها بالميزان الصحيح، فيقدم على أمره بنقّة وثبات .

قد بين حسان بتلك القيمة في قومه، فوصفهم بأنهم يبرمون أمرهم حين يعجز الناس جميعاً عن

¹ محمد طاهر درويش، حسان بن ثابت، 244.

² عمرو بن كلثوم، الديوان، 73.

³ أبو الطيب المتنبّي، الديوان، 261/2.

⁴ ابن منظور، اللسان، مادة حزم.

اتخاذ القرار الصائب وإبرام الأمور، لما لهم من راحة عقل ونفاذ كلمة وعلو مقام، يقول¹:

[الطويل]

وَنَحْنُ إِذَا لَمْ يُبْرَمْ النَّاسُ أَمْرَهُمْ نَكُونُ عَلَى أَمْرٍ مِنَ الْحَقِّ مُبْرَمٍ

ويفخر بحزمهم وسداد رأيهم، فهم يبتون في الأمور المعضلة² :

[الكامل]

وَنَحَاوُلُ الْأَمْرَ الْمُهِمَّ خِطَابُهُ فَيَهْمُ وَتَفْصِلُ كُلَّ أَمْرٍ مَعْضَلٍ

المروءة :

المروءة حوت مجامع القيم الإنسانية، وضمت محاسن الأخلاق كافة، وهي في اللغة "كمال الرجولة"³، وهي عند الأدباء والنقاد مجموعة من الخلال الكريمة .

يقول عنها شوقي ضيف: "لعل خير كلمة تجمعها - يقصد الخلال الكريمة - هي المروءة والتي تضم مناقبهم من مثل الحلم والكرم والوفاء وحماية الجار وسعة الصدر والإعراض عن شتم اللئيم والغض عن العوراء"⁴.

ويرى يحيى الجبوري: "أن للقبيلة روابط عامة ومثلاً عليا يلتقي عندها العرب جميعاً، لأنهم يرون فيها بغيتهم التي تكسبهم العزة والرفعة والمجد والذكر الحميد، وتلك المثل جماعها المروءة"⁵.

وقد ضمن حسان هذه القيمة في شعره، ورأى أن المروءة هي السبيل الوحيد للسيادة وليس المال، فالمال ظل زائل، يقول⁶ :

[الطويل]

نُسُّودُ ذَا الْمَالِ الْقَلِيلِ إِذَا بَدَتْ مَرُوءَتُهُ فَيُنَا وَإِنْ كَانَ مُعْدَمَا

¹ حسان، الديوان، 183.

² حسان، م، 125.

³ ابن منظور، اللسان، مادة مرأ.

⁴ شوقي ضيف، العصر الجاهلي، 67.

⁵ يحيى الجبوري، الشعر الجاهلي، خصائصه وفنونه، 61.

⁶ حسان، الديوان، 131. المصرم : الرجل القليل المال. ابن منظور، اللسان ، مادة صرم.

ويلتقي هذا المعيار عند حسان مع عروة بن الورد الذي غلب الجانب الأخلاقي على غيره في اختيار سيد القبيلة، إذ يقول¹ :

[الكامل]

مَا بِالْثَرَاءِ يَسُودُ مَسَّوْدٍ مَثَرٍ وَلَكِنْ بِالْفَعَالِ يَسُودُ

ويعدد حسان شروط المروءة الثلاثة التي يجب أن تتوفر في شيخ القبيلة، وهي: الكرم والشجاعة والعفة، يقول² :

[الطويل]

وَتَلْقَى عَلَى أَيْبَاتِنَا حِينَ نُجْتَدَى مَجَالِسَ فِيهَا كُلُّ شَيْخٍ مُقَمَّمٍ
رَفِيعِ عِمَادِ الْبَيْتِ يَسْتَرُّ عِرْضَهُ مِنْ الذَّمِّ مَيْمُونِ النَّقِيبَةِ خَضْرِمِ
جَوَادٍ عَلَى الْعَلَاتِ رَحْبَ فَنَائِهِ إِذَا سُئِلَ الْمَعْرُوفَ لَمْ يَتَّجَهُمِ
أَشْمَ طَوِيلِ السَّاعِدِينَ سَمِيدِعٍ مُعِيدِ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ مُكَّامِ

العدل :

العدل من شيم الكرام، ومن القيم السامية التي وجدت في المجتمع الجاهلي، ثم أرسى الإسلام قواعدها بعد ذلك، لأن فيها ترجيحاً لجانب الخير على جانب الشر، والذي من شأنه أن ينظم العلاقات بين الأفراد والمجتمعات . وقد أشاد حسان بتلك القيمة في قومه، فقال³ :

[الكامل]

تَزُورُ أَبْوَابَ الْمُلُوكِ رَكَابُنَا وَمَتَى نَحْكُمُ فِي الْعَشِيرَةِ نَعْدِلُ

قد جمع حسان في البيت بين فخره بزيارتهم المتكررة للملوك وبين العدل، وكأنه أراد القول أن علو شأننا بين الخلائق، وعلاقتنا الوطيدة مع الملوك، لا تمنعنا من إقامة العدل بين الناس، لأنه القانون الذي تستمر به السيادة والشرف. ويدلل على أصالة هذه القيمة فيهم استخدامه للفعل المضارع في قوله: (نعدل)، لما يحمله زمن الفعل من دلالة.

¹عروة بن الورد، الديوان، 115.

²حسان، الديوان، 184.

³حسان، م، ن، 125.

ويتغنى بذلك في تشيد يثرب القومي، فيقول¹

[المتقارب]

ويثربُ تَعْلَمُ أَنَّا بِهَا إِذَا أَلْبَسَ الْحَقُّ مِيزَانَهُهَا

وفي قوله يثرب تأكيد على عدلهم بين الجميع، لأن يثرب حوت قبائل مختلفة، كالأوس والخزرج واليهود، وذكره ليثرب كبقعة مكانية دليل على ذلك. فهم العادلون إذا حكموا، وهم المنصفون إذا التبس الحق.

ويربط حسان ما بين العدل والكرم في مدحه، فجعلهما صنوين متلازمين² :

[الرمل]

ثَمَ كَانَا خَيْرَ مَنْ نَالَ النَّدَى سَبَقَا النَّاسَ بِإِقْسَاطٍ وَبِرِّ

فالإنسان المقسط العادل يجعل لغيره حقاً في ماله، فهو لا يهناً بعيش وغيره يحيا بإملاق وإقتار، لأن القيم الحقّة هي التي تحقق مطالب الجماعة، وتعبّر عنها.

إن كان سيف حسان قد نبا فإن لسانه لم ينب، فقد قام بدور جليل سخر فيه فكره وفنه لتوجيه المجتمع والسمو به، من خلال تناوله موضوعات إنسانية واجتماعية هامة، وإعرايه عن عواطف جماعات متعددة، والتزامه بقضايا القبيلة، فغداً بذلك لسان قومه الناطق، ودرعهم المنيع، وسفيرهم عند الملوك والقبائل.

¹ حسان، الديوان، 313.

² حسان، م.ن، 193.

الفصل الثاني:

المعاني الإنسانية في شعر حسان الإسلامي

المبحث الأول: علاقة الشعر بالدعوة الإسلامية

المبحث الثاني: علاقة الشعر بالخير والشر

المبحث الثالث: حسان بين التقليد والتجديد

المبحث الرابع: علاقة الهجاء بالقيم الإنسانية

المبحث الأول: علاقة الشعر بالدعوة الإسلامية

أولاً: حسان والدعوة الجديدة:

تحدث الباحثون كثيراً عن وضع الشعر في العصر الإسلامي، في عصر النبوة خاصة، فرأى بعضهم أن موقف الإسلام من الشعر غير مشجع¹. وبنوا على ذلك نتيجة أسموها (ضعف الشعر الإسلامي)، لأن الإسلام في نظرهم قد حط من شأن الشعر لما ورد في بعض المواضع في القرآن الكريم²، فخبث جذوته وتوارت بلاغته.

كان أول من التفت إلى هذه الظاهرة - ضعف الشعر في صدر الإسلام - ابن سلام الجمحي الذي التمس لها الأسباب والعلل بقوله: " فجاء الإسلام وتشاغلته عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم. ولهيت عن الشعر وروايته ".³

ثم جاء ابن خلدون منساقاً وراء تلك النظرية، فقال: "ثم انصرف العرب عن ذلك (الشعر) أول الإسلام، بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، فأخرسوا عن ذلك، وسكتوا عن الخوض والنظم والنثر زماناً، ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره، وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم، فرجعوا حينئذٍ إلى دينهم منه ".⁴

وإن كنت أتفق مع ابن خلدون في أن الشعر كان في بداية الدعوة قليلاً، إلا أننا نختلف معه في الأسباب، حيث أن الشعر لم يقل لما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، وإنما قل ذلك الشعر في طور الدعوة المكي لأن الدعوة كانت في سنواتها الأولى دعوة سرية، فمن البديهي ألا يكون هناك مساجلات ومناقضات ما بين أتباع الدعوة الجديدة وما بين مشركي قريش، مقارنة بالشعر الإسلامي في طوره المدني بعد الهجرة، إذ كان باب الشعر والمناقضات مفتوحاً على مصرعيه لإرساء قواعد تلك الدعوة والتأريخ لها والرد على مناهضيها. خاصة أنه قد اشترك فيها شعراء

¹ ينظر جرحي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية 181/1؛ يحيى الجبوري، خصائص شعر المخضرمين، 40.

² ورد ذكر الشعر والشعراء في القرآن الكريم في ستة مواضع وهي: سورة الشعراء: 26/ 226-227، سورة يس: 36/ 69، سورة الطور: 52/ 3، سورة الحاقة: 69/ 15، سورة الأنبياء: 21/ 5، سورة الصافات: 37/ 36، وقد وردت هذه الآيات لنفي صفة الشاعرية عن النبي الكريم وذلك لتتأقفاً مع صفة النبوة والوحي والرسالة لا لتحريم الشعر والحط من قيمة الشعراء، ينظر: السيوطي، المزهر 2/ 470. حيث عدد السيوطي جملة الأسباب التي نزهت النبي الكريم من أن يكون شاعراً.

³ ابن سلام، الطبقات، 25/1.

⁴ ابن خلدون. المقدمة، 602.

القبائل جميعاً، ولم يكن الشعر محصوراً في أهل مكة خاصة، والذين عرف عنهم قلة شعرهم نسبياً مقارنة بشعر باقي مناطق الحجاز¹.

هذه آراء بعض القدامى - وللأصمعي رأي سنأتي عليه بعد حين - وهناك بعض المحدثين الذين لم يحدوا عن أسلافهم . فالبهيتي يرى أن الشعر يذهب هذا المذهب - نحو العقائد والدين - في طور الشيخوخة، مما يرخسه ويحط من مستواه القديم.²

بينما يقف عبدالقادر القط موقفاً صريحاً بقوله: " إن هناك بوناً شاسعاً ما بين الشعراء - الجاهلي و صدر الإسلام - من حيث الأصالة والمستوى".³ وسار على هذا المنوال العديد من الباحثين، معللين ذلك بموقف الإسلام من الشعر، وقد أصابت أصداء أقوالهم هذه شاعر النبوة حسان بن ثابت، بل اتخذوه مثلاً على ذلك. وهو الذي اصطفاه النبي صلى الله عليه وسلم ليكون شاعر الدعوة الإسلامية، واللسان الناطق باسمها، متجاهلين أن حسان لم يعد يحتاج في الإسلام إلى أن يكون شاعراً فحلاً كحاجته إليها في الجاهلية، إنما أراد أن يكون شاعراً إعلامياً تعبويًا منافحاً عن الدعوة، وهذا هو الهدف الأساس من شعره نظراً لاحتياجات تلك المرحلة. وقد وجه حسان شعره الوجهة التي يريد وصبغه الصبغة التي أحب مما يدل على ملكته الفذة.

لم يقف النبي الكريم صلى الله عليه وسلم موقف المنفرد أمام الحملة الإعلامية الشرسة، التي شنّها المشركون والتي استغلّوها أيما استغلال في حريهم على الإسلام والمسلمين، فهجوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وتعرضوا لأعراض المسلمين وعقائدهم، مما دعا النبي صلى الله عليه وسلم أن يتعامل مع هذه الهجمة بما يتناسب مع واقع حالها، فاستنفر شعراء المسلمين للرد عليهم وإفحامهم، فتقدم إليه الكثيرون أمثال علي بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان ابن ثابت - رضي الله عنهم أجمعين - فاستمع إليهم النبي صلى الله عليه وسلم واختار من بينهم حسان بن ثابت، إذ رآه أهلاً لتلك المهمة، فهو فارس الميدان في هذه المعركة الفكرية والعقدية مع شعراء قريش، فقال له صلى الله عليه وسلم: **إن روح لقدس لا يزال يؤيدك ما نافخت عن رسول الله**⁴، وأمره بالذهاب إلى أبي بكر الصديق رضوان الله عليه ليحدثه حديث القوم

¹ حيث ردّ ابن سلام قلة شعر بعض القبائل في الجاهلية إلى أنه لم يكن لهم ثائرة ولم يحاربوا، ينظر: ابن سلام، الطبقات، 46/1؛ أحمد الشايب، تاريخ الشعر السياسي، 99.

² البهيتي، تاريخ الشعر العربي، 114.

³ عبد القادر القط، في الشعر الإسلامي والأموي، 12.

⁴ صحيح مسلم، حديث رقم: (6345).

ومثالبهم وأيامهم وأحسابهم ليكون مصيباً فيما يرميهم به، فكان وقع شعره عليهم أشد من وقع النبل¹ وتمكن حسان بقدرته الشعرية الفذة أن يسلم النبي الكريم من هجائه لقريش بقوله: "لأسلنك منهم كما تسلّ الشّعرة من العجين".²

وهكذا اكتسب المشروع الإعلامي الموجه صفته الشرعية، وبذلك أدى حسان دوراً إعلامياً خطيراً، فكان الرأي الصادح الناطق الذي يحمل لواء الإسلام عالياً، ويصب جحيمه على أعداء الإسلام، وقد بلغ إعجاب النبي صلى الله عليه وسلم بالدور الذي أداه حسان أن وضع له منبراً في المسجد³، ليقوم عليه وينشد ما قاله من الشعر في هجاء المشركين، وبذلك غدا حسان مشروعاً إعلامياً ينبغي تعهده وتوجيهه، وكان أبو بكر يتكلم المهمة بأمر من الرسول صلى الله عليه وسلم، لذلك تبدو خطورة شاعر مثل حسان، عريق القول منذ الجاهلية وله مكانته الشعرية.

ويؤكد محمد طاهر درويش أهمية هذا الدور بقوله: "ما أشد حاجات الدعوات الإصلاحية والمبادئ الجديدة عامة إلى دعاية تنتشر فضائلها وتحبب فيها، وتسند لها وترد على خصومها، وتسفه آراءهم، وتبطل حججهم، وتحدث الثغرات في صفوفهم، وكان حسان يتولى في الدولة الإسلامية الناشئة عملاً جليلاً لا يقل خطره عن قيادة الحيوث المحاربة، وقد رأينا في التاريخ الحديث وفي النهضات القومية والحروب الأخيرة، أن الدعاية الناجحة هي جيوش الطليعة الفاتحة وأن وزراءها يختارون اختياراً، وعليهم تعلق الآمال".⁴

ويمضي حسان في نظم شعره أبان الدعوة، وعدته المعارف الإسلامية التي استقاها من الدين الجديد، فديوانه حافل بمشاركته في الأحداث والأطوار التي مرت بها الدعوة الإسلامية، والتي تجسد أغلبها في عصر النبوة، ثم أخذ وميضها بالخفوت شيئاً فشيئاً في أثناء الخلافة الراشدة إلا من بعض نشاط أثناء فتنة عثمان بن عفان رضي الله عنه، إذ كان عثمانى الهوى⁵. وله مشاركات في الأحداث التي سبقت إسلامه فهو يرثي المطعم بن عدي⁶ حين مات، لما له من

¹ صحيح مسلم، حديث رقم: (6345).

² صحيح مسلم، حديث رقم: (6344).

³ سنن أبي داوود، حديث رقم: (5015).

⁴ محمد طاهر درويش، حسان بن ثابت، 180.

⁵ ينظر: القصائد رقم: 93،94،95،96،97،98.

⁶ المطعم بن عدي بن نوفل من قريش (ت2هـ)، رئيس بني نوفل في الجاهلية وهو الذي أجاز الرسول صلى الله عليه وسلم لما انصرف عن الطائف وعاد متوجهاً إلى مكة، فبعث إلى بعض حلفاء مكة أن يجيروه فامتنعوا، فأجاره المطعم. وهو الذي أجاز سعد بن عبادة حين دخل مكة معتمراً. مات قبل وقعة بدر. الزركلي، الأعلام، 252/7.

فضل في نقض الصحيفة التي أبرمها مشركو قريش في مكة¹، فيقول معدداً مناقبه ومحاسنة وقيمه:²

[الطويل]

أَجَزْتَ رَسُولَ اللَّهِ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا عِبَادَكَ مَا لَبَّى مُلَبًّا وَأَحْرَمَا
فَلَوْ سُنَّاتٌ عَنْهُ مَعَدَّةٌ بِأَسْرَهَا وَقِحْطَانُ أَوْ بَاقِي بَقِيَّةِ جُرْهُمَا
لَقَالُوا هُوَ الْمُؤَفَى بِخَفَرَةِ جَارِهِ وَذِمَّتُّهُ يَوْمًا إِذَا مَا تَدَمَّمَا
فَمَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ فَوْقَهُمْ عَلَى مِثْلِهِ فِيهِمْ أَعَزُّ وَأَكْرَمَا
أَبِيًّا إِذَا مَا يَأْبَى وَالْيَيْنَ شِيمَةً وَأَنْوَمُ عَنْ جَارٍ إِذَا اللَّيْلُ أَظْلَمَا³

ومن يستعرض ديوان حسان يلمح الجهد الذي بذله في الدفاع عن الدعوة المحمدية بشعره، فقد اعتمد عليه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في الرد على شعراء المشركين أمثال عبد الله بن الزبيري⁴، وأبي سفيان بن الحارث، وضرار بن الخطاب⁵ وعمرو بن العاص، واستطاع أن يكون لهم نداً بل يتفوق عليهم.

وله من القصائد الهجائية ضد أعداء الدين الشيء الكثير، وقد وجه تلك الأهاجي على المستوى الفردي والجماعي، فهجا أفراداً كالهارث بن هشام، والوليد بن المغيرة، وعتبة بن أبي وقاص، وأمّية بن خلف، وصفوان بن أمية وغيرهم.⁶ كما هجا القبائل كقبيلة مذحج⁷، وقبيلة هذيل يوم الرجيع⁸، وبني سليم يوم الردة⁹، وهجا اليهود من بني قريظة¹⁰ وبني النضير حين أخلفوا ميثاقهم

¹ ينظر الخبر: ابن هشام، السيرة 23/2 - 28؛ حسان، الديوان: 243.

² حسان، الديوان، 243-244.

³ تتضح في هذه القصيدة القيم التي امتدح بها مطعم بن عدي كحسن الخلق ونصرة الجار والذود عنه وإبائه الظلم.

⁴ عبد الله بن الزبيري بن قيس بن عدي، أحد شعراء قريش المعدودين، كان يهجو المسلمين ويحرض عليهم في شعره، ثم أسلم وقيل النبي إسلامه، وأمنه يوم الفتح. الأصفهاني، الأغاني، 206/2.

⁵ ضرار بن الخطاب بن مرداس القرشي، فارس شاعر صحابي، قاتل المسلمين يوم أحد والخندق أشد قتال، وأسلم يوم الفتح، ولم يكن في قريش أشعر منه، وله أخبار في فتح الشام، استشهد في وقعة أجنادين. الزركلي، الأعلام، 3/215..

⁶ ينظر: مبحث الهجاء من هذا الفصل.

⁷ ينظر: الديوان، القصيدة رقم: 8

⁸ يوم الرجيع هو اليوم الذي غدرت فيه قبيلة هذيل بصحابة رسول الله الذين أرسلهم ليعلموا قبيلتي القارة وعضل تعاليم الإسلام، ينظر ابن هشام، السيرة النبوية، 3/155.

⁹ ينظر: الديوان، قصيدة رقم: 123 ورقم: 139.

¹⁰ ينظر: م. ن.، قصيدة رقم: 119 ورقم: 133.

ميثاقهم مع النبي صلى الله عليه وسلم، وقد شمل هجاؤه المناوئين للدعوة الإسلامية كلهم، مستخدماً سلاحه البتار - لسانه - في الرد عليهم وقد سفه آراءهم وحط من قدر معتقداتهم.

وفي الجانب الآخر نجده يبدع في مدح النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وصحبه، فقد حول مسار المدح ووظيفته من حرفة التكسب إلى سلاح لنشر الدعوة الإسلامية والذود عنها والتغني بانتصارتها، فهو يدعو ويبشر أكثر من كونه يمجّد ويفخر، وقد تحول حسان مع هذا التغيير في مسار قصيدة المدح الجديدة من شاعر الفخر القبلي إلى شاعر المدح السياسي، فكانت هذه القصيدة - أو كان هذا الشعر كله - المقدمات الجنبية الأولى للشعر الديني السياسي زمن الأمويين .

من المعلوم أن حسان في الجاهلية لم يكن شاعراً مداحاً، ولم يرد له الكثير من الأثر في هذا المجال، إلا أنه استطاع بموهبته أن يضع أصولاً جديدة لهذا الغرض الفني، فجعله أقرب إلى العفوية والبساطة، وأقرب إلى القيم المستمدة من الدين الجديد لا من الفخر الناشئ من العصبية القبلية، فيمدح بمقدار ما يتصل مدحه بالدين كالشجاعة والوفاء والجود والعفة والصدق، وما يتصل بها من الفضائل والخصال المحمودة، إضافة إلى المدح بالنور والهداية والبركة والتقوى والرسالة والرحمة وغيرها من الفضائل الإسلامية. يقول حسان في مدح الرسول وأصحابه يوم بدر¹:

[البسيط]

مُسْتَشْعِرِي حَلَقِ الْمَادِي يَقْدُمُهُمْ	جَلْدُ النَّحِيْزَةِ مَاضٍ غَيْرُ رَغْدِيْدٍ ²
أَعْنِي الرَّسُولَ فَإِنَّ اللَّهَ فَضَّلَهُ	عَلَى الْبَرِيَّةِ بِالتَّقْوَى وَبِالْجُودِ
ثُمَّ وَرَدْنَا لَمْ نَهْدَدْ لِقَوْلِكُمْ	حَتَّى شَرِينَا رِوَاءً غَيْرَ تَصْرِيْدٍ ³
فِينَا الرَّسُولُ وَفِينَا الْحَقَّ نَتَّبَعُهُ	حَتَّى الْمَمَاتِ وَنَصْرٌ غَيْرُ مَحْدُوْدِ
مُبَارِكٌ كَضِيَاءِ الْبَدْرِ صَوْرَتُهُ	مَا قَالَ كَانَ قَضَاءً غَيْرَ مَرْدُوْدِ
مُسْتَعْصِمِينَ بِحَبْلِ غَيْرِ مُنْجَبِمْ	مُسْتَحْكِمٍ مِنْ حَبَالِ اللَّهِ مَمْدُوْدِ
وَإِ وَمَاضٍ شَهَابٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ	بَدْرٌ أَنْارَ عَلَى كُلِّ الْأَمَاجِيْدِ ⁴

¹ حسان، الديوان، 242.

² مستشعري حلق المادي، يصف جيش المسلمين في غزوة بدر، استشعر: إذا لبس المادية: الدروع البيضاء، يقدمهم جلد النحيزة: يبريد الرسول صلى الله عليه وسلم، والنحيزة: الطليعة، جلدتها: قوتها، الرعيد: الجبان.

³ التصريد: سقي دون الري، ابن منظور، اللسان: مادة صرد.

⁴ ورد هذا البيت في حاشية ص 242.

والناظر في عينية حسان يوم وفد تميم يجد فارقاً في الروح الإسلامية السمحة، والتي يدعو فيها إلى مكارم الأخلاق ومحاسن السجايا والتقيّد بتعاليم الإسلام السمحة، والمثول لأوامر قائدهم النبي صلى الله عليه وسلم، بالمقارنة بما في أبيات شاعر وفد تميم - الزبيرقان بن بدر¹ - بما فيها روح البداوة الجاهلية، والتفاخر القبلي القائم على الأحساب والأنساب. ولعلّ هذا التباين كان السبب في إسلام الوفد، ومبايعته لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

وتستمر مشاركة حسان في الأحداث الإسلامية بمراثيه فهو لم يرث أحداً في جاهليته، ولكن له رصيلاً جيداً من شعر الرثاء في الإسلام، فقد رثى النبي الكريم وأصحابه وشهداء المسلمين في الغزوات كحمزة وجعفر وخبيب وزيد بن الحارث، كما رثى عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وله مراثٍ في شهداء بدر وأحد ومؤته وغيرها. وقد لاقت مراثيه نقداً متعدداً بين مؤيد ومعارض كباقي شعره.²

ومن جياذ قصائد حسان التي كان لها أبلغ الأثر في نفوس المسلمين، قصيدة الفتح التي قالها في السنة الثامنة للهجرة، والجزء الإسلامي من هذه القصيدة سما بحسان سموماً لم يدركه شاعر إسلامي آخر، حينما يرصد تحركات الجيش الإسلامي وقت دخل مكة، ومنه قوله³:

[الوافر]

تَظَلُّ جِيادُنَا مُنَمَّطَاتٍ تُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمْرِ النَّسَاءُ

والذي دعا الرسول الكريم أن يقول حين رأى نساء مكة يضرين وجوه الخيل: "صدق حسان"⁴.

وبذلك يكون حسان قد شارك في أحداث الدعوة الإسلامية جميعها، وقد نجح فيما قام به، بل يعده كثيرون "شاهداً على زمن الانتقال، بل هو من مدعي هذا الانتقال بما حمله من مضمون رسالي".⁵

¹ الزبيرقان بن بدر بن قيس التميمي، قيل له الزبيرقانلجماله، والزبيرقان: القمر. كان سيداً في الجاهلية، عظيم القدر في الإسلام، ولاه النبي صلى الله عليه وسلم صدقات قومه، وأقرها عليها أبو بكر لما رأى ثباته على الإسلام. ينظر: ابن الأثير، أسد الغابة، 2/206.

² ينظر محمد طاهر درويش، حسان بن ثابت، 439؛ سيد حنفي حسين، حسان بن ثابت شاعر الرسول، 189؛ يحيى الجبوري، خصائص شعر المخضرمين، 304.

³ حسان، الديوان، 73.

⁴ حسان، م.ن، 74.

⁵ سالم المعوش: القواعد المعرفية، 454.

وقد بين حسان الدور الذي ينهض به الشعر في مجال الدعوة:¹

[الوافر]

لنا في كلِّ يومٍ مِنْ مَعَدِّ قَتالٍ أو سِبابٍ أو هِجاءٍ
فَنُحِمْ بِالْقَوافي مِنْ هِجانا ونضربُ حيثُ تَخْتَلطُ الدِّماءُ

فلا غلَوْ إذا قلنا إن حسان قد غير مضمون القصيدة إذ "نقل أغراض الشعر من الفخر بالذات والقبيلة إلى الاعتزاز العقدي السياسي، ومن الغضب والهجاء المرتبط بمصالح الذات إلى الغضب لله ورسوله، ومن أدب التكسب إلى أدب الانتماء العقدي، ومن المدح بدافع الطمع إلى مدح التهدي مقابل الثواب من الله سبحانه وتعالى، كما استطاع بغزارة نتاجه تغطية حاجات الدعوة والاستجابة للتحديات التي تواجهها، والرد على أكاذيب الكفار، وجملاء حقائق الإسلام".²

وبهذا يكون حسان قد نقل الشعر من طور المنافسة الأدبية التي تهيم في كل واد إلى الأدب الموجه الملتزم بروح الإسلام وفق تعاليم النبي الكريم وهديه.

ثانياً: قضية ضعف شعر حسان الإسلامي:

الأصمعي أول من أثار قضية ضعف شعره، فقد أثر عنه قوله: "الشعر نكد بابه الشر، فإذا دخل في الخير ضعف، هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية، فلما جاء الإسلام سقط شعره"³.

ورواه المرزباني في موشحه مع زيادة: " طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان، ألا ترى حسان بن ثابت، علا في الجاهلية والإسلام. فلما دخل شعره في باب الخير من مرثي النبي صلى الله عليه وسلم، وحمزة وجعفر رضي الله عنهما لان شعره، وطريق الشعر هي طريق الفحول، مثل امرئ القيس، وزهير والنابغة، من صفات الديار والرحلة والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الخمر والخيل والافتخار، فإذا أدخلته في الخير لان".⁴

¹ حسان، الديوان، 74.

² عباس مناصرة، مقدمة في نظرية الشعر الإسلامي، 115.

³ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 305/1. ويورد ابن قتيبة للأصمعي مقالة ثانية حول الموضوع نفسه: " شعر حسان في

الجاهلية من أجود الشعر، فقطع منته في الإسلام لحال النبي صلى الله عليه وسلم"، ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 305/1.

⁴ المرزباني، الموشح، 78.

ووقف النقاد والمهتمون إزاء المقولة فريقيين: فريقاً جاء مردداً لقول الأصمعي، دائراً في فلكه، جاعلاً من حسان بن ثابت نموذجاً لضعف الشعر في عصر صدر الإسلام عامة، وضعف الشعر ذي الصبغة الدينية خاصة، معللاً ذلك بالضعف بأسباب وعلل كثيرة.¹

وفريقاً رفض تلك الدعوة وأكد على شاعرية حسان، وأن فحولته قد استمرت بعد الإسلام إن لم تكن تقدمت، بما هيا لها الإسلام من أسباب التقدم والنهوض.²

ويمكن القول إن ثمة كثيراً من الأسباب التي جعلت الأدباء يطلقون الحكم بالضعف والرداءة على شعر حسان الإسلامي، ويمكن تلخيصها فيما يأتي³:

1. أسباب تعود إلى النقاد أنفسهم الذين جعلوا مقياس الشعر الغرابة والجزالة .
2. خفض الإسلام من علياء موضوعات شعرية رأى كثير من النقاد أنها تثير القرائح مما عمل على نقله نوعية ما بين القيم والقضايا الجاهلية والإسلامية.
3. كثرة ما حمل على حسان من شعر موضوع، واختلاط شعره بشعر معاصريه أمثال عبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك.
4. ارتجال حسان لكثير من قصائده.

ولابد لنا من الوقوف على الأسباب الآنفة ومناقشتها لاستجلاء الحقيقة:

أولاً: أسباب تعود إلى علماء اللغة:

ليس في كتب الأقدمين غير أقوال الأصمعي حول قضية ضعف شعر حسان الإسلامي، التي ردها كل من جاء بعده. ولعل السبب الأساس في تعليل رأي الأصمعي ذلك ما عرف عنه من ولعه بالغريب، وأن مقياس البلاغة عنده وقوة القول لديه هي ما يزخر به العمل من ألفاظ بدوية غريبة وأساليب جاهلية خشنّة، وله الكثير من المواقف المتعصبة من الشعراء الإسلاميين، فقد ورد

¹ ينظر شكري فيصل، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، 190 وما بعدها؛ يحيى الجبوري، خصائص شعر المخضرمين 40؛ عبدالقادر القط، في الشعر الإسلامي والأموي، 12؛ عبدالله الحامد، الشعر الإسلامي في صدر الإسلام، 251؛ عمر الفروخ، تاريخ الأدب العربي، 326.

² ينظر، بنت الشاطي، قيم جديدة للأدب العربي، 66 وما بعدها؛ سامي مكي العاني، الإسلام والشعر، 22 وما بعدها؛ شوقي ضيف، العصر الإسلامي، 81؛ عبد المنعم الخفاجي، دراسات في الأدب، 321.

³ ينظر الإسكندري وزملاؤه، المفصل، 107؛ عبد الله الحامد، الشعر الإسلامي في صدر الإسلام، 71؛ أحمد الشايب، تاريخ الشعر السياسي، 105؛ سامي مكي العاني، الإسلام والشعر، 23.

أنه سئل يوماً عن جرير والفرزدق والأخطل، فقال: "لا أقول فيهم شيئاً لأنهم إسلاميون"¹. وشأنه هذا شأن كثير من النقاد الأولين، الذين كانوا مع أدبهم رواة لغة وحفظة غريب، يحرصون الشاهد الشاذ أكثر من حرصهم على غيره.

فإذا كان غرض الأصمعي من الليونة هو السهولة والدمائة والتخلي عن غريب اللفظ ووعورة الأسلوب فليس هذا بعيب يعاب عليه حسان ولا يضار به، وإنما العيب ألا يلين جانبه وترق حاشيته وألا يتأثر بأسلوب القرآن الكريم السهل الناصع، ويتمثله في ألفاظه ومعانيه بعد أن خالطت بشاشة الإسلام قلبه.

ويؤكد عباس مناصرة ذلك بقوله: "كيف لا يكون نزول القرآن ثورة في اللغة، وانقلاباً في أساليب البيان، والتعبير في الشعر والنثر العربي، وفي نقل دلالات اللغة العربية وآدابها في مرحلة جديدة، وفهم جديد وأداء مبتكر، لقد غاب عن عقولهم أن اللين في شعر حسان هو ميلاد لمذهب جديد في الفن الشعري هو مذهب (الشمولية الإسلامية)، نعم ما لان شعر حسان وما ضعف، ولكنها ولادة المذهب الإسلامي الذي لم يألفه الرواة في الشعر الجاهلي"².

ولعل في قول الجاحظ في صفة كلام النبي صلى الله عليه وسلم دليل على أن بلاغة القول في البعد عن اللفظ المستهجن الغريب، فيقول: "أنه - صلى الله عليه وسلم - جانب أصحاب التعجير، وهجر الغريب الحوشي، ورغب عن الهجين السوقي"³.

هنا لا نساوي بين كلام المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى و بين شعر حسان، وإنما نوضح أن اللفظ السهل البعيد عن الحوشية ألصق بالقلوب والعقول، وأنها صفة امتاز بها حسان عن غيره من الشعراء مما سهل لشعره الذبوع والانتشار.

وترفض عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطي) هذا الاتجاه عند الأقدمين ومجازاة المحدثين له وتدعو إلى تتبع ابن قتيبة في رأيه في أن لا ننظر إلى المتقدم بعين الجلال لتقدمه وإلى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره، فنقول: "قد حدد أولئك القدماء للشعراء منازلهم وأقدارهم، واختاروا نماذج من الشعر رأوها أجود ما قيل في بابها، ومرت عصور وأدهار وما يزال الشعراء حيث وضعهم الأقدمون، وما تزال النماذج التي اختاروها موضع عنايتنا واهتمامنا، وما تزال أحكامهم ومقاييسهم

¹ الأصمعي، كتاب فحولة الشعراء، 12.

² عباس مناصرة، مقدمة في نظرية الشعر الإسلامي، 126.

³ الجاحظ، البيان والتبيين، 17\2.

باقية فينا، نعيدها ونكررها وندور في نطاقها، وكأنما قضي علينا أن نستعير عقليتهم وأذواقهم، لفهم تراثنا وندوقه".¹ وأرى أن ذلك هو السبب الرئيس في تكرارهم لتلك المقولة.

ويقف محمد فشوان موقفاً واضحاً ضد الباحثين الذين يقيسون شعر صدر الإسلام بالمقاييس نفسها التي قوموا بها الشعر الجاهلي والشعر الأموي، ويرى أنها "مقاييس مستمدة من طبيعة الحياة الجاهلية ومن عصر بني أمية بما لها من مواضع اجتماعية ونظم سياسية واتجاهات فكرية، أما المقاييس التي ينبغي أن نحتكم إليها في تقويم الشعر الإسلامي فهي تلك المقاييس النابعة من القيم الجديدة التي نادى بها الإسلام".²

وليس تباين الخطاب من الجزالة والغرابة إلى السهولة واللين ضعفاً، وخير دليل على ذلك أسلوب القرآن الكريم نفسه، إذ تباين الخطاب المكي عن الخطاب المدني، إذ كانت صفة الخطاب المكي الشدة والقوة والزجر والردع بينما انتقل الخطاب المدني إلى اللين واليسر³، وهذا يعود إلى طبيعة المقام. وهذا ما تمثله حسان بن ثابت في شعره إذ تنقل في أسلوبه الذي يخاطب فيه قوماً عدواً بلاغة القول عندهم الجزالة والغريب والحوشي، إلى خطابه قوماً يمتازون بالرحمة والتآلف والتناصر، وهذا ليس هوة أو سقوطاً كما يدعي بعضهم، إنما هو إثبات لشاعريته التي ينقلها حيث شاء، فنراه في نقائضه مع المشركين يتمثل الأسلوب القوي الجزل، بينما في مدحه للنبي والصحابة ومراثيه يتحدث بسهولة ويسر ورقة، وهذا الأمر لا يضيره إذ أن طبيعة المرحلة تتطلب ذلك.

يتضح أن الأسلوب الأدبي المنمق ذا الجزالة والفخامة يطغي استخدامه عند الترغيب والترهيب في المواقف التي تستدعي الإثارة وتحريك المشاعر كما في الأسلوب القرآني المكي، وكما حدث مع حسان في نظمه الجاهلي الذي أراد منه إمالة قلوب السامعين نحوه، بينما يستخدم الأسلوب العلمي لإيضاح الحقائق بأقصر السبل وأيسرها. وهذا هو المنهج القرآني المدني والنهج الذي اتبعه حسان في شعره الإسلامي، لأن هدفه بيان النظم والتشريعات الإسلامية، والدعوة للدين والذود عنه، فلا تستدعي الحاجة هنا إلى توسع وإطالة وصناعة لفظية وهذا ما يُعَلَّل به بعده في شعره الإسلامي بشكل ملحوظ عن المقدمات الطللية، إذ همه وصف الموقف، وملاحقة الأحداث المتسارعة لا

¹ عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، 12.

² محمد سعيد فشوان، الدين والأخلاق في الشعر، 110.

³ ونظر رأي دلال عباس التي ترى أن انتقال الدعوة من مرحلة (الإنذار) إلى مرحلة (الرسالة)، أدى إلى اختلاف الخطاب، فالإنذار يعتمد على التأثير الذي يعتمد على أسلوب مركز وموقع، وهو أسلوب طاغ في السورة المكية. بينما مرحلة (الرسالة) تخاطب المتلقي وتنقل إليه محتوى أوسع من مجرد التأثير، إذ يغلب عليها جانب التعليم ونقل المعلومات ومن ثم تحتاج إلى لغة مختلفة في تركيبها وبنائها الآفاق النفسية والاجتماعية والبيئية. ينظر: دلال عباس، القرآن والشعر، 6.

التفقيح والتحكيك في شعره، بينما يلاحظ ترويه وتفقحه لهمزيته مما جعلها تبلغ ذلك المستوى العالي الرفيع.

إن شعره في المرحلة الواحدة سواء الجاهلية أو الإسلامية لم يكن على نمط واحد، والتباين فيه واضح جلي من حيث الجزالة وخفة الألفاظ وجمال التصوير وتتابع المعاني ، فشعره الجاهلي لم يكن كله بمستوى الإبداع والجودة الذي قد نتخيله إذا سمعنا برأي الأصمعي، إنما هو متفاوت بين الجودة والإبداع والركاكة والسهولة، وكذلك شعره الإسلامي، وهذا التباين أمر شائع عند أغلب الشعراء تقريباً إن لم يكن كلهم.

2. دواعي تعود إلى العجز عن تمثيل قيم الدين الجديد وقضاياها :

أحدث الإسلام ثورة عارمة على كثير من القيم والأعراف السائدة في المجتمع الجاهلي، مما أثر في توجهات كثير من الشعراء ، كل وفق التزامه وتمثله تعاليم الدين الجديد من جهة، وتبعا لأخلاقياته وقيمه في الجاهلية من جهة أخرى.

وقد تناول النقاد الموضوع بشيء من التفصيل والتعليل عند شعراء تلك المرحلة بشكل عام، وعند حسان بن ثابت بشكل خاص .ومن الذين تناولوا الموضوع عبد القادر القط، الذي رد ضعف الشعر الإسلامي في تلك الفترة إلى عجز الشعراء عن تمثيل القيم والقضايا الإنسانية الجديدة التي جاء بها الإسلام، والتي تستدعي تجربة فنية مختلفة في طبيعتها عما اعتادوا عليه من أنماط ثقافية وسلوكية. ويقول عن حسان بن ثابت "إنه لم يكن من اليسير على شاعر قضى الجانب الأكبر من حياته في الجاهلية أن يجد لنفسه أسلوباً جديداً من الشعر يحسن التعبير عن القيم والقضايا الجديدة، ويحتفظ في الوقت نفسه بتلك الخصائص الفنية التي نمت وتطورت في ظل مجتمع مختلف في قيمه وقضاياها." ¹

ويرى في موضع آخر: "إن عصر الفحول قد انقضى ولم يبق منهم إلا الأعشى الذي مات وهو في طريقه إلى النبي ليمدحه ويعلم إسلامه، وليبيد الذي كان قد بلغ الستين وأوشك أن يكف عن قول الشعر، ولم يبق عند ظهور الإسلام إلا شعراء مقلون، بعضهم مجيد في قصائد مفردة، ولكنهم لا يبلغون شأن هؤلاء الفحول" ². ويرى أن حسان لا يمكن أن يعد بحال من الأحوال من

¹ عبد القادر القط، في الشعر الإسلامي والأموي، 12، ويذهب مذهبه كل من : محمد عثمان علي في أدب الإسلام، 100؛ عمر كحالة، الأدب العربي في الجاهلية والإسلام ، 89؛ شكري فيصل، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، 228.

² عبد القادر القط، في الشعر الإسلامي والأموي، 13.

هؤلاء الفحول، فهو دونهم في الموهبة والقدرة اللغوية وفلسفة التجربة وصدق الملاحظة، وأنه لم يكن في قمة من قمم الإبداع في الجاهلية ثم هوى عنها بعد الإسلام¹.

إذن: يختزل عبد القادر القط دواعي ضعف شعر حسان إلى عاملين اثنين وهما: تباين القيم القضايا ما بين الجاهلية والإسلام، وإلى انقضاء عصر الفحول الذي لا يعد حسان بن ثابت منهم.

وإن كان رأيه هذا مقبولاً في ظاهره على عدد من الشعراء، إلا أنني أرى الوضع مختلف عند حسان بن ثابت، فرأيه بحاجة إلى دراسة ومناقشة وتحليل لما يثيره من قضايا واعتراضات، فمن المعروف أن حسان وإن اختلفت قضاياها ما بين الجاهلية والإسلام فإن قيمه ومثله التي تبناها وناجح عنها في شعره الجاهلي لم تختلف بعد الإسلام، فهو شاعر القيم والمبادئ في الجاهلية، نادى بكثير منها في شعره فأرسي قواعدها في ذاته وفي قبيلته، فنصر المظلوم، وأغاث الملهوف، وعرف حق الجوار، وصبر عند الشدائد، وعف في شعره وغزله، وصقل ذاته وهذبها حتى بلغت ما هي عليه من الاحترام والقبول، فما كان يوماً بالشاعر الصريح الماجن اللاهث وراء اللذات والشهوات والمتعة، وما كان بالشاعر المتمرد والخارج على قوانين القبيلة، الراض لنظمها ونواميسها، وإنما كان دوماً شاعر القبيلة الأول، ولسانها الناطق الذائد عنها، المحافظ على قيمها وأصولها وأعرافها. والشاهد هنا أن حسان لم يكن بالخارج عما عهدته العرب من قيم وفضائل حتى يعجز عن تمثلها في الإسلام وإيجاد أسلوب جديد يتلاءم مع القيم الإسلامية الجديدة، فضلاً على أن قيم الدين الجديد لم تكن تتعارض مع مفاهيم العرب أو مخالفة لتوجاتهم وعاداتهم وتقاليدهم، فالإسلام لم يبطل منها إلا ما هو مذموم والذي لا يتوافق مع العدالة والسماحة والكرامة الإنسانية - وما كان حسان فاعلاً لها - وهذا ما أشار إليه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بقوله: **[إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق]**²، إضافة إلى أن كثيراً من العادات المتبعة عند العرب أقرها الإسلام مع اختلاف الشكل لا المضمون، وكثير من العرب يؤمن بدين التوحيد وكانوا يحجون البيت الحرام ويؤدون مناسكهم وشعائرتهم حوله، فتعاليم الدين الجديد جاءت مكتملة لمكارم الأخلاق لا منافية لها.

ولعل تضمين شعره الإسلامي كثيراً من الفخر بأجداده وقومه ومناقبهم وقيمهم وعاداتهم دليل واضح على امتزاج القيم والقضايا عنده، وأن هذا متمم لذاك، فلم تختلف القضايا إلا شكلاً، أما المضمون فواحد، لأن الإسلام لم يجب كل القيم السائدة عند العرب بل أبقى على عديد من المحمود منها.

¹ عبد القادر القط، في الشعر الأشلامي والأموي، 34.

² الأمام البخاري، الأدب المفرد، حديث رقم (273).

ويدحض حبيب يوسف مغنية الرأي السابق بقوله: "قد كان للدين الإسلامي إرهابات دينية واجتماعية وسياسية وأدبية .. وهذه الإرهابات هيأت الناس وعقولهم لتقبل تعاليم الإسلام ومثله، وما يقال عن انبهار العرب بتعاليم هذا الدين وصعوبة الاتصال بها، والعجز عن استيعابها وتمثيلها في نتاجهم الثقافي، إن هو إلا افتراض مبالغ فيه جداً، وتنقصه الحقائق التاريخية والثقافية، وفي مقدمتها حقائق الدين الإسلامي ذاته، ولا يؤدي الأخذ به إلا إلى اجتناث جذور العرب من أصولها، وتشويه تاريخهم، والتقليل من شأن دورهم في بناء الحضارة والثقافة العالمية".¹

ويعلل عبد الله الحامد ذلك الضعف بالجمع ما بين الرأيين إذ يقول: " أما الإلتزام في الإسلام والذي فهمه الخلفاء والشعراء في العهد النبوي لا يضعف الشعر، لكن الذي أضعف الشعر المضمون التجديدي الذي طولب به الشعراء والمعطيات الحضارية والفكرية التي أنبثت بين الناس من هدي الإسلام وحكمة القرآن، فجاء الشعراء ليعبروا عن هذه المعطيات وهي تتطلب فهماً شعرياً جديداً لم يكن واضح المعالم لديهم، وهي تغيير في الأسلوب وفي اللفظة والغرض، وهي بذلك أحدثت صدمة عنيفة في نفوس الشعراء المسلمين، فالأسلوب الجاهلي خزمه الإسلام وانتهى فلا فخر ولا كذب ولا فجور ولا إغراب ولا غموض ولا إثارة عداوات ولا تكسب ولا إرهاب، فكيف ينظم الشاعر شعره إذن. إن اختار الصبغة الإسلامية فسيبدو شعره ضعيفاً لأنه يعتسف طريقاً جديدة ذات مضامين جديدة".²

¹ حبيب يوسف مغنية، الأدب العربي من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي، 108؛ ينظر: عبد الله الحامد، الشعر الإسلامي في صدر الإسلام، 72.

² عبد الله الحامد، الشعر الإسلامي في صدر الإسلام، 202 ، 253.

ونحن نوافق عبد الله الحامد في رأيه الأول في أن الإلتزام الديني لا يضعف الشعر ولعل الإشارات الدينية في شعر بعض الشعراء الجاهلية¹، تؤكد على ذلك، ولكننا نخالفه الرأي الآخر القائل أن المضمون التجديدي في أسلوب الشعراء والخالي من الفخر والكذب والفجور والإغراب والغموض وإثارة العداوات والتكسب والإرهاب هي التي تضعف الشعر، فهذا أمر مردود لأن حسان قد خلا شعره الجاهلي من الفجور والإغراب والتكسب، بل على العكس قد ضم شعره الإسلامي إثارة العداوات والتمثلة في نقائضه مع شعراء المشركين واليهود، وكذلك الإرهاب المتمثل بالوعيد والتهديد لأعداء الدين، والتي شكلت أهم الروافد التي أمدت شعره الإسلامي بالمعاني الجديدة والأفكار البديعة والأغراض الطريفة. فهذه ليست بالمضامين الجديدة التي تستدعي ضعف شعره.

وخير ما أخلص إليه بعد هذا النقاش أن حسان لم تختلف شخصيته وقيمه وقضاياها ما بين الجاهلية والإسلام فهو الرجل المسؤول دوماً لا ذاك اللاهث وراء الشهوات والمتع والملذات، المصرح بها من غير خوف أو حرج، فلم يهو شعره لتباين القيم والقضايا، فالقيم والقضايا تبقى راسخة ثابتة على مر الدهور وإن اختلفت جزئياتها إلا أن خطوطها العريضة تبقى واضحة، وليست مرداً لضعف الشعر وعجزه عن تمثّل المضامين الجديدة.

وإنما يظهر ذلك الأمر جلياً عند الشعراء الذين لم يكن للقيم والمبادئ نصيب وافر ودور فعال في حياتهم ثم التزموا من بعد ذلك بتعاليم الدين الجديد فانقلبت الموازين رأساً على عقب. فنحن نلمح مضامين إسلامية في شعر الذين لم يسلموا، لا تتعارض مع روح الإسلام وكما نلمح مضامين جاهلية في شعر الذين أسلموا كالحطيئة وغيره.

¹ ينظر: قول زهير بن أبي سلمى:

ليخفى ومهما يكتم الله يعلم	فلا تكتمن الله ما في نفوسكم
ليوم الحساب أو يعجل فينقم	يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر

وقوله:

وأهلك لقمان بن عاد وعادياً	وأهلك ذي القرنين من قبل ما ترى
وفرعون جباراً طغى والنجاشيا،	وقول لبيد في الجاهلية:

حمدت الله والله الحميد	ولله الموثل والعديد
فإن الله ناقله تقاه	ولا تقيا لها إلا سعيد

وكذلك شعر أمية بن أبي الصلت ذلك الرجل الذي آمن لسانه وكفر قلبه، وقد استشهد النبي الكريم بشعره وكان يقول بعد كل قافية، هيه، ينظر: صحيح مسلم، حديث رقم: (5846). وله من الشعر في مكارم الأخلاق والإشارات الدينية الشيء الكثير. ينظر: ديوان أمية بن أبي الصلت، 44-45-46.

أما فيما يتعلق بالعامل الثاني والذي عزا إليه عبد القادر القط ضعف مستوى الشعر في ذلك العصر وهو انقضاء عصر الفحول، فهذا أمر منافٍ للواقع لأن وراء هذا الإدعاء إسقاط لجميع الشعراء المخضرمين من قائمة الفحول، وحكم على ضعف شعرهم، وهو يعارض بذلك جل المحققين قديمهم وحديثهم، وليس هذا القول في حسان وحده بل في غيره أمثال كعب بن زهير، وليبيد والحطيئة والنابغة الجعدي والشماخ وسائر الهذليين المصنفين في الطبقات الأولى في كتب طبقات الفحول.¹ فالفحولة لم تكن مقصورة على أصحاب الطوال فقط.

ورأي عبد القادر القط بشأن فحولة حسان رأي غريب، وغرابته تكمن في مخالفته للحكم الذي أطلقه عليه القدماء في أنه أشعر أهل القرى.

3. دواعي النحل والوضع:

يرى بعض النقاد²، أن شعر حسان في الإسلام لا يزال كعهده في الشباب قوياً حصيفاً رصيفاً، وأن ما وجد فيه من ضعف ولين لم يكن نسبته إليه صحيحة، وإنما هو مما وضعه المتكثرون من الشعر من رواة المغازي والأخبار، فقد كان شاعر الإسلام الأول، من يمدحه فقد زكاه في قومه ورفع من شأنه، ومن هجاه أدله في نسبه وشرفه وخلقه وخفض من مكانته.

وقد ربط النقاد القدامى ما بين عوامل الوضع والنحل وما بين قضية ضعف شعر حسان. وأول من تنبه لهذه الظاهرة ابن سلام إذ يقول: "حسان بن ثابت كثير الشعر جيده، وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد، لما تعاضت قريش واستتبت وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تنقي"³

وقد ورد عن الأصمعي قوله: "حسان أحد فحول الشعراء فقال أبو حاتم: "تأتي له أشعار لينة، فقال الأصمعي: تنسب له أشياء لا تصح عنه"⁴

¹ ينظر: طبقات ابن سلام وتصنيفه لهم؛ وينظر رأي كل من حبيب مغنية، الأدب العربي من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي، 107؛ محمد عثمان علي، في أدب الإسلام، 101.

² ينظر ابن سلام، الطبقات، 1/215؛ شوقي ضيف، العصر الإسلامي، 81.

³ ابن سلام، الطبقات 1/215.

⁴ ابن عبد ربه، العقد الفريد، 1/246.

وأما عوامل الوضع والنحل في شعر حسان فهي:

1. أسباب سياسية ودينية: فقد وضعت على لسان حسان بن ثابت أشعار كثيرة¹، أراد أصحابها أن يكسبوا قضية سياسية في جعل شاعر الرسول يقول فيهم أشعاراً لتثبيت مواقفهم السياسية، وبدءاً بالفتنة التي حدثت بعد مقتل عثمان حيث اضطرت بطون قريش فأخذت تصنع أشعاراً على لسانه، ومن ثم مروراً بالأمويين الذين نسبوا إليه ما لا يصح عنه في بكاء عثمان ومطالبة معاوية بالتأثر له، وليغسلوا عنهم عار الأشعار التي نظمها حسان في هجاء أسرتهم حيث كان أبو سفيان عميد الكفر، وهم بذلك يجمعون ما بين اثنتين: غسل عار مضى ونصر قضية تشد من دعائم حكمهم. وكذلك الحال بالزبيريين والعباسيين الذين استغلوا مكانة حسان في الاسلام وقيمة شعره بين المسلمين، فوضعوا مقطوعات في مدحهم مستغلين اسمي عبد الله بن الزبير والعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم، لإثبات حقهم في الخلافة.

وقد لجأت بعض القبائل إلى الإستكثار من الشعر لتعتاض به عما فقدته بعد أن راجعت الرواية، خاصة تلك القبائل التي قلت وقائعها وأشعارها، وكانت أولها قبيلة قريش التي وضعت على حسان أشعاراً كثيرة على نحو ما ذكره ابن سلام في طبقاته².

2. وجود رواة غير ثقاة برواية الشعر يجهلون موارده ولا يهتمهم من الشاهد إلا الحدث التاريخي سواء أكان صحيحاً أو غير صحيح، خاصة مؤلفي كتب السير والمغازي التي هي أقرب إلى القصص منها إلى التاريخ، حيث تحتل التزييد، بل ويجملها المثل المصنوع والشاهد الملفق، وقد فطن لذلك الرواة، فنهبوا إلى ما فيها من شعر مصنوع منحول .

وقد بين هذا المنحول لحسان بن ثابت صاحب السيرة النبوية ابن هشام، والتي اختصرها من سيرة ابن اسحاق، فبعد أن يأتي ابن هشام على بعض القصائد التي نسبت لحسان أو على أبيات ناقلاً لها عن ابن اسحق، يعقب عليها فيقول: وأهل العلم بالشعر ينكرونها لحسان، وفي موضع آخر يقول: تروى هذه الأبيات لفلان، أي لغير حسان، وكرر هذا القول في غير موضع³. وقد ذكر العلماء عن ابن اسحق قوله: "لا علم لي بالشعر أوتى به فأحمله"⁴.

¹ ينظر: الديوان حيث بين محقق الديوان سيد حنفي الأشعار المنحولة عليه، ص23 وما بعدها .

² ينظر: ابن سلام، الطبقات 1/ 215 ؛ ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي، 378.

³ ينظر: سيرة ابن هشام ، 48\3، 148\3، 163\3، 167\3، 3، 527\3، 244\3، 171\4، وغيرها الكثير من المواضع.

⁴ ابن سلام، الطبقات، 8/1.

ويرفض شوقي ضيف فكرة هبوط المستوى الفني لشعر حسان بن ثابت ويعزو تلك الظاهرة إلى كثرة الوضع والنحل ويرى أن ما يشيع في بعض الأشعار المنسوبة إليه من ركافة وهلهلة ليس من نظمه وإنما هي لشعراء آخرين وصنعت عليه وضعاً.¹ ويذهب سامي مكى العاني مذهبه بقوله: "إن ما وجد في شعره من لين أو ضعف لم يكن في شعره الصحيح، بل هو فيما وضع عليه."²

ويؤكد هذا الرأي قراءتنا لما صح من شعره الإسلامي، فهو لا يكاد يقل جودة عن شعره الجاهلي، ويبدو ذلك بمجرد مقارنة شعره الجاهلي بما صح من شعره الإسلامي.

اختلاط شعره بشعر غيره :

لم يقف الأمر عند وضع الشعر على حسان، بل تعداه باختلاط شعره بشعر غيره من معاصريه أمثال ابنه عبد الرحمن وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، وقد اختلط أيضاً بشعراء آخرين.³

ومن الجدير بالملاحظة أن حسان بن ثابت وكعب بن مالك قد ذهبا في هجاء قريش مذهباً متشابهاً، فنالا من القوم في أحسابهم وأنسابهم وعيراهم بالعجز والجبن، ورميهم بالكفر والضلالة والغواية، مما جعل مجالاً واسعاً للخلط ما بين الشاعرين الإسلاميين، على العكس من عبد الله ابن رواحة الذي امتاز هجاؤه برميهم بالكفر والضلالة من غير أن يتطرق على أحسابهم وأنسابهم إلا أن ذلك لا يمنع اختلاط شعريهما.

ومرد خلط الشعر في تلك الحقبة "تشابه الظروف التي قيلت فيها الأشعار، وتشابه الأفكار التي ملكت الشعراء آنذاك فأوردوها في أشعارهم".⁴ وقد اختلط شعره أيضاً بشعراء مغمورين في تلك الفترة، إذ كان أغلب الشعراء يناقضون قريش ويهاجمونهم، ويتحدثون عن تعاليم الدين الجديد.

ما تقدم يجسد الوضع والخلط في شعر حسان بن ثابت، ولا ريب أن لهما أثراً بالغاً في الحكم على شعر حسان الإسلامي بالضعف والركالة، لأنها اختلطت على الرواة والناقدين، وصعب تمييز الأصيل من الدخيل، وليس لحسان في ذلك ناقة ولا جمل، ولكن ما ثبت له من أشعار تشفع له في تخطي تلك الأزمة، كهمزيته في فتح مكة، وعينيته في عام الوفود، وداليته التي رثى بها،

¹ شوقي ضيف، العصر الإسلامي، 81.

² سامي مكى العاني، الإسلام والشعر، 23.

³ ينظر: مقدمة محقق الديوان، 27.

⁴ ابتسام مرهون، الأمالي في الأدب الإسلامي، 34.

المصطفى صلى الله عليه وسلم، ومراثيه لشهداء المسلمين عامة، والتي نجد فيها صدقاً في العاطفة واندفاعاً في تسخير شعره في سبيل الدعوة الإسلامية.

4. الارتجال:

الارتجال في الشعر الإسلامي كثير، وشعر حسان خاصة يتميز بهذا الطابع " فقد عرف عنه أنه كان يرتجل في كثير من المواقف، وهذا الارتجال قد يبدع فيه حسان أو قد لا يتجاوز منه النظم والرد على المشركين، فمقتضيات الأمر تتطلب منه الوقوف إلى جانب المسلمين والدفاع عنهم إزاء أبيات قيلت فيهم، وقد يصيب فيها حسان في الإجادة الفنية وقد لا يجيد، ولكنه يبقى ملتزماً فيما وجه إليه، مما جعل شعره سلاحاً بناءً يخدم الدعوة والمسلمين".¹

والارتجال من الأسباب التي عزا بعضهم إليه ضعف شعر حسان ولينه لا إلى إسلام حسان وتمثله مضامين جديدة. ويؤكد محمد طاهر درويش ذلك بقوله: "إن أكثر ما أحصيناه عليه من المأخذ يرجع أغلبه إلى الإكثار والارتجال، لا إلى نقص اعترى موهبة الشاعر، وقيام عقبة من روح الإسلام اعترضت طريقه، وهذا الذي يعنينا في تفصيل هذا الموضوع، فليس إسلام حسان وليس الإسلام ذاته، وهذا الذي أدى إلى ما سموه ليناً وضعفاً في شعره الإسلامي، ونسميه ويسميه المنصفون هفوات ومآخذ"². ويضرب الحطيئة مثلاً بقوله: "ولو أن الحطيئة حمل حمله حسان لرقّت جزالته، وتطاحت فخامته، وشابت شوائب نقاء ديباجته، فقد كان كزهير من عبيد الشعر الذين يتأنقون فيه، ويتألقون له، ويصنعون منه الحولي المنقح"³.

وشعر حسان عامة يتصف بقلّة تكلفه وتصنعه في تجويد الرصف وتنقيح اللفظ وتهذيبه، ليس كما يفعل النابغة والأعشى وزهير والحطيئة، فهو يرسل الشعر إرسالاً كما تجود به القريحة مما يفتح مجالاً للطاعن والناقد خاصة في شعره الإسلامي الذي دعت الحاجة لذلك، إذ كانت حاجة المسلمين إليه ملحة قائمة تدعو إلى الإسراع، وتحول دون تدبره والتروي فيه، فشعره انتقل من حال بث الخواطر ولواعج النفس في الجاهلية، إلى حال التأهب والتأريخ للوقائع والدعوة للدين والذود عن الإسلام ونبيه.

¹ ابتسام مرهون، الأمالي، 90.

² محمد طاهر درويش، حسان بن ثابت، 508.

³ محمد طاهر درويش، م، ن، 508.

وإن كنا نعلل الهفوات التي أصابت بعض شعره بالارتجال فليس هذا معناه أننا نرى الضعف واللين فيه، وإنما نرى أن الارتجال سبب في سطحية معاني بعض المقطعات الإسلامية نظراً لطبيعة الموقف وتسارع الأحداث وتواليها، والتي قد تجرح شعر أي شاعر مهما علت طبقة فحولته.

ويبقى شعر حسان مع هذا ذخيرة رائعة من جيد الشعر تصدر بها شعراء الدعوة الإسلامية، فقد كان شاعراً فحلاً مطبوعاً يرسل الشعر حين تدعوه دواعيه إرسالاً، ولعل ارتجاله عينيته التي أنشدها أمام وفد تميم مفاخرها فيها الزبيرقان بن بدر دليل على ذلك إذ شهد له فيها الأقرع بن حابس بقوله: "الشاعره أشعر من شاعرنا " فآل الحال إلى إسلام الوفد ".¹

ويذهب حبيب مغنية هذا المذهب بقوله: "إن طبيعة الدور الإعلامي الذي أنيط بشعراء العصر الإسلامي اقتضى منهم سهولة الأداء وتقريرية المعاني، فقد كان عليهم أن يواكبوا في شعرهم الدعوة الإسلامية في تطوراتها المتلاحقة وأحداثها المتسارعة، هذه المواكبة المتصلة لم تكن لتفسح لهم مجالاً كافياً للتأمل والتأني والصبر على أنفسهم وعلى تجويد شعرهم ".²

تلك هي الأسباب والدواعي التي دعت النقاد القدامى يطلقون هذا الحكم على شعر حسان الإسلامي، والتي يشركون حسان فيها مع بعض الشعراء ويخصونه بأخرى، ولكن رغم كل ذلك يبقى حسان الشاعر الأول الفذ الذي حاول أن (يوّسلم الشعر)، وينقله من طور إلى طور ونال به شرف شاعر النبوة المؤيد بروح القدس.

ولابد لنا أمام شاعر الدعوة أن نعيد النظر في دراسة شعره وتقويمه من جديد من منطلق إسلامي بحت، لأن ذلك الشعر كان باعته ودافعه الروح الإسلامية، كما يحدث في تقويم أدب أمة من الأمم إذ يقوم من منطلق تلك الأمة وأحوالها وعاداتها ومبادئها ومعتقداتها وقيمتها، كما تم في تقييم الشعر الجاهلي.

وخير ما نعزو إليه تلك التهم التي لصقت بشعر حسان ما خلص إليه سامي العاني بقوله: "بطلان دعوى ضعف ذلك الشعر، وما أستند إليه الباحثون يرجع إلى قلة اطلاعهم على النصوص الشعرية أو تقليد مقالة الأقدمين"³.

¹ ابن هشام، السيرة النبوية، 1814.

² حبيب مغنية، الأدب العربي من ظهور الإسلام نهاية العصر الأموي، 117.

³ سامي العاني، الإسلام والشعر، 27.

المبحث الثاني: علاقة الشعر بالخير والشر

أولاً: موقف الإسلام من الشعر

طال وقوف كثير من الباحثين حول موقف الإسلام من الشعر، بل وعد ذلك الموقف أساساً لكثير من القضايا النقدية التي تناولت تلك المرحلة، منها قضية ضعف الشعر في صدر الإسلام وهبوط مستواه الفني، وقضية قلة حجم الشعر في تلك المرحلة إذا ما قيس بحجمه في الفترة السابقة له أو اللاحقة به. وكذلك قضايا ذات صلة بالاتجاه الأخلاقي والمثالي، وعلاقته بالقيم الجمالية والفنية في الشعر وأثرها فيه.

وحقيقة الأمر، أن موقف الإسلام من الشعر لا يتطلب وقفة طويلة متأنية، فموقفه واضح وصريح، ومجال البحث فيه يكمن فيما ورد في القرآن الكريم من مواضع ذكرت الشعر والشعراء، وفيما روي عن المصطفى صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن من قول أو فعل، وفيما أثر عن الصحابة الأوائل من رأي وتوجيهات.

أشار القرآن الكريم إلى الشعراء في خمس آيات كريمات، وأشار إلى الشعر في آية واحدة، وهذه الإشارات الست لم تقصد لذاتها، وإنما قصد منها تفنيد افتراءات الكفار من قريش على القرآن الكريم وعلى النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، بأنه شاعر أو ساحر أو كاهن خاصة وأنه علق في أذهان العرب قرن الشعر بالشیطنة والسحر والشر. فهذه الآيات لا تعدو كونها إقراراً لواقع القرآن، وتأكيداً لذاته ومصدره الإلهي.

ومن الآيات ما نزل في شعراء بعينهم، وكانوا يهجون النبي صلى الله عليه وسلم، ويعادون رسالته، فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه أن آيات الشعراء: [وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ].¹ قد نزلت في شعراء المشركين عبد الله بن الزبير، وهبيرة بن وهب، ومسافح بن عبد مناف، وأبو عزة الجمحي، وأميمة بن أبي الصلت. قالوا: نحن نقول مثل قول محمد، وكانوا يهجونه، ويجتمع إليهم الأعراب من قومهم. ويستمعون أشعارهم وأهاجيهم، وهم الغاوون الذين يتبعونهم.²

¹ سورة الشعراء، 224/26-227.

² الألويسي، روح المعاني، 220/11؛ وينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 141/13.

وعلى هذا تكون الآيات نزلت في رهط بعينهم، وليس المراد فيها الشعر ذاته، أو الشعراء كافة. يقول أبو هلال العسكري في شأن الآيات ذاتها: "واستثناء الله عز وجل الشعراء، يدل على أن المذموم من الشعر إما هو المعدول من جهة الصواب إلى الخطأ، والمصروف من جهة الإنصاف والعدل إلى جهة الظلم والجور، وإذا ارتفعت هذه الصفات ارتفع الذم، فلو كان الذم لازماً لكونه شعراً لما جاز أن يزول على حال من الأحوال".¹

أما الآيات الأربع الباقية والتي ورد فيها لفظ (الشاعر) فإن الهدف منها هو نفي صفة الشاعرية عن النبي الكريم. فقد جاء في قوله تعالى: [بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ].² وقوله عز وجل: [وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ]³ وقوله: [أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ]⁴ وقوله: [وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ]⁵.

وبذلك يكون القرآن الكريم قد فند كثيراً من مزاعم المشركين، وأبطل دعواهم، وأكد على أن ما جاء على لسان النبي بعيد كل البعد عن الشعر، ويوضح عبد القادر القط ذلك بجلاء إذ يرى أنه ليس من العسير تأكيد القول بأن الرسول ليس شاعراً في القرآن الكريم، إذ من المعروف أن العرب كانوا يظنون بعقول الشعراء الظنون، ويعتقدون أن بهم مساً من الجن أو من بعض الشياطين يوحون إليهم ما يجري على ألسنتهم، وأن هذه الحقائق لو لصقت بالنبي الكريم لناقضت معنى الرسالة خاصة وأن كثيراً من الشعراء قد عرفوا بمسلك خلقي يتسم بكثير من الإسراف في اللهو والإقبال على الملهيات من خمر وميسر وغير ذلك. ووصف الرسول صلى الله عليه وسلم بالشاعرية يلقي عليه ظلالاً من هذه الأشياء، ونفي الشاعرية عنه أمر تفرضه المعاني السامية التي جاء بها الدين الحنيف.⁶

وقد ورد لفظ الشعر في موضع واحد وهو قوله تعالى: [وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ]⁷ وبذلك يتضح أن القرآن لم يصدر حكماً بعينه على الشعر وإنما أراد أن يوضح أن رسالة القرآن ليست كرسالة الشعراء بل هو ذكر وقرآن مبين.

¹ أبو هلال العسكري، الصناعتين، 132.

² سورة الأنبياء، 21/ 5.

³ سورة الصافات، 37/ 36.

⁴ سورة الطور، 52/ 30.

⁵ سورة الحاقة، 69/ 41.

⁶ عبد القادر القط، في الشعر الإسلامي والأموي، 11.

⁷ سورة يس، 69/36.

فموقف الإسلام من الشعر موقف واضح وثابت وموحد، لا لبس فيه ولا غموض. فالإسلام لم يحرم الشعر بجميع اتجاهاته، ولا يجرم الشعراء كافة، إنما وجه الشعر الوجهة الصحيحة، ونقده النقدة الحسنة التي تبين جيده من رديئه، وحصر إدانته بالشعراء الذين يصدون عن سبيل الله، ويعادون الخير والحق والدين، ويفسدون في الأرض بما يلحقونه من أذى وضرر بالأعراض والأنساب من هجاء مقذع وتناول على الدين وأهله، وتسخيرهم شعرهم لدعم قوى الشر والظلم، وصراحتهم في خلواتهم المريية التي يصورونها ويشيدون بها، وإثارتهم للضغائن والأحقاد والعصبيات. أما غير هؤلاء الشعراء الذين جاءوا بعد الاستثناء في الآية الكريمة،¹ وهم الذين آمنوا وعملوا صالحاً وذكروا الله كثيراً، وانتصروا من بعد ما ظلموا وذادوا عن الدين وقيمه ومثله وتعاليمه وقد توافرت في شعرهم مقاييس الحق والخير فقد حازوا رضى الله ورضى نبيه فأثيبوا بشعرهم فقضى لهم بالجنة، كما حدث مع حسان بن ثابت رضى الله عنه حينما أنشد منافحاً عن النبي صلى الله عليهم وسلم.

وعلى هذا فالشعر عنده صلى الله عليه وسلم نوعان: نوع يوافق الحق، ويلتزم النهج القويم، فينأى عن الإسفاف والعبث، ويهجر السب والشتم والقذف والنيل من الأعراض، ويتمثل القيم والمبادئ الإسلامية السمحة، فهذا ضرب لا ريب فيه. ونوع لا يوافق الحق، لما فيه من إفراط في المدح والهجاء، ويعظم به الحقير، ويرفع به الوضيع، ويحط من شأن العظيم، وفيه مراء وتزويد وتكلف.

فالشعر من وجهة النظر الإسلامية كلام حسنه حسن، وقبيحه قبيح، فقد سمعه النبي صلى الله عليهم وسلم، واستنشدته وأمر به حسان بن ثابت في الرد على المشركين، وأنشده أصحابه رضوان الله عليهم في حضرته، وأنشده الخلفاء من بعده وأئمة الصحابة وفضلاء السلف، ولم ينكره أحد منهم، وإنما أنكروا الفاحش والمذموم.

ويرى الشوكاني وهو بصدد تفسير آيات الشعراء، وأن الشعر قد يصل إلى درجة الحرام، وقد يصل إلى درجة الواجب يقول: "واعلم أن الشعر في نفسه ينقسم إلى أقسام: فقد يبلغ ما لا خير فيه إلى قسم الحرام، وقد يبلغ ما فيه الخير إلى قسم الواجب"² ويقول فيها أيضاً: "الانتصار للحق بالشعر، وتزييف الباطل به من أعظم المجاهدة، وفاعله من المجاهدين في سبيل الله، المنتصرين لدينه، القائمين بما أمر الله القيام به"³

¹ سورة الشعراء، 226/26، 227.

² الشوكاني، فتح القدير 171/4.

³ الشوكاني، م، ن، 171/4

وقد استجاب النبي صلى الله عليه وسلم للنوع الأول وهو الشعر الموجه نحو الخير، فعفا بالشعر الصادق عن كثيرين أمثال كعب بن زهير الذي جاء معتذراً تائباً مؤمناً وأنشده بردته الرائعة، وعفا عن عبد الله بن الزبيري الذي اعتذر عما بدر منه من عداة للإسلام. وقد تأثر بشعر الشاعر قتيلة بن الحارث حين رثت أباها الذي قُتِلَ مشركاً، لما في شعرها من المعاني الإنسانية والصدق العاطفي .

ومن مواقفه صلى الله عليه وسلم تجاه الشعر وتأبيده له أنه استنهض همة الشعراء المسلمين للدفاع عن الإسلام وأهله حين رأى شعراء المشركين يذيعون أشعارهم في الصد عن سبيل الله والنيل من المسلمين، فقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: [اهجوا قريشاً، فإنه أشد عليها من رشق بالنبل]، فقال حسان: والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فري الأديم.¹

ولعل في اختياره صلى الله عليه وسلم لحسان دون غيره من الشعراء إقراراً منه لشاعريته، ودليلاً على حرصه صلى الله عليه وسلم على أن يؤدي شعر المسلمين غايته على الوجه الأتم في نصره الدعوة وفي إحباط عتو المشركين ودحض افتراءاتهم، فهو صلى الله عليه وسلم ينتخب الشاعر الفحل والشعر المتين ليكون شافياً مؤدياً رسالته، فقد قال عن حسان بن ثابت رضي الله عنه، لقد [شفي واستشفى]².

وتنقل إلينا المصادر التاريخية والدينية والأدبية أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسمع الشعر ويتمثل به ويبدي رأيه فيه، فقد استحسّن الحِكم في شعر أمية بن أبي الصلت على الرغم من شدة معاداته للنبي صلى الله عليه وسلم وللدعوة الإسلامية، حتى قال صلى الله عليه وسلم فيه: [فلقد كاد أن يسلم في شعره]³. وكذلك استحسّن قول لبيد:

[الطويل]

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محال زائل

ووصفه بأنه: [أشعر كلمة تكلمت بها العرب كلمة لبيد]⁴. وقد بلغ من احتفاء الرسول صلى الله عليه وسلم بشعر حسان بن ثابت أن نصب له منبراً في المسجد.

¹ صحيح مسلم، حديث رقم: (6345) .

² صحيح مسلم، حديث رقم: (6345) .

³ صحيح مسلم، حديث رقم: (5847) .

⁴ صحيح مسلم، حديث رقم: (5848) .

وكان صلى الله عليه وسلم يتساهل فيما يرد من الشعر الذي يتضمن الغزل الذي يخلو من الفحش والتشبيه الصريح كما جاء في بردة كعب بن زهير، إذ شبه ريق محبوبته بالخمرة "فسمع الرسول ذلك ولم ينكره، وقد عرف عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان ذا حس مرهف، وعقل حصيف، ومملكة نقدية فذة، فإذا ما نقد شاعراً جاء نقده غاية في الحكمة والصواب".¹

كان للرسول صلى الله عليه وسلم أسلوبان مؤتلفان في التصدي للنوع الثاني من الشعر الذي لا يوافق الحق خاصة شعر المشركين، وذلك لمنع روايته وانتشاره، وهذان الأسلوبان هما: إهدار دم شعراء المشركين، والنهي عن رواية بعض القصائد.

فقد أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دم بعض شعراء المشركين جزاء لما نظموه من هجاء له صلى الله عليه وسلم، ومن تحريض على الدعوة الإسلامية، ومن الذين أهدر دمهم ونفذ فيهم حكم القتل كعب بن الأشرف اليهودي²، الذي قدم مكة وجعل يحرض على رسول الله ويؤلب المشركين ضد الدعوة، وينشد الأشعار، ويبكي أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدر، ثم رجع إلى المدينة وشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم. فقال صلى الله عليه وسلم: [من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله، فقال محمد بن مسلمة: أتحب أن أقتله؟ قال: "نعم" ... فقتله].³ ولحسان أبيات في ذلك.⁴

وكذلك أبو عزة الجمحي الذي أسر يوم بدر كافراً، فطلب من الرسول أن يمنّ عليه بإطلاق سراحه، فقال له المصطفى صلى الله عليه وسلم: [على أن لا تعين عليّ... يريد شعره، فقال: نعم، فعاهده وأطلقه، فلما كان يوم أحد خرج في بني كنانة فحرضهم ثم وقع في الأسر، فقال صلى الله عليه وسلم: لا يوسع المؤمن من جحر مرتين، فقتله].⁵ فاستحق بذلك ما حل به لمناقضته الأعراف والقيم.

¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 146/13.

² كعب بن الأشرف (ت3هـ)، شاعر جاهلي، كانت أمه من بني النضير فاعتنق اليهودية، كان من سادة قومه، يقيم في حصن له بالقرب من المدينة يبيع فيه التمر والماء، أدرك الإسلام ولم يسلم، أكثر من هجو النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وحرّض على قتالهم، ينظر: الزركلي، الأعلام، 225/5.

³ ورد الخبر في صحيح مسلم، حديث رقم: (4640)، وورد الخبر كاملاً عند ان هشام، السيرة النبوية، 47/3.

⁴ ينظر: حسان، الديوان، 306-307.

⁵ صحيح مسلم، حديث رقم: (7423).

ومنهم أبو عفك اليهودي¹، وعصماء بنت مروان². وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة بقتل نفر من المشركين وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، لردتهم عن الإسلام وهجائهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم لدعوته، منهم عبد الله بن حظل وقينتاه اللتان كانتا تغنيان لهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقتلت إحداهما، وفرت الأخرى³. وهذا العقاب الذي حل بهم أجمعين خير دليل على أن الشعر الذي لا يوافق الحق ولا يتماشى معه باطل، لا سيما الشعر الذي يعادي الدعوة ويناهاها ويتعرض لأصولها وعقائدها.

ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن رواية بعض القصائد، فيما يتعلق بالصرع بين قريش والمسلمين بشكل مباشر، ومنها ما كان تعلقه به غير مباشر من حيث مقتضيات الكفر ولوازم الإيمان، ومنها ما نهى عن روايته لإثارته الضغائن والأحقاد. فقد روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه نهى حسان بن ثابت عن رواية قصيدة الأعشى في هجاء علقمة بن علانة⁴، وكما نهى عن رواية قصيدة أمية بن أبي الصلت التي يحرض بها قريشاً بعد معركة بدر على قتال المسلمين⁵.

وقد اتخذ المصطفى الشعر أداة لإصلاح المجتمع، وخدمة العقيدة وهو ما نطلق عليه اليوم مصطلح (الالتزام)⁶، إذ لا بد للشعراء أن يوجهوا أغراضهم الشعرية نحو مبادئ الدين الجديد، وأن يطرحوا منها ما لا يتناسب وتعاليمه، ومن أبرز الأغراض التي ابتعد عنها الشعراء المسلمون الغزل الماجن، والخمريات، والهجاء المقذع الفاحش.

ومع هذا ظل الشعر في تلك الحقبة يصور حياة الناس ويستوعب همومهم، ويعبر عما يجيش في صدورهم، ويسير جنباً إلى جنب مع مجريات الأحداث ومستجدات الأمور، إذ حمل في منطلقاته الأساسية عمق العداوة الدينية من قريش ومن عاضدها من القبائل وبين المسلمين مهاجرين وأنصار، ثم ما فتئ أن جرى في محاور اجتماعية، وقبلية، وخلقية.

¹ ينظر: ابن هشام، السيرة، 251/4.

² ينظر: ابن هشام، م.ن، 251/4، وقد أجابها حسان بن ثابت بأبيات وردت في السيرة ص252/4 ولم ترد في الديوان .

³ ينظر: ابن هشام، م.ن، 44/4 وما بعدها.

⁴ العسقلاني، الإصابة، 545/4.

⁵ الأصفهاني، الأغاني 126/4، . وإن كانت رواية هذه القضية مدار أخذ ورد عند الباحثين، ينظر سامي مكي العاني، الإسلام والشعر 71؛ يحيى الجبوري، خصائص شعر المخضرمين 50، حيث يرى البعض أن هذا النهي كان أيضاً يزول بزوال المحذور فيه.

⁶ الإلتزام: اعتبار الكاتب فنه وسيلة لخدمة فكرة معينة عن الإنسان، لا مجرد تسلية غرضها الوحيد المتعة والجمال. مجدي وهبة، معجم المصطلحات الأدبية، 79.

وهكذا يكون النبي الكريم صلى الله عليه وسلم قد وظف الشعر في نصرته الدين وتمام الأخلاق وإعلاء شأن الفضيلة والخير والحق، فالهجاء الذي أيده النبي صلى الله عليه وسلم هو الهجاء الموجه نحو المشركين، والذي يهدف إلى نزع الشرك من النفوس وبطلان الدعاوى والافتراءات الباطلة. وكذلك الفخر الذي طرب إليه المصطفى هو الفخر الذي يتمحور حول الإسلام وبشيد بتعاليمه وعقائده ونبيه، وكذلك حال المديح الذي اهتز له خافقه صلى الله عليه وسلم كان المديح الذي لا يجاوز الحقيقة، ولا يعاقل في القول.

وقد أدرك هذه الحقائق خلفاؤه من بعده رضوان الله عليهم، فساروا على منهجه، خاصة عمر ابن الخطاب الذي كانت له نقداً أدبية تنم عن ناقد حصيف متمرس، ذو نظرة ثاقبة في الشعر، وخبرة واسعة في محاسن القول والنظم. ونقده هذا قد تناول أقدار الشعراء وطرائقهم في التعبير ومقاصدهم في القول. فأشعر الشعراء عنده زهير بن أبي سلمى فهو لا يعاقل في الكلام ولا يتبع حوشيه ولا يمدح الرجل إلا بما فيه¹. وبعد قوله هذا النواة الأولى لمصطلح الصدق الفني الذي عرف فيما بعد. وبالمقابل كان رضي الله عنه شديداً مع الشعراء الذين يخرجون عن جادة الحق كموقفه مع الحطيئة²، وموقفه مع حسان حينما كان ينشد شعراً في المسجد في هجاء قريش أيام الشرك، فلحظ إليه، فقال حسان: قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك³. وقد يكون رد حسان صحيحاً ولكن أراد عمر من ذلك أن لا تروى الأشعار التي تذكر الأعراض وتثير كوامن الأحقاد بعد أن من الله على الناس بالإسلام فدخلوا فيه أفواجاً.

وقد بقي الحال كذلك حتى عصر معاوية بن أبي سفيان الذي حط من قدر الأعراض الشعرية التي تهدم الأخلاق وتؤول بالمجتمع إلى درك سحيق، كالتشبيب، والهجاء المقذع، والتكسب، فقد جاء في العقد الفريد أنه قال لعبد الرحمن بن الحكم: "يا ابن أخي إنك شهرت بالشعر، فأياك والتشبيب بالنساء، فإنك تعر الشريفة في قومها، والعفيفة في نفسها، والهجاء فإنك لا تعدو أن تعادي كريماً أو تستنير به لئيماً، ولكن افخر بماثر قومك، وقل من الأمثال ما توقر به نفسك، وتؤدب به غيرك."⁴

نخلص من هذا كله إلى أن موقف الإسلام من الشعر كان رهناً بالشعراء أنفسهم، فهو لم يمسه كفن من الفنون، ولم يحكم عليه من حيث هو شعر. إنما هو أداة، فما وافق منه الخير شرعه

¹ ابن رشيقي، العمدة، 209/1.

² الأصفهاني، الأغاني، 177/2.

³ صحيح مسلم، حديث رقم: (6334).

⁴ ابن عبد ربه، العقد الفريد، 130/6.

وأباحه وحث عليه، وما لم يوافق الخير نبذه ودعا إلى تجنبه، بل وحرمه في أحيان كثيرة. فالشعر في الإسلام فن من الفنون التي يجب أن يسخر لخدمة المجتمع والخير والصلاح، وأن يرسى قيم الدين الجديد ويثبت الموروث من الفضائل والمكارم.

فأصبح الشعر بذلك في صدر الإسلام فناً من الفنون الهادفة لا العابثة، وتحول بفضل إرشادات النبي صلى الله عليه وسلم ونفذه من معول لهدم الأخلاق - أحياناً - إلى أداة فعالة في حث الناس على الفضائل والمكارم.

ثانياً: ثنائية الخير والشر عند حسان بن ثابت:

ليس هناك أدنى شك في أن الحياة العربية قبل الإسلام كانت مغلقة بكثير من وجوه القتامة والظلام، ولكن في الوقت ذاته كان هناك ملامح أصيلة وضياء من المكارم والمحامد والخلال الطيبة التي تخلقها العربي وتحلى بها. فهو لم يعدم القيم الأصيلة المتوارثة والممتدة في أصوله وجذوره كالشجاعة والنجدة والكرم والنصرة وحفظ الجوار، والتي لم تعرفها أمة من الأمم ولا شعب من الشعوب.

تعد الحياة الجاهلية حالة مثلى لفهم قضية الصراع ما بين النقيضين - الخير والشر - لأن المجتمع الجاهلي كان قائماً على مجموعة من القيم الفطرية التي تحكمها الأعراف والتقاليد المتوارثة والتي لا تعرف ديناً يهدي العقل ويغذي السلوك. وإنما كانت تحتكم إلى العصبية القبلية وما تفرضه عليهم من اعتقاد وسلوك، ولا يحق لأي فرد من أفرادها الخروج على هذه العادات والتقاليد أو التمرد عليها، وإلا كان العقاب هو الخلع. وكان من هذه الأخلاقيات الحاكمة للمجتمع الجاهلي ما هو إيجابي وما هو سلبي، اتبعه العربي وحرص عليه لأنه وجد آباءه عليه عاكفين.

وعند مجيء الإسلام، كان جهد النبي صلى الله عليه وسلم أن يفرغ النفس البشرية من نوازع الشر، ويملاها بنوازع الخير، ليعتدل الميزان الأخلاقي عند الأمة الإسلامية. ونحن هنا لا نعدم المجتمع الجاهلي كل فضيلة وخلق حسن، ولكن الإسلام هذب تلك الخلال وصقلها، فصنع من الإنسان العربي كائناً حضارياً يتسلح بالإيمان والحق والخير، إضافة إلى تلك الخلال الحميدة المتوارثة سالفاً عن سالف، لهذا قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: [إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق].¹

¹ الإمام البخاري، الأدب المفرد، حديث رقم: (237).

وقد شمل التوجيه الإسلامي مناحي الحياة المختلفة فقلبها رأساً على عقب، ومنها الشعر الذي صنع له مذهباً جديداً يقوم على الخلط ما بين القديم المتوارث والجديد المبتدع. ولم يتركه يخضع لنزوات الشاعر وميوله وهيجان نفسه وهيامها مما قد يضعف سلطان العقل على العقول فينقاد الشاعر في نظمه وراء نزوات نفسه ورغبات عصبية القبلية، مجاناً للحق مجافياً للصواب في أحيان كثيرة، فالشجاعة مثلاً قيمة أصيلة وخلق محمود، ولكنها كانت في الجاهلية تخرج أحياناً عن نطاق المعقول قولاً وفعلاً لتصل إلى حد التجاوز والطيش كما دلت عليه كثير من القصص والأخبار والأشعار، ولكن الإسلام انتحى بها منحى آخر واتجاهاً جديداً إذ جعلها ضمن اللائق والمعقول والحق والصواب. ومنه قول حسان بن ثابت حول الشجاعة الأدبية:¹

[البسيط]

يا أيُّها النَّاسُ أبَدُوا ذاتَ أنفُسِكُمْ لا يَسْتَوِي الصِّدْقُ عِنْدَ اللَّهِ وَالكَذِبُ

أخضع الإسلام الموقف الجمالي تبعاً للموقف الديني ليجسد مبدأ الأخلاق والقيم، فذم الشعراء الكذابين المنافقين المرثيين الذين يهيمون في كل واد. وامتدح الشعراء الصادقين المنتصرين للحق، وجعل منهم دستور الشعر وقانونه. وواضعي أسسه الأولى في تلك المرحلة الجديدة، مرحلة الالتزام والصدق الفني، ليضيف إلى سلم الأخلاقيات المتوارثة قيماً جديدة.

ومع هذا التحول الذي أحدثه الإسلام، قام الجدل قديماً وحديثاً حول ثنائية الخير والشر في الشعر، خاصة بعد مقالة الأصمعي لأن فيها نفيّاً لارتباط صلاح الأدب بصلاح الأخلاق، فدافع بعضهم عنها ورأوا فيها تصويراً دقيقاً للقيم الجمالية في الشعر، وثار أصحاب الاتجاه المثالي ضدها.² وقد جعل من حسان بن ثابت مثلاً صريحاً على ذلك.

ويرد محمد ظاهر درويش على مقالة الأصمعي بقوله: "فمن الذي يقول بأن الشعر نكد، وأنه لا يقوى إلا في الشر، وأن دخوله في باب الخير يؤدي به حتماً إلى الليونة والضعف... فإنما مردّ قوة الشعر وضعفه إلى طبيعة الشاعر وأصالة مواهبه أو سطحيته، وإلى صدق عاطفته أو كذبها، وقوة انفعاله النفسي أو ضعفه، وكما تتفعل النفوس بعوامل الشر تتفعل بدوافع الخير أقصى درجاته فيرتفع شعرها فيه إلى أسمى ذرواته"³ ثم يضرب محمد ظاهر درويش أمثلة على دوافع الخير وأبوابه التي تسمو بالشعر وترتقي به، ولا يفقد معها قوته، بل تضيف عليه جزالة وجمالاً وعبقريّة،

¹ حسان، الديوان، 212.

² وإن عدّ الأصمعي رجل دين وأخلاق إلا أنه كان له رأي في ارتباط الدين بالأخلاق.

³ محمد ظاهر درويش، حسان بن ثابت، 506.

فيقول: "فقد يقول شاعر في حب الذات القدسية ووصف الروح الإلهية ما لا يقوله آخر في الكواعب الحسان، أو خمر بيسان. وكذلك ما نجده في حجازيات الشريف الرضي والتي هي من خير شعره، ونجده في أشعار المسلمين في الحث على الجهاد والترغيب في الاستشهاد، أو في شعر التواجد الصوفي"¹، ثم يضرب مثلاً لشعر البوصيري الذي شعره في باب الشر من الرذل السفاسف، فإذا مدح الرسول جاء بما أعجز السابقين واللاحقين، وبروائع شعر شوقي في مدح الرسول، وبكاء مجد العروبة وحضارة الإسلام في الأندلس والشام، وما صاغه من الحكم والأخلاق، فإنها من عيون شعره وخوالده، وما لأبي تمام وابن الرومي من الرثاء ما لا نظير له.

والغاية من الأدب أن يسهم في إشباع حاجة الإنسان إلى الرقي إلى عالم أسمى، فالإنسان الذي تلتقي فيه المادة والروح لا يستقيم كيانه ولا تطيب حياته إلا إذا تعادل فيه هذان العنصران، وسكينة النفس واستقرارها تتمثلان في تهذيبها وصقلها والارتقاء بها إلى جو يعبق بالفضيلة والخير والصلاح. وإهمال هذا الجانب الروحي في أدب أمة من الأمم معناه هدم لصرح بنيانها، وتقويض لحضارتها، وإيذان لمسيرها نحو الفناء.

ويرى وهب رومية أن وظيفة الشعر الاجتماعية أو رسالته لا تعني معايير الجمالية دوماً، إذ "لا يفترض في الشعر أن يمضي إلى الأجل والأكثر فنية باستمرار، بل يفترض فيه أن يعبر باستمرار عن الحياة حوله، أو عن الناهضين فيها خاصة، وليس التعبير عن الحياة هو معيار الفنية الوحيد، وهذا يعني أن على الشاعر أن يختلف عن أسلافه دائماً، ولكن ذلك لا يعني أن عليه أن يكتب على وجه اللزوم والحتمية شعراً أكثر فنية وأجمل، ولو كان الأمر كذلك لجب حديث الشعر قديمه، وليس الحال كذلك كما يعرف"²

ليس على الشاعر دوماً أن يسير على منوال سابقه حتى ينال (وسام الفنية)، فغاية الشعر أسمى وأعظم، وليست أن يتفوق الشاعر على نفسه ويحيا في أوهام الماضي وأساليبه ويعزل نفسه عن قضايا عصره ومستجداته، بل مهمته أن يوصل رسالته بالطريقة الفنية الصحيحة، وقد جمع حسان ابن ثابت ما بين الأمرين، إذ له من القصائد الجياد الشيء الكثير، والتي جمع فيها ما بين رسالته الإنسانية والإسلامية في التعبير عن جماعته والتزامه بالدفاع عنها.

¹ محمد طاهر درويش، م.ن، 506.

² وهب رومية، قصيدة المدح، 271.

فمن روائع شعره الأخلاقي الذي يجمع ما بين القيم الجمالية والقيم الإنسانية، والذي يتحدث فيه عن الأخلاق صراحة، ويرى أن نعم الرجل هو ذاك الذي يحافظ على العهود والمواثيق، ولا يكون إمعة يميل حيث الريح تميل، ويكره البخل الذي يلحق العار بصاحبه فيقول¹:

[الطويل]

لَكَ الْخَيْرُ غَضِّي اللَّوْمَ عَنِّي فَإِنِّي
أَلَمْ تَعْلَمِي أَنِّي أَرَى الْبُخْلَ سُبَّةً
أُحِبُّ مِنَ الْأَخْلَاقِ مَا كَانَ أَجْمَلًا
وَأُبْغِضُ ذَا الْأَوْنَيْنِ وَالْمُتَنَقَّلًا
إِذَا انصرفتْ نَفْسِي عَنِ الشَّيْءِ مَرَّةً
فَلَسْتُ إِلَيْهِ آخِرَ الدَّهْرِ مُقْبِلًا

وقوله في حقيقة الشعر:²

[البسيط]

وَإِنَّمَا الشُّعْرُ لُبُّ الْمَرْءِ يَعْرِضُهُ
وَإِنَّ أَشْعَرَ بَيْتٍ أَنْتَ قَائِلُهُ
عَلَى الْمَجَالِسِ إِنْ كَيْسًا وَإِنْ حُمْقًا
بَيْتٌ يَقَالُ إِذَا أَنْشَدْتَهُ صَدَقًا

كأن حسان في هذا البيت وضع معايير الخير والشر في الشعر، فالصدق الفني هو معيار الشاعرية عنده. وفي ذلك يقول محمد سعيد فشان: "ومن منطلق الخيرية حرص الإسلام على أن يكون للفن رسالة يؤديها للجميع، ومن هنا غير بعض الشعراء فنون الشعر بعد أن أصبح موقف الإسلام منه واضحاً، فقد أصبح مقياس الشعر الإسلامي هو موافقته للحق، والحق في شعر صدر الإسلام قريب مما نطلق عليه (الصدق الفني) في النقد الحديث، فقد حدد النبي صلى الله عليه وسلم هذا المقياس في بعض أحاديثه الشريفة"³.

فالأمر إذن: ذلك الفن الإسلامي الموجه الذي يتناسب مع مقياس الدعوة الإسلامية الجديدة، ولهذا بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم يشرف بنفسه على توجيه مسيرة الفن الشعري، ويأخذ بيد الشعراء ليضبط مسيرة التحول عندهم؛ حتى يولد فن شعري إسلامي خالص من التلوث وأدران الجاهلية، فينصرف الشعراء والمتلقون عن الشعر الذي لا يتفق مع الفضائل النفسية، ويعين على الرذائل الخلقية من لهو وعبث وتهكم، كما في شعر امرئ القيس الذي وصفه النبي صلى الله عليه وسلم بأنه [صاحب لواء الشعراء إلى النار]⁴ أو في دحضه للشعر الذي يناهض الدين ويعارضه،

¹ حسان، الديوان، 271-272.

² حسان، م، ن، 277.

³ محمد سعيد فشان، الدين والأخلاق في الشعر، 103.

⁴ مسند الإمام أحمد، حديث رقم: (7127).

والشعر الذي يذكي العصبية القبلية ويشد من عضدها، ويثير الضغائن الكامنة. بينما جوانب الخير في الشعر الإسلامي هي ذلك الضرب الشعري الموافق للخير والحق والجمال، والتي يتدرج ضمنها كل شعر يدعو للمثل العليا، بما في ذلك شعر ما قبل الإسلام وفيه موافقة للخير والحق بمفهومها العام. ليكون الشعر بذلك أداة لصالح المجتمع وخدمة العقيدة.

يجمع الفن الإسلامي ما بين الصدق الشعوري والصدق الفني، في حين يجمع الشعر الجاهلي ما بين الجزالة وقوة المعنى، ويقع في ألوان من المبالغة والتحويل والغموض وتزوير الحقائق والمشاعر، فظن بذلك الرواة أن ما حدث في الشعر الإسلامي نوع من أنواع اللين والضعف والهبوط لأنهم حكموا عليه وفق ما ألفوه. ويؤكد هذا القول عباس المناصرة فيقول: "لقد كان شعراء الجاهلية يفصلون من الأثواب الأسلوبية والفنية والبلاغية ما يزيد عن حاجة الصدق الفني الحقيقية، ويصل الأمر أحياناً بالشاعر أمام غياب ضوابط العقيدة السليمة وربط التعبير بالمصالح والأهواء إلى حد المبالغة والتضخيم والكذب، فيقلب الهجاء مسخاً، والمدح كذباً، وهذا هو الوصف الذي وصف به القرآن شعراء الجاهلية.¹

ويبيدي رأيه حول صدق شعر حسان بن ثابت: "حسان بن ثابت رضي الله عنه فارس شعراء الإسلام الذي خلص الشعر من جموح الخيال، وأوجد الخيال المنضبط بأوامر الشرع الحنيف، وبقدر الحاجة التي تفرضها الدفقة الشعورية، وحارب الخيال المريض الذي يقع في التحويل والمبالغة، فجاء شعر الإسلام سلساً عذباً واضحاً، لا غموض فيه ولا انحراف عن الوظيفة".²

وأرى أن خروج حسان عن النص التقليدي للقصيدة الجاهلية بمضمونها وشكلها لا يعد ضعفاً، فتورة الصعاليك في العصر الجاهلي كانت ثورة عارمة ساخطة على تقاليد المجتمع وعرفه السائد، وشعورهم يعكس هذه الثورة، والذي انتهجوا فيه نمطاً فنياً مغايراً للبناء الفني التقليدي للقصيدة الجاهلية من حيث المضمون والهيكلية، فهو في مضمونه شعر مغامرات وشعر حرب وكر وفر وغزو وإغارة وسلب ونهب، ثم ينتهج الشاعر الصعلوك لهذا المضمون هيكلية خاصة من حيث: الوحدة الموضوعية والتخلص من المقدمة الطللية، وعدم الحرص على التصريح والتحلل من الشخصية القبلية، وتتميز أيضاً بالواقعية والسرعة الفنية والنزعة العصبية،³ ورغم هذا فإن موروثنا الأدبي يحمل أروع القصائد الصعلوكية، والتي عدت من روائع الشعر العربي، وخروج حسان بن ثابت عن مألوفه وعرفه السائد شكلاً ومضموناً لا يعد عيباً أو ضعفاً أو ليناً إنما هو أمر بديهي

¹ عباس المناصرة، مقدمة في نظرية الشعر الإسلامي، 128.

² عباس المناصرة، م.ن، 128.

³ ينظر: يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، 259-319.

يتطلبه الموقف. فلا يمكن للشاعر أن يضع شعره في قوالب جامدة بمنأى عن التغيير والتبديل، فالشعر في حقيقته ترجمة للحياة ومجرباتها، وهو ديوان العرب، يؤرخ الأحداث الجلييلة الجسم، وقد أحسن حسان بن ثابت حين صبغ شعره، بالصبغة الإسلامية الجديدة والتي تتطلب منه التلقائية والتعبير السريع عن الموقف مع الأخذ بعين الاعتبار أن حسان كان في جاهليته أيضاً شاعر الحق والخير، فما كان بالفاحش ولا البذيء ولا المتهالك على المواقف.

إن ثنائية الخير والشر ثنائية أزلية، يقع الشاعر حائراً بينهما، أضحى بقيم الصورة الفنية (القيم الجمالية) من أجل المضمون، أم يضحى برسائله لأجل الطريقة الفنية الصحيحة. والشاعر المبدع الذي يجمع بين القيمتين. وقد يحدث تواءم بين الموقف الجمالي والموقف الديني، ولا يجد الفنان أو الشاعر أية صعوبة في ذلك، وذلك في مرحلة الإيمان الكامل.

إن الموقف الإيماني يتصل بالمضمون الشعري أكثر من اتصاله بالشكل، وبهذا جاءت المواقف النقدية للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم موجهة نحو المعاني في نصرته الدين وإعلاء الفضيلة والخير. وأن الحكم على الشعر الإسلامي "يجب أن يكون التركيز فيه على المضامين الفكرية أولاً ومن ثم يلتفت إلى الجوانب الفنية فيه، لأن الشاعر المسلم صار خاضعاً لقاعدة الالتزام... وأن الذين يقولون بضعف الشعر وفتوره، إنما ينظرون إليه كفن كلامي يستهدف الإثارة والتشويق، وتحريك المشاعر في الدرجة الأولى، وهذا ما لا نوافقهم عليه لأن المضمون - في مطلق الأحوال - مقدم على الشكل من وجهة النظر الإسلامية.¹ هكذا يؤدي الشعر مهمة خاصة، تظهر في تصوير المشاعر الفردية والجماعية، وأخرى عامة تتمثل بتوخي الخير بمفهومها العام والدفاع عن الدعوة بشكل خاص.

وتتجلى المعاني والقيم في كثير من أبيات حسان التي يدعو فيها للخير والصلاح، ويوسع فيها مدارك شعره للتعاليم الدينية والإرشاد، إذ ينصح الإنسان بان يعرض عن الكلام القبيح، وإذا سمعه عليه أن يتجاهله، وينصحه بألا يتتبع عورات الناس ليستخرج زلاتهم، ويأمره بأن يجالس أهل الفضل والكرم، والتحلي بأخلاقهم وصفاتهم. وينصح الإنسان بأن يسلك سبل الرشد والهدى لا الغي والضلال وغواية الشيطان. ويقول أنه ينبغي للإنسان أن يوجد إذا سئل، وأن يبتعد عن الخمر حتى لا تذهب بعقله، وعليه أيضاً أن يجاهد نفسه وشهواته ويحافظ على دينه، ويدافع عنه وأن يتزود للموت لأنه حق لا محالة منه.

¹ نايف معروف، الأدب الإسلامي، 269.

يقول: ¹

[الكامل]

أَعْرِضْ عَنِ الْعَوْرَاءِ إِنْ أُسْمِعْتَهَا وَأَقْعُدْ كَأَنَّكَ غَافِلٌ لَا تَسْمَعُ
وَدَعْ السُّؤَالَ عَنِ الْأُمُورِ وَحَفَرِهَا فَلَرُبَّ حَافِرٍ حَفَرَةٍ هُوَ يَصْرَعُ
وَالزَّمْ مَجَالِسَةَ الْكِرَامِ وَفَعَلْهُمْ وَإِذَا اتَّبَعْتَ فَأَبْصِرْ مَنْ تَتَّبَعُ
لَا تَتَّبِعَنَّ غَوَايَةَ لِصِبَابَةٍ إِنْ الْغَوَايَةَ كُلَّ شَرٍّ تَجْمَعُ

وإن كنا نرى أن المضمون الشعري ذو أهمية بالغة لإيصال الرسالة إلى المتلقي والذي يرفعه عن سفاسف القول وركاكة النظم وهبوط المعنى، والاندفاع وراء الألفاظ البراقة، والصور المتألقة التي تزيع الأبصار، إلا أننا لا نعدم ذلك أثره وحقه في الشعر، فالشعر فن كلامي يعتمد على اللفظ والمعنى، ولكل دوره في إيصال الفكرة. وعلى الأمرين أن يكتافا حتى يرتقي الفن الشعري إلى أرفع مستوياته ويؤدي رسالته المنوطة به.

وفي اختيار النبي الكريم صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت واصطفائه له من بين شعراء المسلمين كافة دليل كافٍ على أهمية الأمرين لأن مضمون الدين واحد، وفكرته معروفة معلومة. ويبقى الأسلوب الفني لإيصال ذلك، فاختر النبي حسان وأوكل إليه هذه المهمة، فهو شاعر فحل مجيد من ناحية، وملتزم بعقائد الدين الجديد ومضامينه من ناحية أخرى، فكان الرجل المناسب في المكان المناسب.

فالحكم إذن على شعر حسان الإسلامي بالليونة والضعف لأنه دخل باب الخير حكم جائر، وأن على من يتصدر هذا الرأي أن يرى مبلغ اتصال كل من شعره الجاهلي والإسلامي ببيئته وملاءمته للأوضاع والأحوال التي لا يسته، فسيجد حتماً أن كلاً منهما رائع في موضعه.

¹ حسان الديوان، 278.

المبحث الثالث: حسان بين التقليد والتجديد

مع مجيء الإسلام تعرض المجتمع العربي لهزات عنيفة قوية، نقلته من طور البداوة والوثنية التي كانت تحكم العاطفة، وتغلب الهوى إلى طور الوجدانية والتفكير في الكون، وتدبر شؤون الحياة، وتسخير العقل وما ينتجه من علوم وفنون لخدمة الحياة وبلوغ السعادة فيها.

والشعر من أهم الفنون التي اعتد بها العرب، فهو كما يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه"¹، لذا كان للتطور الذي شهده المجتمع العربي من ظهور الإسلام، وانتشار الفتوحات أثر ظاهر في نفوس الشعراء المخضرمين الذين أسلموا وعاشوا إرهابات الدعوة الجديدة وتطوراتها. فكان من الطبيعي لهذا التطور أن يترك بصماته في شعرهم، وتظهر فيه ظواهر تطبعه بالطابع الإسلامي، فالعقيدة الجديدة غيرت اتجاه الشعر، ووسعت أفقه، وصقلت جوانبه، فسمت به نحو الفضائل والمثل العليا، فقارنت ما بين الشاعر الصالح والشاعر الطالح، وما بين الشعر الجيد وغير الجيد، فما عاد هذا العلم هائماً في كل واد.

لم يبتز الإسلام الشعراء أغراضهم الشعرية القديمة، وإنما وجهها الوجهة الإسلامية الصحيحة عن طريق التهذيب والتعديل والتحوير في مضامينها وأساليبها، فقد واجه الشعر "لأول مرة دعوة تريد أن تفرض عليه نوعاً من التنظيم والتوجيه والتهذيب، بعد أن كان يتحرك في أجواء من الحرية التي لا تحد، والهوى الذي لا يعوقه عائق"². فأخذ بذلك الشعر الإسلامي يأخذ طريقه إلى الحياة الجديدة بكل ما اكتنفها من متغيرات ومؤثرات ومن عوامل التطور والتجديد، فتأثير الإسلام على الشعر أمر واقع لا ريب فيه.

وكان حسان من أوائل من حاك هذا الشعر، واتجه به اتجاهه الجديد، جامعاً فيه ما بين القيم الجاهلية الموروثة، وأغراضه التقليدية المعروفة، وما بين القيم والمعايير الجديدة. واضعاً نواة شعر الدعوة والجهاد، مستمداً مضامينه من توجيهات النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، ومن نقادته المشبعة بروح الدين وحثه الداعي إلى الالتزام والحق والخير. على الرغم من أن الفترة التي أنشأ فيها حسان شعره الإسلامي لا تكاد تتجاوز عشر السنوات³، إلا أنها بلغت أضعاف شعره الجاهلي والذي أنفق في صياغته ما يربو على الأربعين عاماً، وقد بينت العشر سنوات تلك مدى التغيير

¹ ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، 24/1.

² صلاح مصيلحي، التقليد والتجديد في الشعر العربي، 90.

³ لأن الشعر الإسلامي قل بشكل ملحوظ بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

والتطور الذي أحدثه الإسلام في شعره، وهو ما يطلق عليه التجديد في الشعر. وبينت أيضاً ما بقي عليه من موروثات شعرية، وهو المسمى بالتقليد الشعري، فحسان حافظ على أغراضه الشعرية القديمة مضيفاً إليها مضامين إسلامية جديدة.

أولاً: القيم الإسلامية في المديح في شعر حسان:

أ. مديحه الجاهلي

لو تتبعنا حسان الجاهلي في عرض المدح لتبين لنا أمران:

أولهما: أن شعر المديح أقل الفنون حظاً، إذ لا يبلغ خمسة وعشرين بيتاً موزعة بين ممدوحيه جميعاً¹، في كثير منها جميعاً، في كثير منها جاء ذكر الممدوحين عابراً في أثناء فخره بنفسه أو بقومه. وفي معرض هجائه لقيس بن الخطيم في يوم السرارة² يبدأ بالفخر بنفسه في ثمانية أبيات، ثم ينتقل إلى مدح النعمان بن المنذر اللخمي في ثلاثة أبيات عارضة، ثم يعاود الكرة إلى فخره الذاتي مرة أخرى. وله في مدح آل جفنه الذين تربطه بهم قرابة ودم أبيات متفرقة متناثرة هنا وهناك في ثنايا قصائده، ولم يفرد لهم إلا لاميته التي أجادها النقاد واستحسنوها، ومطلعها:³

[الكامل]

سَأَلْتُ رَسْمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تَسْأَلِ بَيْنَ الجَوَابِي فَالبُضَيْعِ فَحَوَمَلِ

والأبيات قليلة نسبياً فهي لا تجعل من حسان شاعراً مداحاً في جاهليته، وإن طارت شهرته في مدح آل جفنه، ومزاحمته للشاعرين الكبيرين النابغة الذبياني وعلقمة بن عبدة.

والأمر الثاني: أن حسان ما كان متكسباً بشعره، ولو كان متكسباً بشعره، لكان لمدحه حظ أوفر ونصيب أكبر في شعره، خاصة وعلاقته حميمة مع آل جفنة ملوك الشام. فهذه البضاعة المتناثرة هنا وهناك في ثنايا شعره، ليست بضاعة شاعر مداح، ولا تصلح أن تكون كذلك بمادتها.

وحينما يمدح حسان الغساسنة فإنه لا يسلك في هذا المدح سلوك الغرياء الذين يرجون نوالهم وعطاياهم، وإنما يمدحهم ليفخر بهم، فهم أهله الذين بنوا لهم المجد، فمجدهم مجده، وذكر فضائلهم

¹ مقسمة على النحو التالي: مدح آل جفنه ص121: الأبيات 5-13، ص192، الأبيات: 8-15.

مدح أخواله: ص192: الأبيات: 5-7.

مدح النعمان المنذر: ص133، الأبيات: 9-11

مدح سيد القبيلة، ص184، الأبيات: 35-37.

² حسان الديوان، 132.

³ حسان، م.ن، 121.

فخر له، فتعامل معهم معاملة الند للند والقرين للقرين، فلم تتكسر لهم نفسه، ولم يتزلف لهم لعطاياهم السنوية، بل قصائده هي إلى الشكر أقرب منها إلى الإطراء.

وقد كانت أداة المدح عند حسان هي القيم والخصال الحميدة التي ورثها الجاهليون سالفاً عن سالف، كالشجاعة والكرم والنصرة، والإغاثة، والمروءة والعدل، وكلها من الخصال التي أقرها الإسلام وأعلى من شأنها. يقول في آل جفنة:¹

[الكامل]

وَالْخَالِطُونَ فَيَرَهُمْ بَغْيِيهِمْ وَالْمُنْعَمُونَ عَلَى الضَّعِيفِ الْمَرْمَلِ
يُغَشَّوْنَ حَتَّى مَا تَهَرُّ كَلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبَلِ

ويقول في مدح سيد القبيلة:²

[الطويل]

رَفِيعِ عِمَادِ الْبَيْتِ يَسْتُرُّ عِرْضَهُ مِنْ الذَّمِّ مَيْمُونِ النَّقِيبَةِ خِضْرِمِ
جَوَادٍ عَلَى الْعَلَاتِ رَحْبِ فَنَاوِهِ إِذَا سُئِلَ الْمَعْرُوفَ لَمْ يَتَّجَّهُمْ

وله أيضاً مدح في بعض القيم الجاهلية والتي عدها القوم من محاسن أخلاقهم ومكارم فعالهم، لكن الإسلام عدها غير ذلك فحرمها وجعلها من الموبقات المهلكات وأقام عليها الحد، كالميسر والخمر، والعقر على القبور، وقد تجنبها حسان بعد إسلامه. يقول حسان مادحاً سيد القبيلة بأنه صاحب ميسر:³

[الطويل]

ضَرُوبٍ بِأَعْجَازِ الْقَدَاحِ إِذَا شَتَا سَرِيعٍ إِلَى دَاعِي الْهَيْجِ مُؤَمِّمِ

ويمدح في آل جفنة كثرة تشرابهم للخمر وسقايتهم لها:⁴

[الكامل]

يَسْفُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمْ بَرْدَى يُصَفِّقُ بِالرَّحِيقِ السُّسْلِ⁵

¹ حسان، الديوان، 122 - 123.

² حسان، م. ن، 184.

³ حسان، م. ن، 184.

⁴ حسان، م. ن، 122.

⁵ بردى: نهر دمشق. والرحيق: الخمر. السلسل: السهلة اللينة. تصفق: تمزج. البريص: موضع آل جفنة بالشام.

يَسْقُونَ دِرْيَاقَ الْمُدَامِ وَلَمْ تَكُنْ تَغْدُو وَلَا تُدْهِمُ لِنَقْفِ الْحَنْظَلِ¹

ومن العادات والقيم السائدة في المجتمع الجاهلي العقر على القبور، فقد كانوا يعقرون إبلهم مكافأة للميت على ما كان يعقره من الإبل في حياته، وينحره للأضياف. وكان ربيعة بن مكرم ممن يعقر على قبورهم، فقد مر حسان على قبره ورثاه واعتذر عن عدم عقره ناقته بطول سفره:²

[الكامل]

نَفَرْتُ قَلْوَصِي مِنْ حِجَارَةِ حَرَّةٍ بُنِيَتْ عَلَى ظَلْقِ الْيَدَيْنِ وَهُوبِ
لَا تَنْفِرِي يَا نَاقُ مِنْهُ فَإِنَّهُ شَرَابُ خَمْرٍ مَسْعَرٍ لِحُرُوبِ
لَوْلَا السَّفَارُ وَطُولُ خَرْقٍ مَهْمِهِ لَتَرَكْتَهَا تَحْبُوبًا عَلَى الْعُرْقُوبِ

ب. مديحه الإسلامي:

من الطبيعي أن يتطور شعر المديح في الإسلام ويلتزم المنهج القويم، وينأى عن الإسفاف والعبث والمغالاة، ويتمثل الأفكار والمبادئ الإسلامية، خاصة بعد أن وقف الإسلام في وجه المديح الكاذب، إذ يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: [إِذَا رَأَيْتَ الْمَدْحِينَ فَأَحْثُوا فِي وُجُوهِهِمْ التَّرَابِ].³

ويرى يحيى الجبوري أن شعر المديح قل في صدر الإسلام، ويعتل ذلك بأمرين: انصراف المسلمين عن المديح الكاذب والغلو في الإطراء، وثانيهما: فرض الأرزاق من بيت مال المسلمين، فقل بذلك المتكسبون بالشعر والعاملون به فحمل شعر المديح.

وبهذا تغير مفهوم الشعر ووظيفته في ذلك العصر، وانتقل من كونه حرفة لكسب الرزق على حساب أقدار الناس ومنازلهم إلى سلاح لنشر الدعوة والتغني بانتصاراتها والذود عنها.

وقد ارتقى الإسلام بأفكار الشعراء ومعانيهم وذلك بتوجيه الشعراء إلى الخير، فالفضائل التي كان يمتدح بها الشاعر الجاهلي ويغالي بها ويتقنن في معانيها، كوصف الممدوح بالفتوة والإقبال على الشهوات والملذات كشراب الخمر والمقامرة ومداعبة النساء، أصبحت من الرذائل التي لا يقرها

¹ درياق المدام: خالص الخمر وجيدها، شبهه بالدرياق الشافي لأنها تشفي من الهموم، ونقف الحنظل: استخراج ما فيه، فهم لا يفعلون ذلك لأنهم ملوك وليسوا من الأعراب.

² حسان، الديوان، 364، وربيعة بن مكرم كان فارس العرب في الجاهلية من بني كنانة وكان يُعقر على قبره في الجاهلية وقيل لم يعقر على قبر أحد غيره. ينظر ابن عبد ربه، العقد الفريد، 105/1.

³ صحيح مسلم، حديث رقم: (7431).

الإسلام والتي لا يجب أن يتصف بها ممدوح أبداً، وقد استبدلها السلوك الإسلامي القويم، إضافة إلى إقراره لتلك الفضائل السامية المتوارثة التي لا تجري عليها أحكام التغيير والتبديل لأنها تتفق والفترة الإنسانية السليمة ولكن دون مبالغة أو تهويل.

ارتبطت قصيدة المدح في الإسلام ارتباطاً وثيقاً بالدعوة الإسلامية، فهي تدعو وتبشر وتحارب في آن واحد من خلال تمجيدها لمناقب المصطفى الكريم صلى الله عليه وسلم، وتعدادها لأخلاق الصحابة واستماتتهم في الدفاع عن الدعوة ونصرة الدين، ودحض ما يثيره المشركون من دعاوى واقتراءات باطلة بحق الدين الجديد وطبيعته.

يقول وهب رومية: "يجب أن نعترف أن الإسلام قد رد لقصيدة المديح اعتبارها حين ربطها بالسياسة، فجعل منها قصيدة ملتزمة تدافع عن قضية حيوية محددة وتدعو إلى نصرتها، وهو بذلك قد أنقذها من الوقوع في المنحدر الذي كانت تتجه إليه، وبرأها من صفات السلعة الكمالية المعروضة في سوق الأغنياء، وحررها من قفصها الذهبي الضيق، ومن مهمتها المتواضعة، مهمة التزيين والزخرفة، وأناط بها مهمة سامية، وهي مهمة المشاركة في بناء الحياة الجديدة، وردها إلى صفوف الجماعة، تدافع عن مواقفها ومبادئها وتصورها للعالم، وتستمد من حياتها وأهدافها المتلاحقة كثيراً من مادتها"¹

وليس هذا معناه أن قصيدة المدح الإسلامية تفوق قصيدة المدح الجاهلية فنية وجمالاً، ولكن ما نقصده هو ذلك المضمون الذي ارتضاه الإسلام لهذا الفن الشعري، والذي تصدق فيه نوايا الشاعر المادح، وتتجه نحو الأخلاق العليا والمثل القويمية، والذي يجعل من الممدوح إطاراً لقضية عامة، ويدخل في ضمن هذا الإطار كل مديح جاهلي نادى بذلك، كمديح زهير بن أبي سلمى لهرم بن سنان، وتمجيده للدور الإنساني الذي قام به هذا الممدوح في حقن دماء قبيلتين طال أمد تحاربهما، فنال بذلك إعجاب الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فهو مفضل عنده.

وكان حسان بن ثابت بلا شك من أكثر أولئك الشعراء التزاماً بالإسلام، وأشدّهم اندماجاً فيه، فتأثر بذلك منهجه وأسلوبه على الرغم من كونه شاعراً مقلّلاً في هذا الغرض الشعري في جاهليته وبقي كذلك في إسلامه فلم يزد ما مدح به النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وصحابته على خمسة وأربعين بيتاً. وكانت مادته الشعرية مزيجاً من الفضائل الجاهلية والقيم الإسلامية، وأضاف إليها بعض المعاني المستمدة من وروح الإسلام كتمدحه بالهداية والنور والتقوى والاستقامة والإخلاص

¹ وهب رومية، قصيدة المدح، 271.

والزهدي. وامتنع حسان عن التمدح بالردائل التي تمدح بها الجاهليون كشراب الخمر واللعب بالميسر وذكر الأيام الجاهلية - خاصة ما بين الأوس والخزرج - إلا تلك التي تثير حفيظة المشركين والتي لفته إياها أبو بكر رضي الله عنه بتوجيه من النبي صلى الله عليه وسلم.

يتجه مدح حسان الإسلامي أولاً إلى شخص الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، فتكون شخصيته محور هذا المدح إلا أن قصائده قليلة نسبياً. ولعل لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم أثراً في قلة القصائد في شعر الشعراء عامة إذ لم يكن رغباً في أن يمتدحه الشعراء كما يمتدح الملوك، ولم يكن سخياً على الشعراء ليكيلوا له المديح، فضلاً عن أنه كلما سادت روح الحضارة والعدالة في أمة قل المديح الذي يعتمد على الاستجداء والطلب.

ويعلل بعضهم قلة مدائح حسان الإسلامية للنبي صلى الله عليه وسلم في "أنه قد أحس وهو ينعت النبي بهذه الفضائل أنه يطاول قمة صعبة المرتقى، فأحس العجز عما يطمح إليه، فلم يكلف نفسه مالا تطيق، لأن النبي أعظم من كل نظم، وما يخطر له أن ينظم"¹

بينما يرى محمد طاهر درويش أنه أقل من مدح النبي صلى الله عليه وسلم لأنه رأى في اتباعه للرسول وتأييده له والجهاد في نشر دعوته والنيل من أعدائه مدحاً عملياً له، وتركية فعلية لطريقته، فاستغنى بها عما سواها.² هذا من ناحيته، ومن ناحية أخرى يرى أن ما يقوله حسان في النبي الكريم صلى الله عليه وسلم هو صدق وهو دون قدره وبعض حقه، فتوفية الرسول حقه من الثناء أمر فوق الطاقة، فاستشعر بذلك الهيبة، وعرف من نفسه القصور عن بلوغ قمة ذلك الأشم الشاهق.³

ومن الفضائل المتوارثة التي نعت بها حسان النبي صلى الله عليه وسلم، أنه يقول الحق، بَرّ، وفيّ، أمين.

قال حسان في معرض هجائه لأبي سفيان ودفاعه عن النبي صلى الله عليه وسلم في همزيتة:⁴

[الوافر]

وَقَالَ اللَّهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا يَقُولُ الْحَقَّ إِنْ نَفَعَ الْبَلَاءُ

¹ غازي طليمان وزميله، الشعراء في عصر النبوة والخلافة الراشدة، 26.

² محمد طاهر درويش، حسان بن ثابت، 429.

³ محمد طاهر درويش، م، ن، 430، 431.

⁴ حسان، الديوان، 75.

ثم يقول: ¹

[الوافر]
هَجَوْتَ مُطَهَّرًا بَرًّا بَرًّا حَنِيفًا أَمِينُ اللَّهِ شِيمَتُهُ الْوَفَاءُ

ويصف أمانته بقوله: ²

[البسيط]
وَأَتِ الرَّسُولَ فَقُلْ يَا خَيْرَ مُؤْتَمِنٍ لِلْمُؤْمِنِينَ إِذَا مَا عُذِّلَ الْبَشَرُ

وفي قصيدة أخرى وصفه بالجود والشجاعة والمضاء في يوم بدر يقول: ³

[البسيط]
مُسْتَشْعِرِي حَلَقِ الْمَازِي يَفْدُمُهُمْ جَلْدُ النَّحِيْزَةِ مَاضٍ غَيْرُ رَعِيدِ
أَعْنِي الرَّسُولَ فَإِنَّ اللَّهَ فَضَّلَهُ عَلَى الْبَرِيَّةِ بِالتَّقْوَى وَبِالْجُودِ
وَإِثَارَ مَعَالِي الْأَخْلَاقِ كَالْكَرْمِ وَالنَّدَى ، بَدْرَ أَنْارٍ عَلَى كُلِّ الْأَمَاجِيدِ
وَإِثَارَ مَعَالِي الْأَخْلَاقِ كَالْكَرْمِ وَالنَّدَى ، بَدْرَ أَنْارٍ عَلَى كُلِّ الْأَمَاجِيدِ

قد ربط حسان في هذه الأبيات ما بين قيمتي الشجاعة والكرم لما بينهما من روابط وأواصر، فالشجاعة الحقيقية تحمل صاحبها على تحمل المشاق والصعاب، وتحمله أيضا على عزة النفس وإيثار معالي الأخلاق كالكرم والندى ، فهو يقاوم نوازع نفسه وهواها بالشرح والبخل. فقد كان صلى الله عليه وسلم أجود من الريح المرسلة. ⁴

ووصفه بأنه لا يغدر بذمه جاره: ⁵

[الكامل]
يَا حَارٍ مَنْ يَغْدِرُ بِذِمَّةِ جَارِهِ مِنْكُمْ فَإِنَّ مُحَمَّداً لَمْ يَغْدِرْ

ومدحه صلى الله عليه وسلم بالعفة والتكرم والسماحة: ⁶

¹ حسان، الديوان، حاشية ص76.

² حسان، م.ن، 206.

³ حسان، م.ن، 242 . والبيت الثالث في حاشية الصفحة .

⁴ صحيح مسلم، حديث رقم: (5964) .

⁵ حسان، الديوان، 262، وجاءت لا يغدر.

⁶ حسان، م.ن، 338.

[الكامل]

وَاللَّهُ رَبِّي لَا نُفَارِقُ مَا جَدَاً عَفَّ الْخَلِيقَةَ سَيِّدَ الْأَجْدَادِ
مُتَكْرِماً يَدْعُو إِلَى رَبِّ الْعَلَا بَذَلَ النَّصِيحَةَ رَافِعَ الْأَعْمَادِ
مِثْلَ الْهَلَالِ مُبَارِكاً ذَا رَحْمَةٍ سَمَحَ الْخَلِيقَةَ طَيِّبَ الْأَعْوَادِ

وقال يمدحه صلى الله عليه وسلم في معرض هجائه لابن الزبير، حين بكى قتلى المشركين
ببدر:¹

[الكامل]

مَاذَا بَكَيْتَ عَلَى الَّذِينَ تَتَابَعُوا هَلَّا ذَكَرْتَ مَكَارِمَ الْأَقْوَامِ
وَذَكَرْتَ مَنْ مَا جَدَاً ذَا هَمَّةٍ سَمَحَ الْخَلَائِقَ فَاضِلَ الْإِقْدَامِ
أَعْنِي النَّبِيَّ أَخَا التَّكْرُمِ وَالنَّدى وَأَبْرَ مَنْ يُؤَلِي عَلَى الْإِقْسَامِ
وَلِمِثْلِهِ وَلِمِثْلَ مَا يَدْعُو لَهُ كَانَ الْمَمْدَحَ ثُمَّ غَيْرَ كَهَامِ²

وقد جمع حسان في مدائحه للنبي صلى الله عليه وسلم ما بين فضائل الدنيا وما بين المعاني
الجديدة في الدين كالتقوى والورع والبر والبركة وحمل الرسالة الإلهية، يقول:³

[البيسط]

أَعْنِي الرَّسُولَ فَإِنَّ اللَّهَ فَضَّلَهُ عَلَى الْبَرِيَّةِ بِالتَّقْوَى وَبِالْجودِ
ومن الصفات أيضاً أنه نبي الرحمة. وهي صفة أكد عليها الله عز وجل في محكم كتابه لنبيه
صلى الله عليه وسلم، إذ يقول عز وجل: [لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ
عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ]⁴، وقد وصف حسان بها النبي في أكثر من موضع، يقول:⁵

[الطويل]

وَأرسله فِي النَّاسِ نوراً وَرَحْمَةً فَمَنْ يَرْضَ مَا يَأْتِي مِنَ الْأَمْرِ يَهْتَدِ

وما إلى ذلك كثير من الصفات والمعاني والتي ليست في ظاهرها قيم لكنها ترسخ القيم
والفضائل، وتعززها في النفوس فكل ما يؤدي الشيء واقع في حكمه، فالمؤدي إلى الهداية والرشد

¹ حسان، الديوان، 270، 271.

² رجل كهام: لا غناء عنده، وسيف كهام: لا يقطع . ابن منظور، اللسان، مادة كهام.

³ حسان، م، س، 242.

⁴ سورة التوبة، 9 / 128.

⁵ حسان، الديوان، 205.

وحسن الخلق والفضل والمكارم، كان فضلاً ومكرمة وكمالاً، والمؤدي إلى الضلال والغي وسوء العاقبة كان مذمة ونقصاً. ونبى الهدى قد جمع المحاسن كلها، فهو الكريم الجواد، العفو الرحيم، الأمين، الصادق، المؤدي الحقوق والذم، ناصر الحق وهو الهادي، المبارك، إمام الرحمة، أخو التكرم والعلا. ومن أجمل ما قاله حسان في صفة النبي صلى الله عليه وسلم بيتان ارتقى فيهما بمعنى المدح إلى الذروة، إذ يقول:¹

[الوافر]

وَأَحْسَنُ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءُ
خُلِقْتَ مُبْرَءاً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ

ومن الملاحظ في مدائح حسان للنبي صلى الله عليه وسلم أمران:

أولهما: أن حسان قد تمدح بالفضائل المعروفة في الجاهلية وأمعن فيها، ولكنه في مضامينه الإسلامية لم يطل التأمل والتعمق. وذلك لجدة هذه المضامين وحدائتها، فاستخدمها مصطلحات كما هي.

ثانيهما: تشع في مدائحه للنبي صلى الله عليه وسلم روح الاعتدال والبعد عن الغلو والإسراف، فصورة النبي صلى الله عليه وسلم بعيدة كل البعد عن صورة الممدوحين الآخرين في القصائد الجاهلية عامة، لأن المدح في حقه صلى الله عليه وسلم مرتبط بالدنيا وبالدين.

وقد مدح حسان المسلمين أفراداً وجماعات، وخص الأنصار بمساحة واسعة من المديح لأنهم أهله، وقد عدد مآثرهم في قصيدة أرخت لهم ولبلائهم في الإسلام، مبيناً شجاعتهم وحفظهم للعهود ونصرتهم للنبي الكريم. يقول:²

[البيسط]

قَوْمٌ هُمْ شَهِدُوا بَدْرًا بِأَجْمَعِهِمْ مَعَ الرَّسُولِ فَمَا آلَوْا وَمَا خَذَلُوا
وَبِأَيْعُوهُ فَلَمْ يَنْكُثْ بِهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَلَمْ يَكُ فِي إِيْمَانِهِمْ دَخَلٌ
وَيَوْمَ بُوِيعَ كَانُوا أَهْلَ بَيْعَتِهِ عَلَى الْجِلَادِ فَآسَوْهُ وَمَا عَدَلُوا
أَوْلَيْكَ الْقَوْمَ أَنْصَارُ النَّبِيِّ وَهُمْ قَوْمِي أَصِيرُ إِلَيْهِمْ حِينَ أَتَّصَلُ
مَاتُوا كِرَامًا وَلَمْ تُنْكَثْ عَنْهُمْ مَاتُوا وَقَاتَلْتَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِذْ قَاتَلُوا

¹ حسان، الديوان ، 371.

² حسان، م.ن، 394، 395. وتروى هذه القصيدة لابنه عبد الرحمن بن حسان.

وقد ذكر حسان في القصيدة حروب المسلمين ومعاركهم كافة كبر وأحد والخندق وحنين وفتح مكة وخيبر وتبوك وغيرها من الغزوات والسرايا.

وقد مدح حسان أيضاً آل هاشم رهط النبي صلى الله عليه وسلم وقومه وبين قيمهم وفضائلهم، فهم دعائم العز، وجبل الإسلام الذي يلتف الناس حوله، وهم يرفعون البلاء عن المسلمين في المآزق والشدائد. يقول:¹

[الطويل]

وَمَا زَالَ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ دَعَائِمُ عِزٍّ لَا تَزُولُ وَمَفْخَرُ
هُمُ جَبَلُ الْإِسْلَامِ وَالنَّاسُ حَوْلَهُمْ رِضَامٌ إِلَى طُودٍ يَرُوقُ وَيَفْهَرُ²
بِهَالِيلٍ مِنْهُمْ جَعْفَرٌ وَابْنُ أُمِّهِ عَلِيٌّ وَمِنْهُمْ أَحْمَدُ الْمُتَخَيَّرُ³
وَحَمْرَةُ وَالْعَبَّاسُ مِنْهُمْ وَمِنْهُمْ عَقِيلٌ وَمَاءُ الْعُودِ مِنْ حَيْثُ يُعْصَرُ
بِهِمْ تُكْشَفُ الْأَوَاءُ فِي كُلِّ مَازِقٍ عَمَاسٌ إِذَا مَا ضَاقَ بِالْقَوْمِ مَصْدَرُ⁴

ومن خير مدائحه التي يجمع فيها ما بين جماعات المسلمين مهاجرين وأنصار، عينيته التي ألقاها أمام وفد تميم والتي تحدث فيها عن محاسن القوم ومكارمهم، موضحاً المعاني الإسلامية الجديدة، ليحبب الإسلام إلى نفوسهم، فهم يحسنون معاملة الجار فلا يبخلون بفضلهم كما أمرهم الله تعالى في قوله [وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ] ⁵ . وفي ذلك يقول:⁶

[البيط]

إِنَّ الذُّوَابَ مِنْ فَهْرِ وَإِخْوَتَهُمْ قَدْ بَيَّتُوا سُنَّةً لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ⁷
يَرْضَىٰ بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ تَقْوَى الْإِلَهِ وَبِالْأَمْرِ الَّذِي شَرَعُوا
وَلَا يَضُنُّونَ عَنْ جَارٍ بِفَضْلِهِمْ وَلَا يُدْنَسُهُمْ فِي مَطْمَعٍ طَبَعُ

¹ حسان، الديوان ، 224.

² الرضام: صخور عظام يرضم بعضها فوق بعض في الأبنية. ابن منظور، اللسان، مادة رضم.

³ بهاليل: جمع بهلول وهو الحيّ الكريم أو العزيز الجامع لكل خير. ابن منظور، اللسان، مادة بهل.

⁴ عماس: شديد مظلم. ابن منظور، اللسان، مادة، عمس.

⁵ سورة النساء، 36/4.

⁶ حسان، الديوان، 238-240.

⁷ الذوائب: هم السادة وفهر أصل قريش ويقصد بهم المهاجرين، وأخوتهم المراد بهم الأنصار.

ثم يمدح فيهم رجاحة عقلمهم وحلمهم، فقد تخلصوا بفضل الإسلام من حمية الجاهلية، فعقولهم أسمى وأرحب من أن تسفه بجهل، لأن الجاهل يرى الحسن قبيحاً والقبيح حسناً، والكمال نقصاً والنقص كمالاً كما في قوله تعالى: [وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا] ¹. وهم أعة يكفون عما لا يليق بهم ولا يحل لهم، ولا يفعلون ما يندسهم ويعيبهم. يقول:

[البيسط]

لَا يَجْهَلُونَ وَإِنْ حَاوَلْتَ جَهْلَهُمْ فِي فَضْلِ أَحْلَامِهِمْ عَنْ ذَاكَ مُتَّسِعٌ
أَعْفَةٌ نُكِرَتْ فِي الْوَحْيِ عِفَّتُهُمْ لَا يُطْبَعُونَ وَلَا يُرْدِيهِمُ الطَّمَعُ

ويستمر حسان في تعداد هذه الفضائل المستمدة من الدين الحنيف، فكم من موال نال كرامتهم، وهم أبطال شجعان لا يرغمون على شيء، فلا ينال منهم أحد شيئاً إلا ما عفوا عنه وسمحوا به. وإذا حاربوا جرعوا عدوهم كؤوس الموت المليئة بالسم والمرارة، وكأنهم لشجاعتهم أسود ببيشة التي اعوجت مفاصلها لقوة عضلاتها. يقول:

[البيسط]

كَمْ مِنْ مُوَالٍ لَهُمْ نَالُوا كَرَامَتَهُ وَمِنْ عَدُوٍّ عَلَيْهِمْ جَاهِدٍ جَدَعُوا
خُذْ مِنْهُمْ مَا أَتَوْا عَفْوًا إِذَا غَضِبُوا وَلَا يَكُنْ هُمًّا كَ الْأَمْرِ الَّذِي مَنَعُوا
فَإِنَّ فِي حَرِيهِمْ فَاتْرَكَ عَدَاوَتَهُمْ سُمًّا يَشْنُ عَلَيْهِ الصَّابُ وَالسَّلْعُ ²
كَأَنَّهُمْ فِي الْوَعْيِ وَالْمَوْتِ مُكْتَنِعٌ أَسْدٌ بِبَيْشَةٍ فِي أَرْسَاعِهَا فَدَعَّ ³

ثم ينهي قصيدته بقوله:

[البيسط]

أَهْدِي لَهُمْ مِدْحِي قَلْبٌ يُوَازِرُهُ فِيمَا أَرَادَ لِسَانٌ حَائِكٌ صَنَعُ
فَإِنَّهُمْ أَفْضَلُ الْأَحْيَاءِ كُلِّهِمْ إِنْ جَدَّ بِالنَّاسِ جِدُّ الْقَوْلِ أَوْ سَمِعُوا

ولقد انتهج حسان في قصيدته هذه نهجاً توافرت فيه عوامل النجاح، فاستطاع بها أن يتفوق على شاعر وفد تميم، وليس ذلك بكثرة عدد أبياتها، أو بكلماتها البراقة، إنما باتزان معانيها، ووضوح مفاهيمها وأصالة قيمها.

¹ سورة الفرقان، 36/25.

² الصاب والسلع: ضربان من الشجر مران . ابن منظور، اللسان، مادة صيب ومادة سلع.

³ المكتنع: الداني القريب، وببيشة: موضع تتسب إليه الأسود. ابن منظور، اللسان، مادة كنع.

وقد مدح حسان بن ثابت المسلمين أفراداً، لكنه لم يفرد لهم القصائد المدحية، إنما جاء أغلب مدحه للصحابة الكرام في معرض حديثه حول مواضيع مختلفة، كأن يمدحهم في موضع هجاء قريش، أو في معرض الرثاء.

ومن خالص ما قاله في الزبير بن العوام، واصفاً إياه بالشجاعة ونصرة الإسلام والحق والعدل واتباع منهج النبي وهدية. فقد مر الزبير بن العوام بحسان بن ثابت وهو بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ينشد والحاضرون غير مقبلين عليه، فجلس الزبير وقال: ما لكم لا تستمعون، والله لطالما أصغى إليه صاحب هذا القبر، وأجازه الجوائز السنية، فقال حسان:¹

[الطويل]

أَقَامَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ وَهَدِيهِ	حَوَارِيَّهُ وَالْقَوْلُ بِالْفِعْلِ يُعَدُّ ²
أَقَامَ عَلَى مِنْهَاجِهِ وَطَرِيقِهِ	يُوَالِي وَلِيَّ الْحَقِّ وَالْحَقُّ أَعْدَلُ
هُوَ الْفَارِسُ الْمَشْهُورُ وَالْبَطْلُ الَّذِي	يَصُولُ إِذَا مَا كَانَ يَوْمَ مُحَجَّلُ
فَكَمَ كُرْبَةً ذَبَّ الزُّبَيْرُ بِسَيْفِهِ	عَنِ الْمُصْطَفَى وَاللَّهُ يُعْطِي فَيُجْزِلُ
فَلَا مِثْلَهُ فِيهِمْ وَلَا كَانَ قَبْلَهُ	وَلَيْسَ يَكُونُ الدَّهْرَ مَا دَامَ يَذْبُلُ
ثَنَاؤُكَ خَيْرٌ مِنْ فَعَالٍ مَعَاشِرٍ	وَفِعْلُكَ يَا بَنَ الْهَاشِمِيَّةِ أَفْضَلُ

وقد مدح العديد من الصحابة رضوان الله عليهم، ولكن مدحه لا يتجاوز البيت أو البيتين، وأغلب ما مدحه بهم حسن صحابتهم للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم، كما في مدحه لكل من أبي بكر³، وزيد بن ثابت⁴ وكذلك مدح عبد الله بن العباس⁵ بأنه صاحب القول الفصل الذي لا يدع مجالاً لريبة أو مقالة لقائل⁶، وهي من الفضائل التي يمتاز بها الرجال ويُمتدحون بها. وقد مدح السيدة عائشة في معرض دفاعه عن نفسه في حديث الإفك، فوصفها بخير ما توصف به النساء، فهي حصان عفيفة، ذات ثبات ووقار، لا ترتع في أعراض الناس، يقول:⁷

¹ حسان، الديوان، 294.

² قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لكل نبي حواري، وحواري الزبير، صحيح مسلم، حديث رقم: (6193).

³ ينظر: حسان، م.س، 395.

⁴ حسان، الديوان، 374.

⁵ حسان، م.ن، 246.

⁶ وقد دعا له النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: [اللهم فقهه]. صحيح مسلم، حديث رقم: (6318).

⁷ حسان، الديوان، 228.

[الطويل]

حصانٌ رزانٌ ما تُزَنُّ بربيبيةٍ وتصبُحُ غرثي من لحوم الغوافل¹
فإن كنتُ أهجوكم كما قد زعمتمُ فلا رَفَعْتُ سوطي إليَّ أناملي
فإن الذي قد قيلَ ليسَ بلائط بك الدهر بل سَعِي امرئٍ بك ماجل²

وجاء له مدح في معرض الاعتذار، كما في اعتذاره لسعد بن الأشهلي، وهو رجل من الأنصار، وقد عتب على حسان، لأنه نسب الفوارس للمقداد عندما أغار عليهم عيينة ابن حصن، ولم ينسبها لسعد وهو الرئيس حينئذ، فقال حسان معتذراً مادحاً إياه بالسيد الشديد الشجاع³ والشجاعة من القيم المتوارثة.

ولهذا يكون حسان قد وضع أول نواة لقصيدة المدح الجديدة، إذ ربط هذا الغرض التقليدي بالدعوة الإسلامية الجديدة، فكان في مدحه مبشراً ومنذراً ومؤرخاً متبعاً في ذلك هدي النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في المدح الخالي من الغلو والإسراف والتهويل.

ثانياً: القيم الإنسانية في الفخر

عرف حسان في جاهليته بإفراطه في هذا الغرض الشعري بجانبه؛ الفخر الفردي و الفخر الجماعي، وقد برع في كليهما. فلما أسلم اتسع مضمار الفخر عنده وامتد لهدف أسمى وأشرف، فأضاف إلى الفخر الفردي والجماعي، فخراً بالعقيدة، فتناقل شعره بين هذه الجوانب الثلاث حتى تداخلت مع بعضها البعض من ناحية، وتداخل مع أغراض شعرية أخرى كالمدح.

اختلط الفخر والمديح في حديث حسان عن الإسلام والمسلمين، فأصبحت خطوطهما متداخلة متشابكة متعرجة، يصعب التمييز بينهما، وليس هذا الأمر عند حسان وحده، إنما وجد عند شعراء صدر الإسلام عامة. إذا ارتقى الشاعر المسلم بالفكرة التي يدور حولها ويسعى إلى تمجيدها ومدح أصحابها، وهي فكرة إعلاء هذا الدين ورفع شأنه، فأصبح (أنا الإسلام) هو المحور البديل عن محاور الجاهلية المختلفة، كما عبر عن ذلك أحد الشعراء بقوله:

¹ حصان: عفيفة ابن منظور، اللسان، مادة حصن. رزان: ذات وقار وثبات ابن منظور، اللسان، مادة رزن. غرثي: جائعة، بن منظور، اللسان، مادة غرث، يريد أنها لا ترتع في أعراض الناس.

² لائط: لاصق. ابن منظور، اللسان، مادة ليط. الماحل: هو الساعي بالنميمة ابن منظور، اللسان، مادة محل.

³ حسان، الديوان، 245.

[الوافر]

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا فخرُوا بقبائس أو تميم

فيمتدح بذلك الغرضان - المدح والفخر - امتزاج ألوان الشفق في شعر حسان بن ثابت، وفي ذلك يقول محمد طاهر: "فإذا نظرنا إلى هذين الموضوعين في الإسلام، فلن نجد فرقاً كبيراً لا في نسبة استغراقهما لمعظم شعره الإسلامي، أو في طريقة معالجته لهما، فالموضوعان مرتبطان ببعضهما عنده، فالقصيدة التي يمدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم، يتغنى فيها بمؤازرة الأنصار له، بل وإنه في بعض هذه القصائد يفخر فيها، بمعاونة بني النجار خاصة للرسول وللمسلمين.¹

ولعل فخره بقومه لاقى كثيراً من الانتقاد، إذ عده بعضهم نوعاً من المن كان أجدر بحسان أن لا يخوض فيه.² وحقيقة الأمر بعيدة عن هذا التصور لأن حسان قد افتخر بالأنصار، وهم مزيج من الأوس والخزرج، تلك القبيلتان المتناحرتان سابقاً، المتآلفتان المتفقتان في ضلال الدين الجديد. وما فخره بهما إلا إقرار منه لألفتهم ووحدتهم وانتمائهم لقضية واحدة دون التصارع على نفوذ أو ثراء أو قوة، فأصبحوا على درجة عالية من المواطنة والانتماء.

ويرى نايف معروف أن الشاعر المسلم حين يتحدث بلسان قومه في نصرته الإسلام ورسوله، ليس متناً، وإنما هو من قبيل الاعتزاز بهذا الشرف الذي نالوه في الدنيا والآخرة. وكذلك حال قوم حسان بن ثابت، فالعزة الحقيقية لهم هي المبادرة إلى قبول الإسلام والاستجابة له، والدفاع عنه لا كمن أخذتهم العزة بالإثم فوقفوا في وجه الإسلام معاندين مكابرين.³

وقد سجل كثير من الشعراء مفاخر قومهم وما قدموه لإخوانهم المهاجرين من مقاسمة الأموال ومشاركة في الديار، وإن كان بهم خصاصة من العيش، وما يتبع ذلك من دفاع وجهاد كقول النعمان بن العجلان الزرقى الأنصاري:⁴

[الطويل]

نَصَرْنَا وَأَوَيْنَا النَّبِيَّ وَلَمْ نَخَفْ
وَقَلْنَا لِقَوْمٍ هَاجَرُوا: مَرْحَباً بِكُمْ
نَقَاسِمْكُمْ أَمْوَالَنَا وَدِيَارَنَا
صُرُوفَ اللَّيَالِي وَالْعَظِيمِ مِنَ الْأَمْرِ
وَأَهْلًا وَسَهْلًا قَدْ أَمْنْتُمْ مِنَ الْفَقْرِ
كَقَسْمَةِ أَيْسَارِ الْجَزُورِ عَلَى الشُّطْرِ

¹ محمد طاهر درويش، حسان بن ثابت، 172.

² محمد طاهر درويش، م.ن، 142.

³ نايف معروف، الأدب الإسلامي، 244.

⁴ ابن عبد البر، الاستيعاب، 1501/4.

ونكفكم الأمر الذي تكرهونه وكنا أناساً نُذهبُ الغُسرَ باليُسْرِ

وكذلك قول العباس بن مرداس الذي يذكر قومه بني سليم¹:

[البسيط]

واذكر بلاء سليم في مواطنها وفي سليم لأهل الفخر مفتخر
قوم هم نصروا الرحمن واتبعوا دين الرسول وأمر الناس مشتجر

ولعل القول الفصل في ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينكر ذلك على حسان، ولو كان الأمر غير ذلك لما سكت عنه النبي صلى الله عليه وسلم فالنبي لم يطلب من أحد أن يتخلى عن أهله وعشيرته أو أن ينكر مآثرهم الطيبة، بل هم أولى بالمعروف من غيرهم... ولدى استيعابنا لهذا الواقع الجديد لا نحتاج للبحث عن أذكار لهؤلاء الشعراء تسويغاً لما ظنه بعضهم من أنه مخالف لروح الإسلام وأن فيه اعتزازاً بمآثر الجاهلية، فالحديث عن القوم والقبيلة والاعتزاز بها تحت راية الإسلام لا مأخذ عليه، ولا خوف فيه، ما دام الاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله هما المرجع والفصل²

من الملاحظ في قصائد حسان الفخرية أن المعاني الإسلامية لم تغب عن نفسه، فهو يجعلها دائماً الهدف والغاية، لأنه يعقب فضائل قومه بقوله: (فلما أتى الإسلام) فبين مناقب قومه التي أكرمهم الله بها في الإسلام، وكأنه يريد القول أن هذه الفضائل كانت بهم وهم يتخبطون في ظلمات الجهل والغي والضلال، فلما جاءهم النبي الكريم أكد على هذه الفضائل وأقامها على أساس من التقوى والورع والفضل فربت فيهم واشتد عودها. ومن ذلك قوله³:

[الطويل]

وكنّا ملوك الناس قبل محمدٍ فلما أتى الإسلام كان لنا الفضل
وأكرمنا الله الذي ليس غيره إله بأيام مضت ما لها شكّل

ثم يقول رابطاً مجدهم بالتلديد القديم بالمجد الحديث (الإسلام):⁴

¹ ابن هشام، السيرة، 466/4.

² نايف معروف، الأدب الإسلامي، 245.

³ يردد من قوله كان لنا الفضل: إذ آووا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وكانوا أنصاره، وهذا فضل لا فضل بعده. حسان، الديوان، 141.

⁴ حسان، م.ن، 142.

[الطويل]

أولئك قَوْمِي خَيْرُ قَوْمٍ بِأَسْرِهِمْ فما عُدَّ من خَيْرٍ قَوْمِي له أَهْلٌ¹
يُرَبُّونَ بِالْمَعْرُوفِ مَعْرُوفًا مِنْ مَضَى وَلَيْسَ عَلَيَّ مَعْرُوفِهِمْ أَبَدًا قُفْلٌ²

ثم يذكر تلك الفضائل التي تحلوا بها والتي هي من جميل القيم، كالكرم والبذل وتحمل الديات والمغارم والوفاء وحفظ الجوار والعدل والشجاعة، ويؤكد عليها بذكر صنيع كل من سعد بن معاذ وحنظلة بن أبي عامر، وكلاهما من الأنصار، يقول:

[الطويل]

إِذَا اخْتَبَطُوا لَمْ يُفْحَشُوا فِي نَدِيهِمْ وَلَيْسَ عَلَيَّ سَوْأَلِهِمْ عِنْدَهُمْ بُخْلٌ³
وَحَامِلُهُمْ وَافٍ بِكُلِّ حَمَالَةٍ تَحَمَّلَ لَا غَرَمَ عَلَيْهِ وَلَا خَنْدُلٌ
وَجَارُهُمْ فِيهِمْ بَعْلِيَاءَ بَيْتِهِ لَهُ مَا تَوَى فِيْنَا الْكِرَامَةَ الْبَذْلُ
وَقَاتَلَهُمْ بِالْحَقِّ أَوْلُ قَاتِلِي فَحَكْمُهُمْ عَدْلٌ وَقَوْلُهُمْ فَصْلٌ
إِذَا حَارَبُوا أَوْ سَأَلُوا لَمْ يُشَبِّهُوا فَحَرِيْبُهُمْ خَوْفٌ وَسِلْمُهُمْ سَهْلٌ
وَمَنَا أَمِينُ الْمُسْلِمِينَ حَيَاتِهِ⁴ وَمَنْ عَسَلَتْهُ مِنْ جَنَابَتِهِ الرُّسُلُ⁵

ومن قصائده على ذلك المنوال قصيدته التي مطلعها:⁶

[المتقارب]

أولئك قَوْمِي فَإِنْ تَسَأَلِي كَرَامًا إِذَا الضَّيْفُ يَوْمًا أَلَمُّ

والتي يذكر فيها قيمهم كالكرم والشجاعة، ويعقب بعد ذلك بفضل الإسلام عليهم، وبما بذلوه هم من

¹ يريد أن باب معروفهم مفتوح لكل طارق.

² يربون بالمعروف أي ينمون بمعروفهم معروف أسلافهم، فهو يربط بين قيمهم وفضائلهم في الجاهلية التي أقرها الإسلام فيربونها ويزيدون عليها.

³ اختبطوا: إذا قصدوا في المجلس لم يفحشوا.

⁴ وأمين المسلمين سعد بن معاذ الأوسي حين حكمه النبي صلى الله عليه وسلم في بني قريظة وبني النضير، فحكم أن يقتل مقاتلتهم، وتسبى ذريتهم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: لقد حكمت بحكم الله عز وجل، صحيح مسلم، حديث رقم: (4574).

⁵ هو حنظلة بن أبي عامر خرج يوم أحد وكان قد أصاب من أهله، فلما سمع الصيحة خرج مبارزاً فاستشهد فغسلته الملائكة، ينظر ابن هشام، السيرة، 68/3.

⁶ حسان، الديوان، 136.

أجله. وقال في موضع آخر يفخر بقومه الأنصار:¹

[البسيط]

قَومِي الَّذِينَ هُمُ آوُوا نَبِيَّهُمْ وَصَدَّقُوهُ وَأَهْلُ الْأَرْضِ كُفَّارُ
فَأَنْزَلُوهُ بَدَارٍ لَا يُخَافُ بِهَا مَنْ كَانَ جَارُهُمْ دَارًا هِيَ الدَّارُ
وَقَاسَمُوهُ بِهَا الْأَمْوَالَ إِذْ قَدِمُوا مُهَاجِرِينَ وَقَسَمَ الجَاوِدِ النَّارُ

ويفخر بعفة شبابهم وبكرمهم وحفاظهم على الجار، فيقول:²

[الطويل]

مَسَامِيحُ بِالْمَعْرُوفِ وَسَطَ رِحَالِنَا وَشَبَّانِنَا بِالْفَحْشِ أَبْخَلُ بِأَخْلٍ
وَمَنْ خَيْرِ حَيِّ تَعْلَمُونَ لَجَارِهِمْ إِذَا اخْتَارَهُمْ فِي الْأَمْنِ أَوْ فِي الزَّلَازِلِ

ومنه قوله:³

[الطويل]

فَمَا أَحَدٌ مِنَّا بِمُهْدٍ لِحَارِهِ أَذَاةٌ وَلَا مُزْرٍ بِهِ وَهُوَ عَامِدُ
بِأَنَا نَرَى حَقَّ الْجَوَارِ أَمَانَةً وَيَحْفَظُهُ مِنَّا الْكَرِيمُ الْمُعَاهِدُ

وفي كثير من قصائده يؤرخ لهجرة النبي صلى الله عليه وسلم، وإيوائهم له وللمهاجرين، وقيامهم بأسيافهم دونه، ويذكر فضائلهم وقيمهم وأنهم ازدادوا بالإسلام عزاً فوق عزهم.

وقد افتخر حسان بذاته، وأشاد بصفاته، وترنم بالكثير من الأخلاق والقيم والمحامد الكامنة فيها. ومن جياذ قصائده في هذا المجال لاميته التي يصور فيها عاذلته وهي تعذله وتصرفه عن المكارم والمحامد خشية الموت أو الفقر والإملاق. وحديثه معها من الأساليب التقليدية المتبعة، يقول حسان:⁴

[الطويل]

لِكَ الْخَيْرِ غُضِّي اللَّوَمَ عَنِّي فَإِنِّي أَحِبُّ مِنَ الْأَخْلَاقِ مَا كَانَ أَجْمَلًا
دَرِينِي وَعِلْمِي بِالْأُمُورِ وَشَيْمَتِي فَمَا طَائِرِي فِيهَا عَلَيْكَ بِأَخْيَلًا⁵

¹ حسان، الديوان، 388.

² حسان، م.ن، 166.

³ حسان، م.ن، 196.

⁴ حسان، م.ن، 271-272.

⁵ الأخيل: طائر يقع على دبر البعير، يقال أنه لا ينقر دبر بعير إلا خزل ظهره، والمراد به هنا: الشؤم.

أَلَمْ تَعَلَّمِي أَنِّي أَرَى الْبُخْلَ سُبَّةً وَأَبْغَضُ ذَا اللَّوْنَيْنِ وَالْمُتَنَقِّلًا
إِذَا انصَرَفَتْ نَفْسِي عَنِ الشَّيْءِ مَرَّةً فَلَسْتُ عَلَيْهِ آخِرَ الدَّهْرِ مُقْبِلًا

ويتغنى بفضائل نفسه في موضع آخر، فيقول أنه مجبول على السماحة أكان فقيراً أم غنياً، وأن المال لا وزن له عنده ولا قيمة، فكم من أقوام ذوي مال لا عقل لهم ولا خير عندهم، كالماء الذي يروي الشجر البالي، ويشيد حسان في هذه الأبيات بالصدقة والود وحسن المعاشرة ويجعلها من خلال الكريمة، فكم من أخ مؤتمن شريف عاشره ثم فارقه من غير بغضه أو كراهية. يقول:¹

[البسيط]

لَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنِّي غَالِبِي خُلُقِي عَلَى السَّمَاحَةِ صُغُوبًا وَذَا مَالِ
وَالْمَالِ يَغْشَى أَنَسًا لَا طَبَاحَ لَهُمْ كَالسَّيْلِ يَغْشَى أُصُولَ الدَّنَدَنِ الْبَالِي
كَمِ مِنْ أَخِي ثِقَةٍ مَخْضٍ مَضَارِيهِ فَارْقُتْهُ غَيْرَ مَقْلِي وَلَا قَالِي

ويفخر في نفسه في موضع آخر مبيناً أجمل القيم فيها:²

[الطويل]

وَمَهْمَا يَكُنْ مِنِّي فَلَسْتُ بِكَادِبٍ وَلَسْتُ بِخَوَّانِ الْأَمِينِ الْمُجَامِلِ
وَإِنِّي إِذَا مَا قُلْتُ قَوْلًا فَعَلَّتْهُ وَأُعْرِضُ عَمَّا لَيْسَ قَلْبِي بِفَاعِلِ

ويقول في معرض حديثه عن نفسه في هجاء ابن الزبير:³

[المتقارب]

وَرِثْتُ الْفَعَالَ وَبِذَلِ النَّوَا لِ وَالْمَجْدَ عَنْ كَابِرِ كَابِرِ
وَحَمَلَ الدِّيَاتِ وَفَكَ الْغَنَا ةِ وَالْعِزَّ فِي الْحَسْبِ الْفَاخِرِ

ويعتز بطباعه، فهو لين الجانب، وسهل المعاشرة مع الصديق، لكنه في الوقت نفسه قادر على تقويم رأس المتكبر، وذلك بضرب عنقه، يقول:⁴

[الطويل]

وَإِنِّي لَسَهْلٌ لِلصَّادِقِ وَإِنِّي لِأَعْدِلُ رَأْسَ الْأَصْعَرِ الْمُتَمَايِلِ

¹حسان، الديوان، 147.

²حسان، م.ن، 280.

³حسان، م.ن، 116.

⁴حسان، م.ن، 167.

ومن فخره الذي يتجلى فيه حرصه على عرضه وشرفه قوله:¹

[الطويل]

وَأَجْعَلْ مَالِي دُونَ عِرْضِي وَقَايَةً وَأَحْجُبْهُ كَمَا لَا يَطِيبُ لَأَكْمَلِ

ويلاحظ في قصيدة الفخر الإسلامية عند حسان أمور ثلاثة هي:

1. أنه يربط فخره بقومه في الإسلام، فيذكر مناقبهم أولاً ثم يذكر أنهم ازدادوا عزاً ومنعة ومجداً بدخولهم في الدين الجديد.
2. أنه لم يسرف ولم يغال في فخره. فكان فخره ضمن القيم المتوازنة التي أقرها الإسلام دون مبالغة أو تهويل، لا كما عرف عن الفخر الجاهلي الذي يقوم على التعالي والتكبر والإسراف، إذ يقوم الفخر الإسلامي على الحقائق الواضحة الثابتة دون غلو أو تزييف، لأن الهدف في الإسلام من وراء هذا الفخر الهداية والرشد وتوطين النفس على الفضائل التي جبلت عليها.
3. ليس له من الفخر الذاتي إلا القليل. على النقيض مما عرف عنه في جاهليته. وكأنه يريد القول أن الذات الإسلامية مهما علت تتصهر في بوتقة الإسلام، فيصبح عزها عزه، وفخرها فخره، وأن تحقيق الذات والسمو بها يكون ضمن تحقيق منهج الإسلام وشرعه. وما حاجة حسان إلى تحقيق ذاته في الإسلام وقد نال أعلى مرتبة تطلبها نفس شاعر، إنها مرتبة الشرف الأولى، ألا وهي مرتبة شاعر النبوة.

ثالثاً: القيم الإنسانية في الرثاء

يخلو شعر حسان الجاهلي من الرثاء، فهو لم يرث أحداً، لا من ملوك الغساسنة الذين وهبهم مدحه، ولا من نوي القري. إنما جاء جل رثائه في الإسلام بدافع الرابطة الدينية، فجاء وفقاً على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم، وشهداء المسلمين في بدر ومؤتة وغيرها من الغزوات والفتوح. ولم يرث غيرهم من أهله وذوي قرياه إلا بنتاً له بكاهها بأبيات قليلة. ولا يوجد تعليل لهذه الظاهرة الغريبة في شعر حسان -خلو ديوانه الجاهلي من شعر الرثاء- فليس من المعقول أنه لم يرث أحداً قط، فذلك مخالف للسنن الكونية، ولعل الباحثين يهتدون فيما بعد لتعليل تلك الظاهرة.

¹ حسان، الديوان، 167.

ومن الملاحظ في مراثي حسان الإسلامية ثلاث ظواهر هي :

أولها: مخالفته المنهج المألوف في الرثاء، إذ جمع بين الرثاء والهجاء على غير ما ألف العرب، وذلك لأن أكثر من رثاهم لم يموتوا حتف أنوفهم، إنما كانوا ممن استشهدوا في سبيل الله، فكان من الطبيعي أن يرثيهم وأن يهجو قاتليهم في الوقت ذاته.¹

ولم تكن تلك الظاهرة في شعر حسان وحده، إنما لجأ إليها المخضرمون إجمالاً، مزجوا رثاءهم بالهجاء وبيان سوء المنقلب، والمصير الذي يصير إليه قتلى المشركين. واقتزان هذا اللون من الشعر بالوعيد والتهديد للأعداء وتعبيرهم بالهزائم التي لحقت بهم.

والظاهرة الثانية: خلو رثائه من الحكمة، ويعلل محمد طاهر درويش ذلك بقوله: "الظاهر أن حسان كان مشغولاً عن التأمل والحكمة والنظرة الفلسفية بموالاتة القول في الأحداث العاجلة والمتراكبة، ولم يكن وقته يتسع لأكثر من قصص المصاب وبكاء الشهداء، وكان يرى أن خط الرثاء بالوعيد والتهديد والتحريض والهجاء أولى مما عداه لأنه أجدى في تلك الظروف. وربما أغراه بانتهاج هذه الطريقة أن القرآن قد أتى من الحكمة وتوجيه العقل البشري إلى النظر والتفكير بالشيء الكثير"²

والظاهرة الثالثة: تخليه عن العصبية القبلية التي صبغت كثيراً من شعره الجاهلي، فقد خص خبيباً الأوسي بأربع من مرثيته، في الحين الذي لم يرث فيه عبد الله بن رواحه وهو خزرجي من قومه إلا رثاءً عابراً مع غيره من شهداء مؤتة، وهذا دليل براءته من العصبية القبلية لقومه الخزرج خاصة. وهذه الظاهرة من أهم الظواهر التي بينت القيم عند حسان إذ تخلى عن العصبية القبلية وما تخلفه وراءها من منغصات وأحقاد.

وقد ارتبطت مراثي حسان بعناصر الفكر الإسلامي كالثواب والجنة والقضاء والقدر والشفاعة والإيمان، واقتداء النبي صلى الله عليه وسلم بالأرواح، والتقوى والهداية والرحمة. وبذلك أصبح شعر الرثاء "صورة من صور الدعاية للدين وبت الأفكار الإسلامية، لأن شعراء المسلمين كانوا يمزجون رثاءهم لقتلاهم بثواب الآخرة والنعيم بجنان الخلد، والاستشهاد في سبيل الدين هو الغاية السامية التي يسعى إليها المسلم. فالناحية المعنوية لدى المسلمين قوية ظاهرة، ولم تقع هذه الناحية

¹ ينظر: محمد طاهر درويش، حسان بن ثابت، 452.

² محمد طاهر درويش، م.ن، 447، وينظر: غازي طليمان وزميله، الشعر في عصر النبوة والخلافة الراشدة، 38.

للمشركين، فلم يجدوا التبرير المقنع لقتل أصحابهم، ولم يكن أمامهم الهدف السامي البعيد الذي ترتبط به نفوسهم¹.

كثير من الفضائل والقيم التي امتاز بها المرثي تجسدت في أشعاره، إلا أن أكثر حديثه جاء عن المآثر الإسلامية الخالصة والشمائل التي اختص بها الدين. فقد "تغيرت بعد الإسلام مناقب التائبين، وتبدلت الشمائل التي يعددها الشعراء في مرثيهم، إذ أخضعوها للمقاييس الإسلامية الجديدة، فتحدثوا بسيرة لم تكن تعرفها الجاهلية"².

مرثيات المصطفى صلى الله عليه وسلم تعد من أسمى مرثيه قاطبة لأن فقدته كان مصيبة فادحة فجع بها المسلمون جميعاً، أحس حسان بها أنه فقد راعيه المسؤول وظله الظليل، وقد عبر عن ذلك بقوله:³

[البسيط]

خَيْرَ الْبَرِيَّةِ إِنِّي كُنْتُ فِي نَهْرٍ جَارٍ فَأَصْبَحْتُ مِثْلَ الْمُفْرَدِ الصَّادِي⁴

وقد شاع في مرثيه للنبي صلى الله عليه وسلم ما شاع في الرثاء الجاهلي من نغمات الحزن والأسى والألم والفجعة إلا أنه ضمنها أيضاً بالمعاني الإسلامية كالتقوى والجود والرحمة والبر وغيرها. وتحدث أيضاً عن مآثر النبي صلى الله عليه وسلم وخصائله موضعاً أهم القيم والفضائل التي تجلت في شخصه صلى الله عليه وسلم، فهو صاحب رأي سديد ورشيد، وصاحب علم وحلم ورحمة وعطف وعفة ووفاء وكرم. يقول حسان:⁵

[الطويل]

تُهَيْلُ عَلَيْهِ التُّرْبُ أَيْدٍ وَأَعْيُنُ عَلَيْهِ وَقَدْ غَارَتْ بِذَلِكَ أَسْعَدُ
لَقَدْ غَيَّبُوا حِلْمًا وَعِلْمًا وَرَحْمَةً عَشِيَّةً عَلَّوهُ الثَّرَى لَا يُوسَّدُ
إِمَامٌ لَهُمْ يَهْدِيهِمُ الْحَقَّ جَاهِدًا مُعَلِّمٌ صِدْقٍ إِنْ يُطِيعُوهُ يَسْعَدُوا
عَفْوٌ عَنِ الزَّلَاتِ يَقْبَلُ غُذْرَهُمْ وَإِنْ يُحْسِنُوا فَاللَّهُ بِالْخَيْرِ أَجْوَدُ
وَإِنْ نَابَ أَمْرٌ لَمْ يَقُومُوا بِحَمَلِهِ فَمِنْ عِنْدِهِ تَيْسِيرٌ مَا يَنْتَشِدُّ
عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَجُورُوا عَنِ الْهُدَى حَرِيصٌ أَنْ يَسْتَتَقِيمُوا وَيَهْتَدُوا

¹ يحيى الجبوري، خصائص شعر المخضرمين، 119.

² سامي مكي العاني، الإسلام والشعر 161.

³ حسان، الديوان، 208.

⁴ يريد أنه كان رياناً ثم أصبح في عطش شديد.

⁵ حسان، م.س، 378.

عطوفٌ عليهم لا يُثنَى جناحُهُ
وما فُقدَ الماضونَ مثلَ محمَّدٍ
أَعَفَّ وأوفى ذمَّةً بعدَ ذمَّةٍ
وأبذلَ مِنه للطَّريفِ وتالِدِ
إلى كَنَفٍ يحنو عليهم ويمهِّدُ
ولا مثله حتَّى القيامةِ يُفقدُ
وأقربُ مِنه نائلاً لا يُنكَدُ
إذا ضَنَّ معطاءً بما كان يُتَلدُ¹

وله مرتبة أخرى يجمع فيها محامد المصطفى صلى الله عليه وسلم، فهو أشرف الناس، وأرف الخلق بالخلق، وأشدهم حفاظاً على العهد، وأثبتهم في الشدائد، وأصبرهم على البلاء، وأبذلهم للمعروف. يقول:²

[البسيط]

بِالله ما حملتُ أنثى ولا وضعتُ
ولا مشى فوق ظهرِ الأرضِ من أحدٍ
مِنَ الذي كان نوراً يُسْتَضأُ بهِ
مصدِّقاً للنبيينَ الألى سألوا
مثلَ النَّبيِّ رسولِ الرَّحمةِ الهادي
أوفى بذمَّةِ جارٍ أو بميعادِ
مُبَارِكِ الأمرِ ذا حَزْمٍ وإرشادِ
وأبذلَ النَّاسِ للمَعروفِ للجادي³

وقد جمعت الأبيات السابقة القيم والفضائل مع المعاني الإسلامية المستحدثة في الرثاء كالرحمة والهدى والنور والبركة وتصديق الأنبياء. وقد توسع في رسم القيم النبوية حتى غدت بعض قصائده مناراً في ذلك:⁴

[البسيط]

يا عَيْنُ جودي بِدمعِ منك إسبالِ
على رسولِ لنا مَحْضِ مآرِبُهُ
حامي الحَقِيقَةِ نَسَّالِ الوديقةِ فَمَا
كسَّابِ مكرمةِ مطعامِ مَسْغِبَةِ
عَفِّ مكَاسِبُهُ جَزَلِ مواهِبُهُ
واري الزَّنَادِ وقوَادِ الجِيَادِ إلى
ولا تَمَلَّنْ من سَحِّ وإغوالِ
سمحِ الخَلِيقَةِ عَفِّ غيرِ مَجْهَالِ
كِ العُنَاةِ كَرِيمِ ماجِدِ عالِ
وهَّابِ عانِيَةِ جَنَاءِ شِمَالِ⁵
خَيْرِ البَرِيَّةِ سَمَحِ غيرِ نَكَالِ
يَوْمِ الطَّرَادِ إذا شُبَّتْ بأجْدَالِ

¹ الطريف: المال المحدث بعكس التالد: المال القديم ابن منظور، اللسان، مادة طرف.

² حسان، الديوان، 207

³ الجادي: السائل. ابن منظور، اللسان، مادة جدى.

⁴ حسان، م.س، 211.

⁵ الوديقة: شدة الحر ودنو الحمى، ويقال للحرب الشديدة، ابن منظور، اللسان، مادة ودق.

جاء رثاء حسان بن ثابت للمسلمين على شاكلتين: أفراداً وجماعات، فرثى أبا بكر الصديق بمرثية واحدة¹، ورثى عمر بن الخطاب بواحدة أيضاً²، بينما رثى عثمان بن عفان سبع مرات³، مما يدل على عثمانيته، كما رثى جعفر بن أبي طالب⁴، وحمزة بن عبد المطلب⁵؛ كل منهما بمرثيتين، بمرثيتين، ورثى خبيب بن عدي⁶ بمرثيتين اثنتين، ورثى زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحه كليهما في مرثية واحدة⁷، وله في أهله مرثية واحدة لابنته⁸. ورثى أيضاً شهداء المسلمين عامة الذين سقطوا في المعارك والحروب. وقد جمع في رثائه لأبي بكر الصديق رضي الله عنه ما بين القيم المتعارف عليها كالعدل والوفاء والصدق، وبين ما قدمه للدين والرسالة من تصديق للنبي صلى الله عليه وسلم، يقول: ⁹

[البسيط]

إِذَا تَذَكَّرْتُ شَجْوًا مِنْ أَخِي ثِقَةً فَإِذْكَرْ أَخَاكَ أَبَا بَكْرٍ بِمَا فَعَلَا
خَيْرُ الْبَرِيَّةِ أَتْقَاهَا وَأَعَدَّلَهَا بَعْدَ النَّبِيِّ وَأَوْفَاهَا بِمَا حَمَلَا
الثَّانِي الصَّادِقَ الْمَحْمُودَ مَشْهُدُهُ وَأَوَّلَ النَّاسِ مِنْهُمْ صَدَقَ الرُّسُلَا

وهذه الفضائل التي ذكرها حسان في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قد ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم فيه بقوله لأصحابه: [*إِنْ مِنْ أُمَّنَ النَّاسِ عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصَحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا*]. ¹⁰

ورثى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، مبيناً فجيعته المسلمين بقتله، موضعاً أهم القيم والمآثر المتجسدة فيه، فهو رؤوف بالمؤمنين، غليظ على الكفار، أهل ثقة، صادق في العمل والقول، سريع إلى الخيرات، لا يخشى في الحق لومة لائم، يقول: ¹¹

[الطويل]

¹ حسان، الديوان، 211.

² حسان، م، ن، 212.

³ حسان، م، ن، 216-212.

⁴ حسان، م، ن، 223-222.

⁵ حسان، م، ن، 219-218.

⁶ حسان، م، ن، 226-224.

⁷ حسان، م، ن، 221.

⁸ حسان، م، ن، 242.

⁹ حسان، م، ن، 211.

¹⁰ صحيح مسلم، حديث رقم: (6120).

¹¹ حسان، الديوان، 212.

وَفَجَّعْنَا فِيهِ رُوزًا لَا دَرَّ دَرُّهُ بِأَبْيَضٍ يَتَلَوُ الْمُحْكَمَاتِ مُنِيبٍ
 رُوُوفٍ عَلَى الْأَدْنَى غَلِيظٍ عَلَى الْعِدَا أَخِي ثِقَةٍ فِي النَّائِبَاتِ نَجِيبِ
 مَتَى مَا يَقُولُ لَا يَكْذِبُ الْقَوْلَ فَعَلُّهُ سَرِيعٍ إِلَى الْخَيْرَاتِ غَيْرِ قَطُوبِ
 مَطِيعٍ لِأَمْرِ اللَّهِ بِالْحَقِّ عَارِفٍ بَعِيدُ الْأَنْامِ عِنْدَهُ كَقَرِيبِ

فقد جمعت شخصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه خلال الخير والصدق والفضل، مما حدا بالنبي الكريم صلى الله عليه وسلم أن يقول فيه قوله الشهير، والذي ينفي عنه رضي الله عنه أي مسلك فيه اتباع لغواية أو لضلال: [والذي نفسي بيده! ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك]¹.

وقد كان لعثمان بن عفان رضي الله عنه نصيب الأسد في المراثي، وقد جسد فيها مناقبه وخلاتقه، فهو صاحب كرم وجود، يجد السائل عنده طلبه ومراده، حتى وإن خلت دار عثمان وخوت، يقول:²

[البيط]

إِنْ تَمَسَّ دَارُ بَنِي عُثْمَانَ خَاوِيَةً بَابٌ صَرِيعٌ وَبَابٌ مَحْرَقٌ خَرِبٌ
 فَقَدْ يَصَادِفُ بَاغِي الْخَيْرِ حَاجَتَهُ فِيهَا وَيَأْوِي إِلَيْهَا الْعُرْفُ وَالْحَسَبُ

ويفصفه رضي الله عنه أنه ذو بلاء وصدق ووفاء بقوله:³

[الطويل]

أَلَمْ يَكْ فَيَكْمُ ذَا بِلَاءٍ وَمُضْدَقٍ وَأَوْفَاكُمُ قِدْمًا لَدَى كُلِّ مَشْهَدٍ

فقد سلك عثمان بن عفان رضي الله عنه في الدعوة طريقاً قل طارقوه، إذ ألقى بنفسه وماله في خدمة الدعوة ونصرة الحق، فقد أحب النبي صلى الله عليه وسلم حباً عظيماً، وبذل له طاعته دونما حدود، وتابعه بالسر والجهر، والعسر واليسر، وما تلكأ لحظة وما تأخر في موقف. ولعل أبرز أخلاقه وأشدّها تمكناً من نفسه خلق الحياء، الذي تأصل في كيانه فكان ممعناً في الأصالة، وقد أشاد النبي صلى الله عليه وسلم به فقال: [إن عثمان رجل حيي]⁴.

¹ صحيح مسلم، حديث رقم: (6152).

² حسان، الديوان، 212.

³ حسان، م.ن، 213.

⁴ صحيح مسلم، حديث رقم: (6160).

ومن رثائه لجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه مبيناً حزمه وشجاعته ووفاءه وصدقه وكرمه بقوله:¹

[الكامل]

ولقد جزعتُ وقُلْتُ حينَ نُعيتَ لي
بالبيض حينَ تُسَلُّ منَ أَعْمادِها
بعدَ ابنِ فاطمةَ المباركِ جعفرِ
رُزءاً وأكرمِها جميعاً محتدماً
للحقِّ حينَ ينوبُ غيرَ تنخُلِ
فُحشاً وأكثرها إذا ما تُجْتدى
عالخيرِ بعدَ محمدٍ لا شَبهه
مَنْ لِلجِلادِ لَدَى العُقَابِ وظلَّها²
يوماً وإنهالَ الرِّمَاحِ وعَلَّها³
خيرَ البريِّةِ كُلِّها وأجَّها
وأعزَّها متظلماً وأذلَّها
كذباً وأغمَرها يداً وأقلَّها⁴
فَضلاً وأبذلَّها ندىً وأدلَّها⁵
بشرِّ يَعُدُّ منَ البريِّةِ كُلِّها⁶

ويؤكد على قيمتي الوفاء والحزم في قصيدة أخرى، فيجعلها خصلتين مستمدتين من شخص الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قال: [أشبهت خُلقي وخُلقي]⁷. قال حسان:⁸

[الطويل]

وكنَّا نرى في جَعْفَرٍ من مُحَمَّدٍ
وفاءً وأمراً حازماً حينَ يأمر

وله في مناقب شهيد أحد الأكبر حمزة بن عبد المطلب الشيء الكثير، إذ فجع بمقتله من ناحية، وبما فعلته هند بنت عتبة من ناحية أخرى. وقد أضفى على حمزة في قصيدته نعوت الخير كالكرم والجود والبسالة والإقدام والشجاعة، فهو الدرع الواقي الذي يدفع المصائب والنوازل عن المسلمين، وهو المحافظ على عرضه وشرفه، وما كان يوماً بالمتواني أو المتخاذل. يقول:⁹

¹ حسان، الديوان، 222.

² العقاب: اسم راية الرسول صلى الله عليه وسلم

³ بالبيض: متعلق بالجلاد، وعلَّها: الشرب الثاني أي وفعل الرماح مرة بعد مرة.

⁴ للحق متعلق بقوله وأذلها في البيت قبله، غير تنحل يريد: غير ذي إدعاء وكذب.

⁵ فحشاً تمييز لقوله وأقلها.

⁶ قولة ع الخير: أي على الخير وهي متعلق بالبيت قبله بقوله وأذلها، يريد أنه أدل البرية على الخير بعد محمد صلى الله عليه وسلم.

⁷ مسند الإمام أحمد، حديث رقم: (2040).

⁸ حسان، الديوان، 224.

⁹ حسان، م.ن، 220-221.

[السريع]

دع عنك داراً قد عفا رَسْمُهَا
المالئ الشَّيْزِي إِذَا أَغْصَفَتْ
والتَّارِكِ الْقِرْنَ لَدَى لِيَدِهِ
واللَّابِسِ الْخَيْلِ إِذَا أَحْجَمَتْ
أَبْيَضَ فِي الذَّرْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ
كَمَا نَرَى حَمْزَةَ حِرْزاً لَنَا
وَمَا كَانَ فِي الْإِسْلَامِ ذَا تُذْرٍ

وَابِكِ عَلَى حَمْزَةِ ذِي النَّائِلِ
عَبْرَاءُ فِي ذِي السَّنَةِ الْمَاحِلِ¹
يَعْتُزُّ فِي ذِي الْخُرْصِ الذَّائِلِ²
كَالْأَيْثِ فِي غَابَاتِهِ الْبَاسِلِ
لَمْ يَمِرْ دُونَ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ³
مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَابَتَا نَازِلِ
لَمْ يَكِ بِالْوَانِي وَلَا الْخَازِلِ⁴

وقال عنه أيضاً:⁵

[الطويل]

أَخِي ثَقَّةٌ يَهْتَزُّ لِلْغُرْفِ وَالنَّدى
بَعِيدِ الْمَدَى فِي النَّائِبَاتِ صَبُورُ

وتظهر الحكمة في موضع آخر يدعو فيه إلى قيمة عظيمة في هذا المقام وهي الصبر فيقول⁶:

[الطويل]

بِإِذَا وَقْفَدَانِ الْحَبِيبِ بِلَيْتَةٍ
وَكَمْ مِنْ كَرِيمٍ يَبْتَلَى ثُمَّ يَصْبِرُ

أما رثاؤه لشهداء المسلمين في الغزوات والمعارك فقد ضمنه المعاني الإسلامية كنصرة النبي صلى الله عليه وسلم، والذود عن الدين وجهاد الكفار، ومصير كلا الفريقين، والعقاب والجزاء والجنة والنار، وكانت المعاني أكبر من ذكره للقيم والفضائل التي امتاز بها الشهداء رضوان الله عليهم، ولعل ذلك ناتج عن امتزاج رثائه بالإنذار والتهديد والوعيد، وبالمقارنة بين مصير كلا الفريقين، وهذا الأسلوب أليق بشهداء الحروب من ذكر المآثر والفضائل والقيم.

¹ الشيزي: جفان تعمل من خشب الشيز وهو خشب أسود. ابن منظور، اللسان، مادة شيز.

² القرن: الذي يقاوم في القتال. ابن منظور، اللسان، مادة قرن. اللبد: السرج، ابن منظور، اللسان، مادة لبد. ذي الخرس:

الرمح، ابن منظور، اللسان، مادة خرص.

³ أبيض: يراد بها أبيض العرض، ويصفه بأنه لا يدفع حقاً بباطل.

⁴ ذا تدرا: ذا حفاظ ومنع وقوة ومدافعة، ابن منظور، اللسان، مادة درا.

⁵ حسان، الديوان، 219.

⁶ حسان، م، 223.

وخلص القول: أن تجديد حسان في رثائه جاء في أمرين اثنين:
أولهما: هو دخول شعر حسان في باب المراثي والذي لم يطرقه قط في جاهليته.
ثانيهما: إنه استبدل العصبية القبلية بالنزعة الدينية والرابطة الأخوية.
ولعل الدين كان هو الدافع الأكبر وراء هذه الجودة وهذا التغيير.

المبحث الرابع: علاقة الهجاء بالقيم الإنسانية

لم يكن للهجاء نصيب وافر في شعر حسان الجاهلي، وكل ما جاء به كان متصلاً بنغمة الفخر المتعالية في معارضاته لقيس بن الخطيم. فكان يجمع ما بين الفخر بقومه وما بين الهجاء لأعدائه، وكان يطيل في نغمة الفخر تلك حين يريد الهجاء، ليقيم المفاضلة بينه وبين الخصم، وكأنه يرى السبيل للحط من شأن عدوه هو ذلك الفخر والاستعلاء.

أما في الإسلام فقد اشتدت نبرة الهجاء تلك، لتغيّر الأسباب الداعية إليه، فبعد أن استقر النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة، وبدأت شوكة المسلمين تقوى، بدأت عداوة المشركين واليهود تظهر بوضوح، متمثلة في أهاجيهم الصريحة للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم ودعوته، وقد أفضحوا في أهاجيهم حتى خاضوا في الأعراض والأنساب ليردوا كل من أسلم إلى دين آباءه وأجداده.

أخذ النبي الكريم صلى الله عليه وسلم إزاء هجمة المشركين الشرسة يدفع الشعراء المسلمين للدخول في هذه الحرب الكلامية ويستحثهم على القول، ويتعهدهم بالرعاية، وذلك انتصاراً لدين الله ودفاعاً عن أعراض المسلمين. وقد انبرى حسان لشعراء الكفر مستجمعاً كل ما أوتي من قوة وفصاحة وبلاغة وموهبة حتى شفى واستشفى.

زخر شعر حسان الإسلامي بالهجاء، ولكن كثرته تلك لا تعني أنه احترف المطاعنة والملاعنة وجعلهما ديدنه منه على النحو الذي شهدناه عند شعراء النقائض الثلاث، جرير والأخطل والفرزدق، إنما تعني كثرته تلك أنه محامي الدعوة الإسلامية، والمنافح عنها، والزاد على مناوئتها بالسلح الذي تمرس به، ألا وهو الشعر.

لم ينبعث هجاؤه عن طبيعة هجاء حاقدة حاسدة، ولو كان الأمر كذلك لزخر به شعره الجاهلي كما زخر به شعره الإسلامي، ولسلطه على كثير من الناس لأتفه الأسباب، ساباً لآعناً بهدف السخرية وإفشاء العيوب، كما هو الحال عند الحطيئة، الذي كان ذميمة الخلق، مغمور النسب، أو كبشار بن برد الذي عرف عنه تشوه خلقته وأن أباه كان مولى مهيناً، أو الجاحظ الذي كان قصيراً ذمياً، وكلهم هجاؤون.

لم يكن هجاؤه سوداويًا قبيحاً، يجعله يتصيد عيوب الناس ويكشف عوراتهم، وإنما كان هجاؤه منصّباً على أعداء الدين، مصوباً نحوهم، موجهاً إليهم، محصوراً فيهم، لبيان ضلالتهم، وتسفيه آرائهم، وتوجيه ضربات قاصمة لهم لما قاموا به من إيذاء للنبي الكريم والمسلمين.

فإذا كان غرض المدح تجسيدا للقيم الإنسانية المثالية، التي ترفع من قيمة الفرد والمجتمع، فإن الهجاء الصادق¹ ما هو إلا تصوير لتلك القيم المتصلة بالفرد أو الجماعة أو المذاهب والملل، فحين يهجو الشاعر صفة البخل والشح فإنه يمدح بذلك الكرم والجود والفضل، وحين يذم الجبن والضعف، فإنه يرفع من قيمة الشجاعة والبراعة، وحين يتعرض للفحش والعهر، فإنه يثني على التعفف والستر.

لم يفرق حسان في هجائه ما بين فرد أو قبيلة، وما بين رجل وامرأة، بل هجا كل من يتعرض للإسلام، وقد كانت عدته لذلك: الطعن في الأحساب والأنساب، والنقص من الفضائل وصفات المروءة والتعبير بالنقائص والردائل، ورمي المشركين بالكفر والضلال والغي.

وإن كانت القيم التي اعتنقها حسان وآمن بها في جاهليته وإسلامه واضحة جلية، فإن معاني الهجاء التي ركز عليها في مهجويه هي ما ينافي تلك القيم ويناقضها. فمن الهجاء وإن كان في ظاهره هجاء إلا أن في باطنه وحقيقة أمره إصلاح وتهذيب وتقويم لكل اعوجاج سواء اتصل ذلك بالفرد أو بالجماعة.²

وقد هاجى حسان في إسلامه أفراداً وأقواماً شتى، ذاماً النقائص والعيوب التي اتصفوا بها، معيّراً إياهم بالجبن والغدر والخديعة، وعدم حفظ الجوار، وإضاعة الذمم والمواثيق، واللؤم والسرقة، وعدم حفظ الغيب، وإخلالهم بالأعراف والفضائل.

فقد هجا الحارث بن هشام وعيره بفراره عن أخيه أبي جهل - عمرو بن هشام - يوم بدر، فقال بعد تخلصه من مقدمته الغزلية:³

[الكامل]

إِنْ كُنْتُ كَاذِبَةً الَّذِي حَدَّثْتَنِي فَنَجَوْتُ مَنَجَى الْحَارِثِ بْنِ هِشَامِ

¹ نريد بالهجاء الصادق، ذلك الهجاء البعيد عن الشتم والقذف تبعاً للأهواء الشخصية.

² ينظر: شوقي ضيف، فصول في الشعر ونقده، 20.

³ حسان، الديوان، 108-109.

تَرَكَ الْأَحْبَبَةَ أَنْ يُقَاتِلَ دُونَهُمْ وَنَجَا بِرَأْسِ طِمْرَةٍ وَلِجَامٍ¹
مَلَأَتْ بِهِ الْفَرْجَيْنِ فَارْقَدَتْ بِهِ وَثَوَى أَحَبَّتَهُ بِشَرِّ مَقَامٍ²
وَبَنُو أَبِيهِ وَرَهْطُهُ فِي مَعْرِكِ نَصَرَ الْإِلَهِ بِهِ ذَوِي الْإِسْلَامِ
طَحَّ تَهُمْ وَاللَّهُ يُفِيدُ أُمَّرَهُ حَرْبٌ يُشَبُّ سَعِيرُهَا بِضِرَامِ

وقد أحدثت هذه القصيدة أثرها في الحارث، إذ انتقص حسان بها من شجاعته وفروسيته وبسالته، فرد عليها معتذراً عن فراره بأبيات ذكر الأصمعي أنه لم يسمع عنها في الاعتذار عن فرار³، قال:⁴

[الكامل]

اللَّهُ أَعْلَمُ مَا تَرَكْتَ قِتَالَهُمْ حَتَّى حَبَّوْا مَهْرِي بِأَشَقْرِ مَزِيدِ
وَعَرَفْتَ أَنِّي لَمْ أَقَاتِلْ وَاحِدًا اقْتُلْ وَلَا يَنْكِي عَدُوِي مَشْهَدِي
فَصَدَدْتَ عَنْهُمْ وَالْأَحْبَبَةَ فِيهِمْ طَمَعًا لَهُمْ بِعَقَابِ يَوْمِ مَفْسَدِ

وعيره حسان في قصيدة أخرى وحط من قدره إذ جعل العلاقة عكسية ما بين الحارث وفرسه، فهو عوّل في نجاته على فرسه النجيبة، كريمة الأصل، سريعة العدو، ولم يعوّل على شجاعته وقوته، فهو لا يستحق تلك الفرس النجيبة حين لاذ بالفرار جبناً وخوراً، يقول حسان:⁵

[الكامل]

يَا حَارِ قَدْ عَوَّلْتَ غَيْرَ مَعْوَلٍ عِنْدَ الْهِيَاجِ وَسَاعَةِ الْأَحْسَابِ
إِذ تَمْتَطِي سُورِحَ الْيَدَيْنِ نَجِيْبَةً مَرْطَى الْجِرَاءِ خَفِيْفَةَ الْأَقْرَابِ
وَالْقَوْمُ خَلْفَكَ قَدْ تَرَكْتَ قِتَالَهُمْ تَرْجُو النَّجَاءَ فَلَيْسَ حَيْنَ زِهَابِ
هَلَّا عَطَفْتَ عَلَى ابْنِ أُمَّكَ إِذْ ثَوَى قَعِصَ الْأَسِنَّةِ ضَائِعِ الْأَسْلَابِ
جُبْنًا لَعَمْرُكَ لَوْ ذَهَبَتْ بِمِثْلِهَا لِأَتَاكَ أَخْتَمٌ شَابِكُ الْأَنْبِيَابِ⁶

¹ رأس طمرة: هو الفرس الجواد والأنثى طمرة، ابن منظور، اللسان: مادة طمر.

² ملأت به الفرجين: قاربت ما بين أرجلها لسرعة عدوها.

³ ينظر: ابن عبد البر، الاستيعاب 308/1.

⁴ ابن هشام، السيرة، 18/3.

⁵ حسان، الديوان، 331.

⁶ أختم: السيف العريض، أو الأسد. ابن منظور، اللسان، مادة ختم.

وكذلك عير أبا سفيان بن الحارث بالجبن والضعف والحماقة، حينما هجا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال حسان:¹

[الوافر]

أَلَا أَبْلِغُ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي فَأَنْتَ مُجَوِّفٌ نَخِبٌ هَوَاءٌ²
بِأَنَّ سُيُوفَنَا تَرَكَّتْكَ عَبْدًا وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتُهَا الْإِمَاءُ

وفي قوله (عبداً) دليل على الذل والهوان اللذين لحقا بأبي سفيان جراء جبنه وضعفه، إذ أن العبودية ليست المقصودة بذاتها، وإنما ما لازمها من الذل والهوان.³

وكذلك نظم حسان قصيدة في يوم بدر يعير فيها حكيم بن حزام الأسدي، الذي كان يقاتل في صفوف المشركين ثم هرب من المعركة، وقد شبه حسان فراره هذا بالمهر السريع، يقول:⁴

[الكامل]

نَجَّى حَكِيمًا يَوْمَ بَدْرٍ رَكُضُهُ كَنَجَاءِ مُهْرٍ مِنْ بَنَاتِ الْأَعْوَجِ⁵
أَلْقَى السَّلَاحَ وَفَرَّ عَنْهَا مُهْمَلًا كَالْهَبْرِيِّ يَنْزِلُ فَوْقَ الْمِنْسَجِ⁶

وقد عير أبا جهل ومن معه بشر ما يعير به الرجال، فقد عيرهم بالبخل والشح والجبن، وعدم حفاظهم على الجوار، فجارهم جائع مهان، وقد جمع ذلك كله في بيت واحد. يقول:⁷

[الكامل]

خُرِقَ مَعَاذِلٌ إِذَا جَدَّ الْوَعْيُ بَطْنٌ إِذَا مَا جَارُهُمْ لَمْ يَشْبَعِ

¹ حسان، الديوان، 75.

² مجوف نخب هواء: جبان ضعيف لا قلب له.

³ يشير بسيادة النساء لبني عبد الدار إلى ما كان من مصرعهم، رجلاً إثر رجل يوم أحد، حتى سقط اللواء من أيديهم فأخذته امرأة تدعى عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعت، واجتمعت عليه فريش بعد تفرقها، وبذلك كانت القيادة للمرأة، وأبو سفيان من ذلك البطن من أهل مكة لذلك عيره حسان بهم. ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، 72/3.

⁴ حسان، الديوان، 299.

⁵ بنات الأعوج: فرس لبني هلال بن عامر بن صعصعة، ينظر: حسان، الديوان، 99.

⁶ الهبري: الأسد. ابن منظور، اللسان، مادة هبر.

⁷ حسان، م.س، 366.

وقد عبر حسان كثيراً من مهجويه باللؤم، وكانت تلك النقيصة هي السمة الغالبة على مهجويه، فاللؤم ضد العتق والكرم، واللئيم هو الدنيء الأصل، الشحيح النفس،¹ وهي من المثالب والمعائب التي عدها العرب تذهب بالمروءة والفضل، فقد عاب تلك الخصلة في أبي سفيان إذ يقول:²

[الوافر]

أَلَا أَبْلِغُ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي فَإِنَّ اللُّؤْمَ مَعْدِنُهُ حَرَكَاتَا

وعاب اللؤم في ثقيف، وصوره فيهم كالعبد، يقول:³

[الوافر]

لَوْ أَنَّ اللُّؤْمَ يَنْسَبُ كَانَ عَبْدًا قَبِيحَ الْوَجْهِ أَعْوَرَ مِنْ ثَقِيفٍ

وعابه أيضاً في بني أسلم، وقد نزع منهم كل فضيلة بقوله:⁴

[الطويل]

مَنَازِيحُ عَنِ فِعْلِ الْكِرَامِ مَسَارِعٌ إِلَى اللُّؤْمِ أَنْذَالَ ثُمَادٍ بِحُورِهَا

وقرن اللؤم بالغدر، فقال في هجاء هوازن:⁵

[البسيط]

أَبْلِغْ هَـوَازِنَ أَعْلَاهَا وَأَسْفَلَهَا أَنْ لَسْتُ هَاجِيهَا إِلَّا بِمَا فِيهَا
قَبِيلَةً الْأُمِّ الْأَحْيَاءِ أَكْرَمُهَا وَأَعْدَرُ النَّاسِ بِالْجِيرَانِ وَأَفِيهَا

وحسان بهجائه لا يعتمد إلى السب والقذف أو إظهار قدرته الفنية والخيالية، إنما يعيب فيهم تلك الصفات نظراً لمواقفهم من النبي ومن الدعوة، فالهجاء يحتاج إلى ثقافة اجتماعية عميقة، ومصادر موثوقة⁶ تمكنه من معرفة خليات الناس وعوراتهم ونقاط الضعف فيهم، وميولاتهم النفسية وأهوائهم. وبذلك يتحول الهجاء من فن شعري هدفه السخرية والهمز واللمز وإفشاء العيوب إلى غرض شعري هدفه الإصلاح والنقد وبيان ما يقابل تلك الصفات الذميمة، وأخلاقيات تقود المجتمع

¹ ابن منظور، اللسان، مادة لأم.

² حسان، الديوان، 105.

³ حسان، م، ن، 171.

⁴ حسان، م، ن، 254.

⁵ حسان، م، ن، 256.

⁶ كالتي علمه إياها أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

نحو الأفضل، لا سيما أن هدف حسان الأسمى من وراء تلك الأهاجي دفاعه عن الرسالة، ودفع ما تُرمى به من أباطيل ودعاوى كاذبة.

وإن كان حسان لا يفصل في حديثه عن أضرار تلك الصفات المستقبحة، إلا أن ذكره لها في معرض الهجاء هو بمثابة رفض صريح لها ولفاعليها، كهجائه للحارث بن عامر الذي سرق الغزال من الكعبة¹، يقول:²

[البسيط]

يا حارٍ قد كُنْتَ لولا ما رُميت بهِ لله دَرَكٌ في عزٍّ وفي حسَبِ
جلَّلتِ قَوْمَكَ مَخْزاةً وَمَنْقَصَةً ما لَنْ يُجَلِّلَهُ حَيٌّ مِنَ الْعَرَبِ
يا سائبِ البيتِ ذي الأركانِ حليتهُ أدَّ الْغَزَالَ فَالَنْ يَخْفَى لِمُسْتَلِبِ
سائلِ بني الحارثِ المُزريِّ لمُعْشَرِهِ أينَ الْغَزَالَ عَلَيْهِ الدُّرُّ مِنْ ذَهَبِ
بئسَ البَنُونَ وبئسَ الشَّيْخُ شَيْخُهُمْ تَبَّأَ لِدَلكَ مِنْ شَيْخٍ وَمِنْ عَقَبِ

وكذلك هجا طعمه بن أبيرق الظفري الذي سرق درعي حديد في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال في ذلك³:

[الطويل]

ما سارقُ الدَّرْعَيْنِ إنْ كُنْتَ ذاكِراً بذي كَرَمٍ مِنَ الرِّجالِ أُوْدِغُهُ

وكما امتدح حسان المروءة والحكمة في سيد العشيرة، فقد هجا اللؤم أو الضلال والحياد عن الحق في أبي جهل، إذ يقول:⁴

[الطويل]

وإنْ تَكُ مِطْعامَ العِشِيَّاتِ مِنْ غِنَى فَإِنَّكَ حَيَّادٌ عَنِ الْحَقِّ مانِعٌ

¹ هو غزال مصنوع من الذهب كان عبد المطلب قد استخرجه من زمزم عند حفرها، فجعله في الكعبة، وقد سرقه الحارث بمساعدة أبي لهب وأبي مسافع، ينظر الخبر في الديوان، 281.

² حسان، م، ن، 293.

³ حسان، م، ن، 286.

⁴ حسان، م، ن، 263.

وقد عاب الخيانة والغدر وعدم الوفاء بالذم، فقال في هجاء الحارث بن هشام:¹

[الكامل]

وَاللُّؤْمُ مِنْكَ وَرِثَاةٌ مَعْلُومَةٌ هِيَهَاتَ مِنْكَ مَكَارِمُ الْأَنْسَابِ
وَوَرِثْتِ وَالذِّكَّ الْخِيَانَةَ وَالْخَنَا وَاللُّؤْمَ عِنْدَ تَذَاكِرِ الْأَحْسَابِ

وقال عن دقة أخلاق بني مخزوم وعن غدرها:²

[الطويل]

جَزَى اللَّهُ مَخْزُومًا بِأَسْوَأِ صَنِيعِهَا أَبِي غَيْرَ لُؤْمٍ كَهَذَا وَوَلِيدُهَا
وَدِقَّةُ أَخْلَاقٍ وَرَأْيٍ مُضَلَّلٍ وَغَدْرٍ وَلَا يُوْفَى بِزَنْدِ عَقِيدُهَا

وقال يهجو هذيلاً:³

[الوافر]

هُمُ غَرَّوْا بِذِمَّتِهِمْ خُبَيْبًا فَبَيْسَ الْعَهْدِ عَهْدُهُمُ الْكَذُوبُ

وقال للحارث بن عوف بن أبي حارثة المري الذي جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلماً، فأرسل معه رسول الله رجلاً من الأنصار إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام فقتلوه، ولم يستطع الحارث أن يدافع عنه، فساء ذلك حسان وهمه فقال:⁴

[الكامل]

وَأَمَانَةُ الْمُرِّيِّ حَيْثُ لَقِيْتُهُ مِثْلَ الزُّجَاجَةِ صَدَعُهَا لَا يُجْبَرُ

فجاء الحارث إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يا محمد أجرتني من حسان فوالله لو مزج به ماء البحر لمزجه.⁵

¹ حسان ، الديوان ، 176.

² حسان، م،ن، 175.

³ حسان، م،ن، 153.

⁴ حسان، م،ن، 263.

⁵ ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، 219/1؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 411/12.

وكذلك عاب على أمية بن خلف عدم حفاظه على غيب الناس، يقول:¹

[الوافر]

أَتَانِي عَنِ أُمِّي نَثَا كَلَامٍ وَمَا هُوَ بِالْمَغِيبِ بِنْدِي حِفَاظِ

وهجا صيفي بن السائب من بني عابد، حيث أسره النبي صلى الله عليه وسلم، فلما صار بالمدينة قال للنبي عليه السلام: أرسلني وأبعث إليك بفداي، وأعطاه عهداً فلم يبعث بشيء فقال حسان:²

[الطويل]

سَأَلْتُ فُرَيْشاً كُلَّهَا فَشَرَّارُهَا بَنُو عَابِدٍ شَاهِ الْوَجْوهُ لِعَابِدِ
وَمَا كَانَ صَيْفِي لِيُوفِي بَدْمَةً قَفَا تَعْلَبِ أَعْيَا بِبَعْضِ الْمَوَارِدِ³

وقد هجا هذيل إذ سألت رسول الله أن يحل لها الزنا، وهو ما يخالف الدين والأخلاق والأعراف، يقول:⁴

[البسيط]

سَأَلْتُ هُذَيْلَ رَسُولِ اللَّهِ فَاحِشَةً ضَلَّتْ هُذَيْلٌ بِمَا جَاءَتْ وَلَمْ تُصِبِ

النفاق خصلة ذميمة، توعده الله عزوجل أصحابها بالعذاب المهين، وجعلهم بالدرك الأسفل من النار، وحذر النبي الكريم صلى الله عليه وسلم الناس منها، وبغضها في نفوسهم، فهي العدو الأول للقيم والفضائل، بل هي مذهب لكل فضيلة ومكرمة. وقد كان لها نصيب لا بأس به في ديوان حسان، لا سيما في هجائه لمن أعان على المسلمين وقد أظهر لهم الولاء. ومن هؤلاء أبو الضحاك ابن خليفة الأشهلي، الذي كان له شأن، في حرب النبي مع بني قريظة، يقول حسان هاجياً إياه:⁵

[الكامل]

أَلَا أَبْلَغُ الضَّحَاكَ أَنْ عُرِيقَهُ أَعَيْتَ عَلَى الْإِسْلَامِ أَنْ تَتَمَجَّدا
أَتَحِبُّ يُهْدَانِ الْحِجَازَ وَدِينَهُمْ كَبِدَ الْجِمَارِ وَلَا تُحِبُّ مُحَمَّدا
وَإِذَا نَشَا لَكَ نَاشِيٌّ ذُو غِرَّةٍ فَهَ الْفُؤَادِ أَمْرَتَهُ فَتَهْ وَودَا

¹ حسان، الديوان، 197.

² حسان، م، ن، 200.

³ شبهه بالتعلب الذي يعجز عن اتیان ما يريد.

⁴ حسان، الديوان، 373.

⁵ حسان، م، ن، 302

لو كُنْتَ مَنْ لَمْ تُخَالِفِ دِينَنَا وَتَبِعْتَ دِينَ عَتِيدٍ حِينَ تَشَهَّدَا¹

وقد كان للنساء نصيب من هجائه لسوء فعلهن، فهجا هند بنت عتبة لما قامت به في غزوة أحد بحق حمزة بن عبد المطلب عم النبي الكريم وتمثيلها به²، وهجا أيضاً سلاقه بن سعد إذ أوت طعنة بن أبيرق الذي سرق الدرعين من المدينة ثم فر إلى مكة³.

وقد هجا صفوان بن أمية الذي أوصى بنيه بما يتنافى مع القيم والأخلاق، إذ أوصاهم بالسرقة، يقول:⁴

[الكامل]

والله ما أوصى أميئة بخـره
كان الوصيَّة إذ تولى غادياً
أبني إن حاولتُم أن تسرقوا
فأتوا بيوت الناس من أدبارها
أوصاهم بالكفر عند مماته
وتألف الإشراك والتكذيب
بوصيَّة أوصى بها يعقوب
غدر الجوار لدى الإله وحبوب
فخذوا معاول كلهن صليب
حتى تظلل وكلهن مجوب
وتألف الإشراك والتكذيب

وبهذا تكتمل منظومة القيم عند حسان، فأبرز القيم المثالية السامية من خلال مدحه وفخره وورثائه، وبغض كل ما يتنافى مع الفضائل والمكارم، والذوق العام من خلال هجائه حتى وإن أتى به مقتضياً من غير شرح أو تفصيل. ونستخلص من هذا كله أن القيم الأخلاقية التي فاخر بها حسان في جاهليته وإسلامه، كانت سجية وطبعاً فيه، نابعة من ذاته، مستقاة من الشيم التي تربي عليها العربي، فاستحق بذلك أن يكون شاعر الخزرج الأول في جاهليته، وشاعر الدعوة في إسلامه. وانصهر الأمرين معاً بحيث ذابت ذاته في الروح القبلية، وذابت الروح القبلية في بوتقة الإسلام.

¹ عتيد هو رجل من الأنصار تشهد عند موته شهادة الحق قبل أن يصير رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة. ينظر: حسان، الديوان، 302.

² حسان، م.ن، قصيدة رقم: 246

³ حسان، م.ن، قصيدة رقم: 186.

⁴ حسان، م.ن، 285.

الفصل الثالث:

دراسة فنية

أولاً: علم الأسلوب

ثانياً: دلالات أسلوبية في شعر حسان بن ثابت

1- قيمة العفة

2- قيمة الشجاعة

3- قيمة الكرم

4- قيمة المروءة

أولاً: علم الأسلوب

تعددت الدراسات التي سجلت حضوراً واسعاً في دائرة تحليل النص الأدبي، والتي قد مهدت السبيل لظهور النظرية اللغوية، كونها نظاماً مساعداً في النقد الأدبي. فقد أصبح النظر إلى اللغة بوصفها مجرد أداة يستخدمها الأديب أو المبدع لإيضاح فكرة ما، وإيصال موضوع ما، أصبح نظراً قاصراً جامداً، يخرج اللغة من الإطار الذي خلقت له وجعلت من أجله، وإلا لما كان كل هذا الصخب، وهذا الشد والجذب الذي قام به مشركو مكة حول القرآن الكريم ووصفهم إياه بالسحر المبين.

وتنوعت المداخل والمناهج في نظرتها للنص الأدبي تحليلاً وتقويماً، ولعل أبرزها المنهج اللساني الذي لا يستغنى عنه في مجاله. فعلم الأسلوب من أهم ركائز المنهج، وعلاقته به علاقة المنشأ والمنبت، فما هو علم الأسلوب؟

الأسلوب في اللغة العربية لفظ استعمل في غير ما وضع له أصلاً من قبيل المجاز، يقول ابن منظور في لسان العرب: "ويقال للسطر الواحد من النخيل أسلوب. وكل طريق فهو أسلوب، فالأسلوب الطريق والوجه والمذهب. يقال أنتم في أسلوب سوء، والأسلوب بالضم: الفن، أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه".¹

وبالنظر إلى هذا التعريف يتبين لنا أن الأسلوب ذو دلالتين، إحداها مادية مستمدة من معنى الطريق، وأخرى معنوية مستمدة من ارتباطه بأفانين القول. وتقودنا الدلالة الثانية إلى المعنى الاصطلاحي للأسلوب، والذي يرجع في التراث العربي إلى ابن خلدون، الذي حدد المعنى الاصطلاحي الدلالي له. فهو من وجهة نظره: القالب أو الإطار الذهني الذي تنصب أو تؤطر فيه التراكمات اللغوية بشكل يفيد ما يقصد بالكلام ويتطابق مع فن القول. وهو عنده بعيد عن معاني النحويين والبلاغيين والعروضيين، إذ يعدها خارجة عن الصناعة الشعرية، وبذلك يكون الأسلوب عنده مكتسب من الملكة اللغوية التي يحوزها الأديب.² وهذه الواجهة قد أقرها النقاد الغربيون المحدثون في كون الأسلوب طريق التعبير الخاصة بأديب من الأدباء في فن من الفنون.

قد كان للعرب القدامى قبل ابن خلدون إضاءات وإشارات للمفهوم الأسلوبي، إلا أن ذلك لا يعني أنهم بحثوا قضايا الأسلوب والأسلوبية بشكل وافٍ معمق، إنما هي إشارات تسهم ولو بشكل بسيط في تأريخ الدراسات الأسلوبية. ومن هذه الإشارات ما تطرق إليه ابن قتيبة عند ذكر الأسلوب

¹ . ابن منظور، اللسان، مادة سلب.

² . ينظر: ابن خلدون، المقدمة، 728.

القرآني: "وإنما يَعْرِفُ فضل القرآن من كثر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات".¹

كما أشار ابن الأثير إليه في أكثر من موضع بقوله: "وعلى هذا الأسلوب"²، عند حديثه عن الآيات القرآنية التي تحمل المعنى نفسه. ومن الأدلة على أصل الأسلوبية في التراث اللغوي والأدبي ما أورده الخطيب القزويني من حديث عن تنكير المسند، والتقديم والتأخير، والالتفات، وأسلوب الحكيم.³

إن تحديد ابن خلدون لهذا المفهوم اصطلاحاً يسبق دخول الأسلوب إلى المصطلح النقدي الغربي بقرون "فقد استخدمه النقد الألماني منذ أوائل القرن التاسع عشر في معجم (Grimm). وورد لأول مرة في اللغة الإنجليزية عام 1846 طبقاً لقاموس (أكسفورد)، ودخل القاموس الفرنسي كمصطلح عام 1872"⁴.

إننا لا ننكر أن للأسلوب جذوراً راسخة في البلاغة الإغريقية، فهذه الكلمة وما يرادفها موعلة في القدم في مفهوم الإنسان ولغته ونشاطه في مختلف الميادين في جميع العصور. "فقد كان الأسلوب وسيلة من وسائل الإقناع، واندرج مفهومه تحت علم الخطابة، خاصة فيما يتعلق باختيار الكلمات المناسبة لمقتضى الحال، وقد تكلم عنه أرسطو في باب الخطابة، وكولتليانوس في نظم الخطابة"⁵. وعرفه أفلاطون بقوله "الأسلوب شبيهه بالسمة الشخصية"⁶ وتكاد تكون جميع الدراسات الأسلوبية تتطرق من مفهوم الكونت دي بوفون (1707-1788) والذي لا يبتعد عن مفهوم أفلاطون المذكور سابقاً، حيث يقول: "إن المعارف والوقائع والمكتشفات تفرع بسهولة، وتتحول وتفوز، إذا ما وضعتها يد ماهرة موضع التنفيذ، وهذه الأشياء إنما تكون خارج الإنسان. أما الأسلوب فهو الإنسان نفسه، ولهذا لا يمكنه أن ينتزع أو يحمل أو يتهدم"⁷.

¹ . ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، 74.

² . ابن الأثير، المثل السائر، 417/1، 12/2.

³ . ينظر: الخطيب القزويني، الأيضاح في علوم البلاغة، 56-84.

⁴ . صلاح فضل، علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، 83.

⁵ . مجدي وهبة، معجم المصطلحات الأدبية، 542.

⁶ . بيتر جيرو، الأسلوب والأسلوبيين، ترجمة منذر العياشي، 23.

⁷ . بيتر جيرو، م، 22.

سَلَّم كثير من الباحثين بوجود الأسلوب، على الرغم من عدم اتفاقهم على تحديد تعريف موحد مرضٍ للأسلوب، يتمتع بالقدرة الكاملة على الإقناع. لذلك قام بعضهم بعرض مجموعة من التعريفات تصل في بعض الأحيان إلى نيف وثلاثين تعريفاً. وقد يكون هذا التعدد ناجماً عن رحابة الميادين التي صارت هذه الكلمة تطلق عليها. وقد جرت محاولات عدة لتعريفه، تدرجت من رؤيته وعاء للمعنى، مروراً بمطابقته مع شخصية المؤلف، ووصولاً إلى اعتباره خياراً لغوياً وظيفياً مقررّاً ومكوناً للمعنى. ومن هذه التعريفات التي كشفت اللثام عنه ما أورده يوسف أبو العدوس بأنه: "فرع من اللسانيات الحديثة، مخصص للتحليلات التفصيلية للأساليب الأدبية أو للاختيارات اللغوية التي يقوم بها المتحدثون والكتاب في السياقات -البيئات- الأدبية وغير الأدبية."¹

ويعرفه عبد السلام المسدي بأنه: "قوام الكثف لنمط التفكير عند صاحبه"². بينما يبسط شكري عياد المفهوم فيصفه بالكلمة المطاطة التي تحمل نوعاً من الدلالة على القيمة الأدبية حينما نستعملها لوصف عبارة قصيرة، أو نص شعري، أو نثر أدبي. وتدل أيضاً على الطريقة المتميزة التي يتبعها كاتب دون غيرها من الطرق، بل ودون غيره من الكتاب.³

تبدأ الأسلوبية من النص وتنتهي به. فهي تعنى بالنسيج اللغوي للنص، وتبتعد عما هو خارج النص، إنها محاولة استتطاق النص. وقد ساعدت بهذا على ربط الأدب باللغة من ناحية، وربط الأدب بالنقد من ناحية أخرى، بعد أن بسط المنهج التاريخي ظله على الدراسات الإنسانية كلها بشكل عام. فقد اتسمت الدراسات التي سبقت الأسلوبية إلى الوجود بالآلية والسطحية، فهي قلّما ترتبط بالنسيج الحي للأدب، إذ كانت تهتم بالشكليات وتتصرف عن الجوهر، وتتصب في المقام الأول على دراسة شخصية الأديب، والتأريخ لحياته وإجزاء مجموعة من الشروح والتعليقات على عمله أو أعماله الأدبية.⁴ لهذا كان الدافع القوي لظهور الأسلوبية هو الاهتمام بالنسيج اللغوي للعمل الفني. والتعامل مع النص نفسه، والتركيز على الصنعة الأدبية نفسها، والاهتمام بالعناصر الجوهرية والداخلية للعمل الفني. إنها عملية تهدف إلى قراءة النص بالنص.

¹ . يوسف أبو العدوس، الأسلوبية، الرؤية والتطبيق، 35.

² . عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، 64.

³ . ينظر: شكري عياد، مدخل إلى علم الأسلوب، 13.

⁴ . شفيق السيد، الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي، 7-73.

ومما يعطي الأسلوبية تلك القدرة الفاعلة اتصالها وعلاقتها بعلوم اللغة والبلاغة والنقد. فعلى صعيد علم اللغة نجد علم مساوق له بل هي وليدة رحمه "لا بعناصر اللغة من حيث هي بل بإمكاناتها التعبيرية، وعلى هذا الأساس تكون لعلم الأسلوب الأقسام نفسها التي لعلم اللغة".¹

وثمة مجال للتفريق بين علم اللغة والأسلوبية، فعلم اللغة هو العلم الذي يدرس ما يقال، في حين أن الأسلوبية هي التي تدرس كيفية ما يقال مستخدمة الوصف والتحليل في آن واحد.² لأن الأديب لا يستخدم اللغة استخداماً مباشراً تقريرياً وإنما يبعث فيها إحياءات جديدة. وقد ينأى بعض الدارسين عن الهدف المرجو من الدراسة الأسلوبية، ويخرجها عن مسارها الصحيح، ويتجه إلى إجراء عمليات احصائية عقيمة لظواهر لغوية معينة في النص الأدبي، بعيدة عن العمق الفني والدلالي لها، "فجوهر العمل الأدبي هو محور الدراسة الأسلوبية، بما يحويه من وسائل تتجاوز - مجرد- نقل المعنى إلى عمق الاستعمال اللغوي المتمثل في وضع الكلمات في أنساق معينة، وكيفية انتظامها وانتظام الجمل وال فقرات ورسم الصور، وانتظام ذلك كله مع المعنى، فالكلمة هي مادة التشكيل الفني لدى الأديب"³.

أما علاقة الأسلوبية مع علم البلاغة فهي كما يرى بيير جيرو "أنها وريثة البلاغة، وهي بلاغة حديثة، ذات شكل مضاعف، إنها علم التعبير ونقد الأساليب الفردية"⁴. ولكن هذا القول لا يعني أن الأسلوبية تقوم مقام البلاغة، إنما هي استمراريتها ودوامها، وهي أحد روافدها الذي يقدم الكثير للتحليل الأدبي والتذوق الفني للنص.

وثمة فروقات ما بين الأسلوبية والبلاغة منها أن الأسلوبية اهتمت بالمبدع ونفسيته، في حين أن البلاغة أغفلت هذا الجانب، وركزت على حال المخاطب. كما اتجهت البلاغة إلى الاختصاص بنوع واحد من الكلام، وهو الكلام الأدبي، أما الأسلوبية فشملت معظم أجناس الكلام.⁵ وكذلك غلب على البلاغة طابع تفتيت النص الأدبي، بحيث يكون كل جزء منه نصاً مستقلاً بذاته، لكن الأسلوبية استخدمت النظرة الشمولية للنص كبنية واحدة، وذلك من خلال "ملاحظة الكلمات التي

¹ . يوسف أبو العدوس، الأسلوبية الرؤية والتطبيق، 39.

² . ينظر: صلاح فضل، الأسلوب ومبادئه وإجراءاته 129-146؛ عدنان علي النحوي، 188.

³ . ينظر: خليل عودة، المنهج الأسلوبي في دراسة النص الأدبي، 105.

⁴ . بيير جيرو، الأسلوبية، ترجمة منذر عياشي، 9؛ ينظر: يوسف أبو العدوس، الأسلوبية الرؤية والتطبيق 59-86؛ صلاح فضل علم

الأسلوب مبادئه وإجراءاته، 147-161؛ عدنان علي النحوي، الأسلوب والأسلوبيين بين العلمانية والأدب الملتزم بالإسلام، 187.

⁵ يوسف أبو العدوس، الأسلوبية: الرؤية والتطبيق، 62-67.

يشكل منها الأديب صورته، وعلاقة هذه الكلمات بالحالة النفسية التي يكون عليها، وقدرة الخيال عنده على فهم الواقع، وإعادة تشكيله من خلال اللغة التي يتفاعل معها إبداعياً¹.

تعد الأسلوبية نظرية نقدية شاملة تشمل النص بكل تكويناته الصوتية والمعجمية والدلالية والتركيبية، لهذا اتخذت من علمي اللغة والبلاغة جسراً للنقد الأدبي. من هنا تتضح العلاقة بين النقد والأسلوبية. إذ تعد الأسلوبية الإطار المرجعي الذي يستمد منه الحكم النقدي سلامته، بل هي المحرك الأساسي لهذا العلم، لأن " كل نظرية نقدية في الأدب تقتضي الاحتكام إلى مقياس الأسلوب، باعتباره المظهر الفني، وهذا المعطى هو صورة لحتمية حضور الظاهرة اللسانية في الحدث الأدبي"².

ويمكن القول إن الأسلوبية تعد بصمة لكاتب النص لأنها تبرز الظواهر اللغوية المميزة التي تميز النص، وتعد ظاهرة خاصة بكاتبه، بحيث يمكن الاستدلال على كاتب النص من خلال لغته.

وتظهر الأسلوبية جماليات النص الأدبي من خلال دراستها لجمال القضية والموضوع والفكرة، وجمال الجرس والنغمة، وجمال الصورة وألوانها وحركتها، وجمال اللغة المستخدمة. لذلك توجهت لدراسة القيم عند حسان بن ثابت دراسة أسلوبية لبيان مواطن الجمال في أسلوبه وكيف قدّم القيم إلى النفس بشكل محبب. وقد اعتمدت لذلك على المنهج الأسلوبي الإحصائي الجمالي الذي يقوم على استكشاف العلاقات اللغوية القائمة في النص، ومن ثم محاولة الربط بين هذه العلاقات وبين شخصية حسان الذي يشكل مادته الشعرية وفق أحاسيسه ومشاعره وقيمه ومبادئه، والتي تجعله يلح على أساليب بعينها، يستخدم لها صيغاً لغوية لها دلالتها في النص، ويصبح تكرارها ليس مجرد ظواهر عابرة، إنما تشكيل فني يكشف عن بناء القصيدة من الناحية الفنية، وعلاقة ذلك بالمعنى الذي أراده الشاعر، إذ لا يمكن فهم النص إلا من خلال ربط الأنماط اللغوية بعضها ببعض للوصول للمعنى العام الذي يقدمه النص.

¹ خليل عودة، المنهج الأسلوبي في دراسة النص الأدبي، 113.

² عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، 10.

ثانياً: دلالات أسلوبية في شعر حسان بن ثابت

1. العفة:

العفة من القيم السنية، والتي تعني الكف عما لا يحلّ ويحمد، وتحمل في طياتها عفة المحارم والأطماع الدنية.¹ وهي من أبرز الصفات التي تتأى بالمرء عن الرذائل، وتحجزه عن السقوط إلى سفاسف الأخلاق وحمأة الذنوب. وهي قيمة إنسانية جليلة لطالما اعتز بها المجتمع العربي، ودعا إليها وجعلها على رأس مثله وأخلاقه التي كان ينادي بها.

وهي خلق عظيم وجليل، قدّره النبي صلى الله عليه وسلم، وجعله أعلى شعب الإيمان. فقال صلى الله عليه وسلم: [*الحياء شعبة من الإيمان*]². وهو فطرة الله التي فطر الخلق عليها، يقول عز وجل في شأن آدم وحواء حين انكشفت عوراتهما، فتعجلا بفطرتهما تغطيتها بورق الجنة، [*فَلَمَّا دَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ*]³.

وقد كان للعفة نصيب وافر في شعر حسان بن ثابت في مختلف أغراضه الشعرية، فجاءت في حديثه عن ذاته، وجاءت في معرض حديثه عن غيره. ومن أهم محاورها التي تناولها في شعره:

أ. الشرف (صيانة العرض):

إذا أنعمنا النظر في شعر حسان بن ثابت، وجدناه يحفل بقدر كبير من الحديث عن المرأة، زوجة كانت أو محبوبة أو بنتاً. وقد جاءت المرأة في ديوانه محوطة بهالة من الصون والعفاف. فذكرها بكل ما هي جديرة بذكره، فلم يأت بها -حقيقة ولا مجازاً- منتهكة، ماجنة، غير مصانة.

يقول حسان في رثاء ابنته:⁴

[الطويل]

عَلِمْتُكَ وَاللَّهِ الْحَسِيبُ عَفِيفَةً مِنْ الْمُؤْمِنَاتِ غَيْرِ ذَاتِ غَوَائِلِ
حَصَاناً رَزَانَ الرَّجُلِ يَشْبَعُ جَارَهَا وَتُصْبِحُ غَرَثِي مِنْ لُحُومِ الْغَوَائِلِ
وَمَا قَلْتُ فِي مَالٍ تُرِيدِينَ أَخَذَهُ بُنْيَةً مَهَلًا إِنَّنِي غَيْرُ فَاعِلِ

¹ . ابن منظور، اللسان، مادة عفف.

² . صحيح مسلم، حديث رقم: (151)

³ . الأعراف، 7، 22.

⁴ . حسان، الديوان، 242.

وقال يذكر السيدة عائشة رضي الله عنها:¹

[الطويل]

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُرْزَنُ بِرَبِيْبَةٍ وَتُصْبِحُ غَرْثِي مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ

قد مدح حسان المرأة بخير ما تُمدح به الحرة الشريفة، فهي عفيفة، حسان، رزان، غير ذات غوائل، لا ترتع في أعراض الناس، وفي تكرار هذه الألفاظ بيان لوقعها في نفسه، وإيمانه بها، وتحريه لهذه القيمة بكافة صورها وأشكالها.

يبدو أن الشاعر أراد لهذه الألفاظ أن تعطي الطاقة الدلالية لها، من خلال إيثاره لصيغ صرفية بعينها، صيغة الصفة المشبهة في قوله (حسان رزان)، والتي أضافت للبيت معنى الثبوت والاستقرار لهذه القيمة في شخصية ممدوحتيه. ولعل في ترادف هاتين الصفتين تأكيداً لذلك، فالحصان هي المرأة العفيفة، والرزان هي المرأة ذات الثبات والوقار والعفة. وهما بذلك تكونان بعيدتين عن مواطن الشك والريب.

ومما يزيد البيت جمالاً، تتابع الصفات الدالة على الصفة وتزاحمها. كقوله (غير ذات غوائل، غرثي من لحوم الغوافل). فهي دالة على العفة بأنواعها كعفة اللسان وعفة الطبع، فهما لا ترتعان في أعراض الناس وعوراتهم، وهما غير ذاتي مصائب ودواه. وفي اتباع تلك الصفات بالفعلين المضارعين (تصبح، تشبع) دليل على استمرارية تلك القيمة فيهما وتجدها، لما تعطيه صيغة الفعل المضارع من معنى.

وقد يظن الظان أن حسان قد جاء بهذه الصفة للسيدة عائشة رضي الله عنها، ولابنته لمكانتهما وقدرهما، ولكن حقيقة الأمر أنها صفة ثابتة أيضاً في محبوبته، فيقول جامعاً بين وصفها الحسي والمعنوي:²

[الكامل]

نَفْجُ الْحَقِيْبَةِ بِوَصْفِهَا مَتَنَصِّدٌ بِلَهَاءِ غَيْرِ وَشَيْكَةِ الْأَقْسَامِ³

¹ . حسان، الديوان ، 228.

² . حسان، م. ن ، 107.

³ . نفج الحقيبة: ضخمة الأرداف، ابن منظور، اللسان، مادة نفج.

وقوله¹:

[الكامل]

فَدَعِ الدِّيَارَ وَذِكْرَ كُلِّ خَرِيدَةٍ بَيْضَاءِ آنَسَةِ الحَدِيثِ كَعَابِ

كَنَى الشاعر في قوله (بلهاء) في البيت الأول، وقوله (خريدة) في البيت الثاني عن حيائها وعفتها. فالبلهاء هي المرأة العفيفة الغفول عن الشر.² وكذلك الخريدة هي الحيية الطويلة السكوت الخافضة الصوت.³ وقد أتبع (بلهاء) في البيت الأول بقوله: (غير وشيكة الأقسام) ليدل أنها غافلة عن الشر لا تأتيه، وهي لذلك لا تكثر القسم، لأنها ليست مضطرة لتبرئة نفسها، فهي بعيدة بحيائها وعفتها عن مواطن الشك والريب، وكذلك وصفها في البيت الثاني أنها (آنسة الحديث) بجانب كونها (خريدة) ليدل على أن في حديثها حشمة ووقاراً وأدباً، يأنس له السامع. فلا يعقل أن تكون خريدة حية طويلة السكوت والتأمل، ثم يأتي في حديثها ما تُعاب عليه. وهذا الترادف في المعاني أعطى للبيت قيمته ودلالته.

العفة خصلة لصيقة في نفس حسان، وهو يفخر بها، بل يبالغ في شدة فخره بها، فيجعل من ضيق ذرعه بمجارة محبوبته بما يتبادل العشاق فيما بينهم ويتجادبونه، سبيلاً لتأكيد تلك القيمة، يقول:⁴

[الطويل]

وَلَقَدْ تُجَالِسُنِي فَيَمْنَعُنِي ضَيْقُ الدَّرَاعِ وَعِلَّةُ الحَفْرِ
لَأَتِيئُهُ لَا بُدَّ طَالِبِهِ فَاقْتِي حَيَاءَكَ وَأَقْبَلِي عُذْرِي

يتهافت الشعراء بشكل عام على ذكر خلواتهم مع محبوباتهم، ووصف ما جرى فيها من تبادل وتجادب، إلا أن حسان جاء هنا بأسلوب مغاير تماماً لما كان شائعاً في عصره، وهو ليس شاعر لهو ومجون، وهو رجل قيم وفضائل، فهو لا يخترق الأعراف والحدود في جلسته مع محبوبته إذ يبقى الحياء حاجزاً يحول دون الإتيان بما يسوؤه أو وصف ما يشينه.

وقد استعان حسان على تأكيد هذا المعنى بصيغة الفعل المضارع، إذ أتى بفعلين مضارعين متتاليين هما (تجالسني، فيمنعني) ليدل على استمرارية لقاءاتهما الحية. وقد عطف الفعلين بحرف

¹ . حسان، الديوان ، 119.

² .ابن منظور، اللسان، مادة بله.

³ .ابن منظور، اللسان، مادة خرد.

⁴ . حسان، الديوان، 190-191.

العطف (الفاء) الذي يدل على ترتيب الحدث، فهو يجالسها بداية ثم يمتع عنها حياءً وخفراً. ومما يدل على استمرارية هذا الحدث وتكراره المعنى الدلالي للفعل المضارع فهما مستمران على لقاءتهما باقيان على حياتهما.

ونلاحظ في عطفه للاسمين (ضيق، علة) اللذين يحملان معنى العجز، دلالة على عدم تخليه عن قيمة الحياء وعجزه عن الإتيان بما يسوؤه. ويستمر حسان في تأكيد قيمته هذه بالاستعانة بفعل الأمر (اقني، اقبلي) ليرغمها على عدم التجاور معه في هذه الخلوة. فأتى بالفعل الأول (اقني) لغرض بلاغي وهو (النصح)، وهذه الصيغة الأمرية تأتي للنصيحة الخالصة، وتنطوي على محبة واحترام ما بين المتكلم والمخاطب. بينما فعل الأمر الثاني (اقبلي) خرج لمعنى مقارب للمعنى الأول وهو (الالتماس)، إذ يطلب منها أن تقبل عذره في امتناعه عنها لحيائه وخفره وعفته، وأن هذا الامتناع لا ينقص من قدر حبه لها شيئاً.

وقد جاء حسان في هذه القصيدة بألفاظ تبين أن محبوبته مصنونة مكنونة، وذلك في قوله (ربة الخدر، درة)، ويبين أيضاً أن الحياء مما فطر عليه، يقول:¹

[الطويل]

إِنِّي أَبَى لِي ذَلُّكُمْ حَسَبِي وَمَقَالَةٌ كَمَقَاطِعِ الصَّخْرِ

واستخدام كلمة الصخر هنا له دلالة حاسمة في تأكيد ما ذكره في الشطر الأول من البيت، وهو الإباء والرفض القاطع الذي يشبه الصخر.

وما جاء به حسان هنا مناقضاً تماماً لما جاء به امرؤ القيس، الذي صور لقاءه مع محبوبته باللقاء الماجن المتهتك، والذي ركز فيه على أدق تفاصيل هذا اللقاء، وعلى وصفه لبدنها ومحاسنه، فتأتي صورته غنية بالعناصر البصرية لا بالعناصر المعنوية. يقول:²

[الطويل]

فِيَا رَبِّ يَوْمٍ نَاعِمٍ قَدْ لَهَوْتُهُ بَمَرْتَجَّةِ الْحَاذِينَ مُلْتَقَّةِ الْحَشَا

إن العفة بمعنى الحفاظ على العرض ورعاية الحرمات هي الأصل في القيم، فأى قيمة يفخر بها الإنسان إذا ضاع الشرف وانتهك العرض، لذلك نجد حسان يوازن كثيراً ما بين العرض والمال،

¹ . حسان، الديوان، 189.

² . امرؤ القيس، الديوان، 338.

فتكون فلسفته أن المال إذا ذهب وضاع فثم مجال للحصول عليه واسترداده، أما العرض فإنه إذا دنس فلا رادّ له، يقول:¹

[البسيط]

أصونُ عرضي بمالي لا أدنُّهُ لا برك الله بعدَ العرضِ في المالِ
أحتالُ للمالِ إن أودى فأجمعه ولسنتُ للعرضِ إن أودى بمُحتال

ويقول:²

[الطويل]

فلا المالُ ينسيني حيائي وحفظتي ولا وقعاتُ الدهرِ يفلأن مبردي

ومنه أيضاً قوله:³

[الطويل]

وأجعلُ مالي دون عرضي وقايةً وأحجبه كي لا يطيب لآكل

يلاحظ في هذه الأبيات ميل الشاعر إلى الأساليب التقريرية المباشرة في توضيح القيمة، فهو لم يعمد إلى الخيال والصور البيانية لإيضاحها، إنما آثر المباشرة لسرعة وصول الغرض إلى ذهن المتلقي، لأهمية هذه القيمة في نظره.

وقد استعان حسان لإيصال هدفه بالأفعال المضارعة مثل: (أصون، أحتال، ينسيني، يفلن، أجعل، أحجبه) ليدلل على استمرارية القيمة في نفسه وتجدها مع مر الزمن. وكذلك أكثر من استخدام أدوات النفي في هذا المقام ليدلل على رفضه التام لمقايضة عرضه وشرفه بالمال، ولتفجير المتلقي من القيام بهذا الأمر المخزي. وأثبت ذلك باستخدامه الدعاء في قوله (لا برك الله بعد العرض بالمال).

وبهذا يعكس حسان مع قيمة العفة قيمة أخرى تدعمها وتعلي من شأنها، وهي قيمة الكرم. فالعفة تدفعه للبذل والجود حفاظاً على عرضه من الأذى.

¹ . حسان، الديوان، حاشية ص 147.

² . حسان، م، ن، 132.

³ . حسان، م، ن، 167.

وفي موضع آخر جعل العرض آخر ما يوصي به المرء وينطق قبل وفاته:¹

[الكامل]

أَوْصَى أَبُونَا مَالِكٌ بِوَصَاتِهِ عَمْرًا وَعَوْفًا إِذْ تَجَهَّزَ غَادِيَا
بِأَنْ اجْعَلُوا أَمْوَالَكُمْ وَسُيُوفَكُمْ لِأَعْرَاضِكُمْ مَا سَلَّمَ اللَّهُ وَاقِيَا
فَقُنْنَا لَهُ إِذْ قَالَ مَا قَالَ مَرْحَبًا أَمَرْتُ بِمَعْرُوفٍ وَأَوْصَيْتُ كَافِيَا

فقد أدى الأسلوب الخبري الإنكاري دوراً مهماً في ترسيخ الوصية وتأكيد لها في نفس أبناء المحتضر، فقد استعان حسان بمؤكدين للخبر، بدأهما بأداة التوكيد (إن) ثم أتبعها بفعل الأمر (اجعلوا)، وذلك بهدف الترغيب والحث وتهييج النفوس على الالتزام بما جاء في الوصية.

ب. عفة اللسان

ومن مظاهر العفة تنزيه اللسان عن فحش القول، وذب الآخرين والأعراض عن الغيبة والنميمة، وقد عكس حسان احتفاءه بهذه القيمة التي من شأنها أن تحفظ المجتمع وتزيد من تماسكه وتعاضده.

استخدم حسان بن ثابت في حديثه عن عفة لسانه عبارة (ليس بالهذر) يقول:²

[الكامل]

إِنِّي أَكَارِمٌ مِّنْ يَكَارِمُنِي وَعَلَى الْمَكَاشِحِ يَنْتَحِي ظُفْرِي
يُعِي صِفَاتِي مِّنْ يُوَارِئُنِي إِنِّي لَعَمْرِكَ لَسْتُ بِالْهَذْرِ

أتى حسان بلفظ يدل على عموم الأخلاق والخلال وهي كلمة (صفتي) والتي تعني خيار الشيء خلاصته³، ثم أتى بتخصيص للصفة المرادة وهي قوله (لست بالهذر)، أي لست بالرجل الذي يقول الكلام الكثير الرديء. وهي صفة واحدة من ضمن الصفات التي يمتاز بها حسان وبتحلى بها. وتخصيصها يدل على أهميتها وعلى رغبته بتركيزها في ذهن المتلقي.

¹ . حسان، الديوان، 282.

² . حسان، م، ن، 189.

³ . ابن منظور، اللسان، مادة صفا.

وقد تضافر البيتان لتأكيد المعنى وتوضيحه، فهو يميل عن يضر له العداوة والبغضاء، فلا يؤذيه ولا يشهر به. وقد أتى بتعبير استعاري زاد من القيمة الجمالية للبيت إذ يقول (ينتحي ظفري). فهو رجل مقلم الظفر عن الأذى. وهو كذلك يعفو عند المقدرة ترفعاً لا ضعفاً وخوراً. وقد تضافر ذلك كله مع الكلمات الأخرى (أكارم، يكارمني)، والتي تشير إلى صفات خاصة يتحلى بها حسان بن ثابت، فنجدته يقول في موضع آخر واصفاً رحلة صيد:¹

[الخفيف]

يَوْمَ رُحْنَا وَمَا يَخَافُ خَلِيلِي مِنْ لِسَانِي خِيَانَةَ الْإِنْسِاطِ

وبعد أن ربط الشاعر اللسان مع المكارم، نجده يقرنه مع الخيانة، ليبين أن اللسان هو منبت الخير والشر. وهو بذلك يرسل للمتلقي رسالة يدعوها بها لصون لسانه، والتعفف في قوله. هذا البيت آخر بيت في القصيدة، جاء بعد ذكره لرحلة الصيد والكر، وبعد اللذة من الأكل والشرب والخمر. ليدل على أنه يحفظ لسانه طيلة الرحلة، وما قد يشوبها من المزاح والجد والتنازل بالألقاب والأسماء، وما قد يختلط العقل من السكر والشرب.

وقد اختار حسان صيغة الفعل المضارع (يخاف) في البيت، مع أن القصيدة يغلب عليها صيغة الفعل الماضي، فلم يقل (ما خاف) لاستمرارية تلك القيمة فيه على مر الأزمان. وكرر حسان المعنى ذاته بقوله عن نديمه الذي يماثله خلقاً:²

[الطويل]

وَصَلْتُ بِهِ كَفِّي وَخَالَطَ شِيمَتِي وَلَمْ أَكْ سِبَابًا فِي النَّدَامَى مُلُومًا

فالسبب هو الرجل كثير السب، سيئ الخلق، يؤذي الناس بلسانه. والمُلوّم هو الذي يفعل ما يُلام عليه. نفى حسان أن يكون سبباً مُلوّماً، فهو يصون لسانه عما يعيبه. وجاء بصيغة (الصفة المشبهة) في قوله (سبباً) لدلالة أن هذا العيب متجذر في صاحبه لا مكتسب، فهو عفيف بفطرته.

وقد أكثر حسان من تكرار تلك القيمة في نفسه، قارناً إياها بقدرته الفائقة على الردّ إن تطلب الموقف ذلك، يقول:³

¹ . حسان، الديوان، 171.

² . حسان، م، ن، 128 .

³ . حسان، م، ن، 125.

[الكامل]

نَسَبِي أَصِيلٌ فِي الْكِرَامِ وَمِذْوَدِي تَكْوِي مَوَاسِمَهُ جُنُوبِ الْمُصْطَلِي

التعبير الإستعاري للبيت أعطاه قيمة دلالية جمالية، فقد جعل لسانه وما يصدر عنه في حق من تعرض له كالأداة التي تستخدم لوسم الأجساد بالكي، وهي ذات درجة حرارة عالية، تترك علامات لمدة طويلة، فقد استعار المذود عن اللسان لتكون أقرب إلى الذهن، وأبلغ في إيصال الرسالة المطلوبة.

ويقدم حسان اللسان على السيف ويتوعد به أعداءه لأنه يدرك خطره وسيرورتة، يقول:¹

[الطويل]

لَعَمْرُ أَبِيكَ الْخَيْرِ يَا شَعْتُ مَا نَبَا عَلِيَّ لِسَانِي فِي الْخُطُوبِ وَلَا يَدِي
لِسَانِي وَسَيْفِي صَارِمَانِ كِلَاهُمَا وَيَبْلُغُ مَا لَا يَبْلُغُ السَّيْفُ مِذْوَدِي

وهذه الأبيات لا تتناقض سابقتها في ترفعه عن الكلام الهذر، لأن الرد هنا قيمة جلييلة أراد بها العزة والإباء ورفض الظلم، فهو يتعرض لمن يتعرض للقيم الأصيلة والمبادئ النبيلة، ولعل هذا ما يبرر كثرة هجائه في الإسلام، إذ أراد الرد على مناهضي الدعوة وأعدائها فحاججهم بما حاججوه به. ومن ذلك رده على أمية بن خلف الذي ذكره في غيبته بما يسوؤه، فأجابه حسان متوعداً:²

[الوافر]

أَتَانِي عَنْ أُمِّي نَثَا كَلَامٍ وَمَا هُوَ بِالْمَغِيبِ بِذِي حِفَاظٍ
سَأَنْشُرَ إِنْ بَقِيَتْ لَهُ كَلَاماً يُسَيِّرُ فِي الْمَجَامِعِ مِنْ عُكَاظٍ
قَوَافِي كَالسَّلَامِ إِذَا اسْتَمَرَّتْ إِلَى الصُّمِّ الْمُعْجَرَفَةِ الْغِلَظِ³
بَنِيَتْ لَهُنَّ أَبْيَاتاً صِلَاباً كَأَسْرِ الْوَسْقِ فُغُصَ بِالشُّظَاظِ⁴
تَزْوَرُكَ إِنْ شَتَّتَتْ بِكُلِّ أَرْضٍ وَتَرَضَّخَ فِي مَحَلِّكَ بِالْمَقَاظِ⁵

¹ . حسان، م، ن، 132.

² حسان، م، ن، 197 - 198.

³ السَّلَام: الحجارة، واحدها سلمة، ابن منظور، اللسان، مادة سلم . الصم : الحجر الصلد، ابن منظور، اللسان، مادة صم.

⁴ أسر الوسق: ضم الشيء إلى الشيء، ابن منظور، اللسان، مادة وسق. الشظاظ: خشبة عققاء تجعل في عروتي الجواليق، ابن منظور، اللسان، مادة شظظ.

⁵ المقاظ: الموضع الذي ينام فيه وقت القبط، ابن منظور، اللسان، مادة قبط .

يتضح في الأبيات شدة تهديده ووعيده لأمية بن خلف، من خلال الألفاظ المنتقاة والمستخدمه، والتي لها وقع شديد على نفس المهجو، فهي توحى بالصلابة والقسوة والشدة، كما في قوله: (السَّلام، الصَّم، المعجرفة، الغلاظ، الصَّلاب، أسر الوسق، فعصَّ بالشَّظاظ).

وتضافرت الموسيقى المنبثقة من قافية الظاء - والتي توحى بالغلظة والعنجهية - مع الصور الفنية في الأبيات فزادت من صلابتها وشدتها، كما في البيت الثالث الذي شبه فيه قوافيه بالحجارة الغليظة الصَّماء، التي تدمي كل من يُرمى بها ، فكان وقع قوافيه على أمية كوقع تلك الحجارة.

أعطى التعبير الإستعاري دلالاته المطلوبة إذ جعل أبياته وقوافيه كالبنيان المرصوص المشدود، الذي سدت فجواته بالشَّظاظ، وهو العود الذي يدخل في عروة الجواليق، لتزيد من تماسكه وإحكامه.

دللت الاستعارة في البيت الخامس على لزوم القوافي لأمية بن خلف، وتتبعها إياه أينما حلَّ وارتحل.

وقد أعطى تنوع الزمن وتنقله من الماضي في قوله (أتاني) ثم إلى المستقبل في قوله (سأنشر) ومن ثم ثباته بالزمن الحاضر، تشويقاً للمتلقى بتتبع وقع تلك القوافي الغلاظ على المهجو.

وقد أضاف ترخيم اسم أمية (أمي) معنى الاحتقار وتصغير الشأن، لأن الإنسان العظيم لا يقوم بما قام به أمية بن خلف.

في حين يرى حسان في موضع آخر أن التعرض للسفهاء والرد عليهم هناك للعرض فيقول:¹

[الوافر]

حِـيَاءٌ أَنْ أَشْـأَاتِمَكُمُ وَصَـوْنًا لِعِـرْضِي إِنَّهُ حَسَبٌ سَمِينُ

ومن الملاحظ أن القيمة تمدح بها حسان في ذاته، خاصة في الجاهلية ولم يذكرها في غيره، بينما كررها في الإسلام في أكثر من موضع، مما يدل على أن الإسلام قد أرسى قواعد القيمة المبحوث عنها وحث عليها، وتوعد من لا يلتزم بها بوعيد شديد. لذلك كانت عفة اللسان صفة بارزة في ممدوحى حسان في الإسلام كما في مدحه للسيدة عائشة ولابنته.

¹ . حسان، الديوان، 321.

وقد قرن حسان عفة اللسان في شعره الإسلامي بالقول الفصل في مواضع عدة، لأن الإسلام في هذه المرحلة من طور انتشاره كان بحاجة إلى القول الحق الذي يكون حجة لأصحابه لا عليهم. لذلك مال حسان إلى المباشرة في ذكر هذه القيمة، لأنه هنا لا يحتاج إلى الصور والأخيلة بقدر حاجته إلى بيان كمال أخلاق أتباع هذا الدين الجديد.

ثم يتدرج حسان في لغته إلى ما هو أبعد من اللسان، وهو اقتران القول بالعمل، لأن اقترانهما أعلى مراتب عفة اللسان. فبهما يأتي الفضل ويدحض الباطل. ومن مواضع تكرار هذا المعنى في شعره، ما مدح به ابن عباس رضي الله عنه¹:

[الطويل]

أَقَامَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ وَهَدْيِهِ حَوَارِيَّهُ وَالْقَوْلُ بِالْفِعْلِ يُعَدُّ
وقال يرثي عمر بن الخطاب رضي الله عنه:²

[الطويل]

مَتَى مَا يَقُولُ لَا يَكْذِبُ الْقَوْلُ فِعْلُهُ سَرِيعٌ إِلَى الْخَيْرَاتِ غَيْرَ قَطُوبِ

وقال أيضاً مفتخراً بنفسه:³

[الطويل]

وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْي فَلَسْتُ بِكَادِبٍ وَلسْتُ بِخَوَانِ الْأَمِينِ الْمُجَامِلِ
وَإِنِّي إِذَا مَا قُلْتُ قَوْلًا فَعَلْتُهُ وَأَعْرَضُ عَمَّا لَيْسَ قَلْبِي بِفَاعِلِ

فقرن هنا بين الكذب والخيانة والنفاق لأن الكاذب يخون سامعه بما يليق في أذنه من أكاذيب ودعاوى باطلة، وكذلك المنافق الذي يظهر خلاف ما يبطن، وكلاهما صفتان منافيتان للعفة والصدق.

وكان لهذا التكرار بالغ الأثر لتأكيد تلازم القول مع الفعل فهما صنوان لا ينفصلان لمن أراد الكمال وتمام الأخلاق، وقد قال تعالى ذلك [كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ]⁴

¹ . حسان، الديوان ، 294.

² . حسان، م،ن، 212.

³ . حسان، م،ن، 280.

⁴ . سورة الصف، 3/61.

ج. عفة الأذن:

أضاف حسان إلى عفة العرض وعفة اللسان، عفة الأذن، والتي تقتضي أن يترفع الإنسان عن سماع ما لا يليق به من الغيبة والنميمة والقول الباطل. ودعا حسان الإنسان الفاضل أن يعرض عن الكلام القبيح ولا يلق له بالاً؛ لأنه لا يهدي إلى رشد وفضل، إنما يقود صاحبه إلى الغي والضلالة، يقول:¹

[الكامل]

أَعْرِضْ عَنِ الْعَوْرَاءِ إِنْ أَسْمِعْتَهَا وَأَقْعُدْ كَأَنَّكَ غَافِلٌ لَا تَسْمَعُ
وَدَعْ السُّؤَالَ عَنِ الْأُمُورِ وَحَفْرِهَا فَلَرُبَّ حَافِرٍ حُفْرَةٍ هُوَ يُضْرَعُ
وَالزَّمْ مُجَالِسَةَ الْكِرَامِ وَفِعْلَهُمْ وَإِذَا اتَّبَعْتَ فَأَبْصِرْ مَنْ تَتَّبَعُ
لَا تَتَّبِعَنَّ غَوَايَةَ لِصَبَابَةٍ إِنْ الْغَوَايَةَ كُلَّ شَرٍّ تَجْمَعُ
وَالشُّرْبُ لَا تُدْمِنُ وَخُذْ مَعْرُوفَهُ تَخْرُجْ صَاحِحَ الرَّأْسِ لَا تَتَّصِدَّعُ

يكرر حسان صيغة فعل الأمر في أبياته بهدف الالتماس. فنجده في البيت الأول يتبعه بكلمة معرفة (العوراء) مما يعطي شيئاً من التخصيص للأمر المأمور به أي الإعراض عن العوراء خاصة. إذ عنى (بالعوراء) كل كلمة تسمع ولا تهدي إلى رشد وتعقل إنما إلى ضلال وغي. فهناك لغو كثير لا يضير. لكنه أراد من التعريف ما يضر ويسوء.

وعطف فعل الأمر (اقعد) على فعل الأمر (اعرض) ليؤكد أن الإنسان العفيف هو الذي يقعد عن سماع قول السوء ويصم أذنه عن الفحشاء وكأن به صمماً عن ذلك؛ لأن هذا القول يؤدي إلى فساد العلاقات وتباغض الأحبة.

ويكرر حسان في البيتين التاليين كل عمل له صلة بالسماع (كالسؤال والمجالسة)، لأن كثرة السؤال فيما لا داعي فيه تعد تكلفاً وتعنتاً. وكذلك على المرء مجالسة الكرام حتى يسمع ما ينفعه ويرفع قدره لأنهم لا يتحدثون إلا بحق وفضل. بينما ينهى حسان في البيتين الرابع والخامس سامعيه من أمرين هما (اتباع الغواية، وشرب الخمر)، وجاء النهي هنا بغرض النصح والإرشاد.

¹ . حسان، الديوان، 278.

أما البيت الرابع فقد جاء بنكرة وهي قوله (غواية)، ولعله أراد تنكيرها لبيان أن الغواية واحدة لا لبس فيها، فهي ليست بحاجة لتعريف يميزها عن غيرها من الغويات. ولبيان أنها جامعة لكل شر، وقد قدّم المفعول به (كلّ) لإفادة الحصر إذ هي منبت كل سوء وأساسه. وينهي كذلك سامعه عن شرب الخمر لأنه يأتي بفاحشة وذهاب عقل، فيرتكب بذلك الإنسان ما يشينه من القول والسمع والفعل.

والشاعر هنا يتدرج بالمتلقي فيعيده إلى النقطة المركزية الأولى وهي (الإعراض عن العوراء) وكل ما يؤدي إليها كالسؤال الذي لا فائدة فيه، ومجالسة أراذل القوم لا أكابره، واتباع الغواية وإدمان الخمر. لأنّ العفيف يكف نفسه عما لا يليق بها ويحمد.

ويضفي جرس الأبيات طابعاً من الشدة والتنفير من سماع العوراء واتباع الغواية. وذلك بما يتركه حرف العين من تأثير نفسي مصاحب للكراهية والنفور لمن يقوم بهذا العمل. وهذا التنفير يعد هنا خاصية جمالية للأبيات، فهو يبين للسامع عاقبة سماع العوراء. خاصة أن الأدب القديم يعد أدب أذن لا أدب عين، إذ اعتمد القوم على مسامعهم في الحكم على النص الشعري.

د. عفة النفس:

عفة النفس تهدف إلى إخضاع الشهوات والغرائز، فيتسامى بذلك صاحبها عما في أيدي الناس حفاظاً على كرامته وصوناً لمروءته.

لذا كرر حسان حديثه عن عفة النفس في شعره الإسلامي كثيراً، لأن الإسلام ارتقى بالإنسان وفكره، فتسامت مع ذلك روحه، وإن كانت القيمة موجودة في العصر الجاهلي إلا أن قلة الموارد وضنك العيش، وقسوة الحياة، وانتشار الجرائر والموبقات. شكلت عائقاً أمام الكثير من مظاهر هذه العفة، ولكن مع مجيء الإسلام الذي وازن النفس الإنسانية، فعرفت ما لها وما عليها، اتضحت معالم تلك القيمة.

وقد قرن حسان تلك القيمة في شعره مع قيم أخرى فهي مدعاة لذلك، ولا تأتي منفردة فمن عفت نفسه ترفع عما في أيدي الناس، وأعطاهم حقوقهم، وكان كريماً جواداً سمحاً.

وقد كرر حسان ذلك بصور شتى، يقول في مدحه للرسول صلى الله عليه وسلم:¹

[الكامل]

وَاللّٰهُ رَبِّي لَا نُفَارِقُ مَا جَدَاً عَفَّ الْخَلِيقَةَ سَيِّدَ الْأَجْدَادِ
مُتَكْرِماً يَدْعُو إِلَى رَبِّ الْعُلَا بَذَلَ النَّصِيحَةَ رَافِعَ الْأَعْمَادِ
مِثْلَ الْهَلَالِ مَبَارِكاً ذَا رَحْمَةٍ سَمَحَ الْخَلِيقَةَ طَيِّبَ الْأَعْوَادِ

ضم حسان إلى قيمة العفة قيماً أخرى جليلة، ليدلل على أن الممدوح شخص كامل لا نظير له، وحقاً له ذلك صلى الله عليه وسلم. وقد أورد حسان المشتقات بصيغها المختلفة لبيان أنه صلى الله عليه وسلم قد حوى كل تلك السمائل، إذ إن تكرارها أبلغ من الإتيان بالفعل ذاته. فصيغة اسم الفاعل تحمل في ثناياها التأكيد على تلك القيمة وتضافرها مع القيم الأخرى. فالعفيف لا بد له أن يكون (ماجداً، مكرماً، رافع الأعماد).

والتكرار يحدث ترابطاً خفياً بين الأبيات في المضمون من جهة، وفي الموسيقى من جهة أخرى. فالمتلقي للأبيات يلحظ ما تتضمنه صيغة اسم الفاعل من أصوات اللين، والتي توجي بالانسياب والسهولة، وربما أراد الشاعر من تلك الأصوات الإبانة عن سماحة خلق النبي وطيب عوده مما يبعث بالسكينة والطمأنينة إلى النفس. مما يحدث نوعاً من الانسجام ما بين التناغم الموسيقي لصيغ اسم الفاعل وبين الانسجام الدلالي لها.

وقد أتبع في البيت الأول صفة العفة بلفظة (الخليقة) ليدلل على أنه صلى الله عليه وسلم عفيف بطبعه وخلقه ولا يتعمد ذلك.

وهذا ما أضافته صيغة (الصفة المشبهة) على المعنى في قوله (عفّ، بذل، سمح) وهو أيضاً وجود بالنصيحة عن طيب خاطر فهو الناصح الأمين، وهو سمح بطبعه.

وكرر حسان الجمع ما بين قيمة العفة وغيرها من القيم في شخص النبي الكريم صلى الله عليه وسلم مستخدماً صيغة الصفة المشبهة، إذ يقول:²

[البسيط]

¹ . حسان، الديوان، 338.

² حسان، م، ن، 211.

عَفٌّ مَكَاسِبُهُ، جَزَلٌ مَوَاهِبُهُ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ سَمَحٍ غَيْرِ نَكَالٍ

فقد جعل عفة نفسه صلى الله عليه وسلم في عفة مكاسبه، فالنبي لا يأتي إلا بالحلال الطيب، وكذلك أعطت صيغة (الصفة المشبهة) في قوله (عَفٌّ، جَزَلٌ، خَيْرٌ، سَمَحٌ) وتتابعها في بيت واحد دلالة على تضافر تلك القيم معاً وعلى ثبوتها جميعاً في شخص النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا يعطي الأبيات ترابطاً معنوياً فالعف لا بد أن يكون كريماً معطاءً سمحاً لا يقبل الرذائل والنقائص.

وبذلك يكون قد نوع أساليبه ليظهر قدر تلك القيمة في النفوس، ومما زاد في ترسيخها، أن الداعي إليها ما كان يوماً ماجناً متهتكاً، إنما هو شاعر العفة بكل ما تحمله من معنى، وما تدلي به من معطيات، سواء في نفسه أو في ممدوحيه فهم أهل لذلك.

2. الشجاعة:

الشجاعة خلق يتوسط الجبن والتهور، وتتكامل فيها شخصية البطل النفسية والجسدية، فالجانب النفسي يمنح البطل الثقة ويؤهله لأن يقود قومه بعزيمة ومضاء. والجانب الجسدي هو الذي يمنحه القوة والبطش للانتصار في المواقع الحربية.

وازن حسان في شعره بين الجانبين، فتضافر المعنى البطولي مع المعنى الأخلاقي. وقد يُغلب أحياناً الجانب الأخلاقي في تحديد الإطار العام لمعنى البطل، لأن البطل الذي يركن إليه يجب أن يتحلى بالمثل العليا، والفضائل السامية، ليقوم بواجبه تجاه أمته ومجتمعه. فهو سباق إلى نصره المظلوم وإيواء الجائع، وإغاثة الملهوف، وهو صاحب حلم وعلم ومروءة. وهذا ما نتلمسه في قوله:¹

[البسيط]

إِنَّ الدَّوَابَّ مِنْ فِهْرٍ وَإِخْوَتَهُمْ قَدْ بَيَّتُوا سُنَّةً لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ
وَلَا يَضُنُّونَ عَنْ جَارٍ بِفَضْلِهِمْ وَلَا يُدْنَسُهُمْ فِي مَطْمَعٍ طَبَعُ
لَا يَجْهَلُونَ وَإِنْ حَاوَلَتْ جَهْلُهُمْ فِي فَضْلِ أَحْلَامِهِمْ عَنْ ذَلِكَ مَتَسَعُ
كَمْ مِنْ مُوَالٍ لَهُمْ نَالُوا كَرَامَتَهُ وَمِنْ عَدُوٍّ عَلَيْهِمْ جَاهِدٍ جَدَعُوا
فَإِنْ فِي حَرْبِهِمْ فَأَتَزَكَّ عِدَاوَتَهُمْ سُمًّا يُثْنُنُ عَلَيْهِ الصَّابُ وَالسَّلْعُ
لَا فخر إن هم أصابوا من عدوهم وَإِنْ أَصَابُوا فَلَا خَوْرٌ وَلَا جَزَعُ

¹ . حسان، الديوان، 238-239.

كأنهم في الوعى والموت مُكتَبِع أسدٌ ببيشة في أرساغها فدع

نراه يجمع بين شقّي الشجاعة (المعنوي والمادي)، فقوم النبي صلى الله عليه وسلم يتحلون بجانب شجاعتهم وإقدامهم واستبسالهم بالكرم والحلم والعفة والنصرة. وكلها أخلاق وشيم متى ما تحلى بها الفارس، كان له السبق والسؤدد والمكانة والمرموقة. فالشجاعة الحقيقية هي أن يقهر الإنسان نوازع نفسه، وأن يجاهد رغباتها وهواها. وهذا ما دفع حسان بأن يبدأ مدحه وفخره بالقيم المعنوية قبل حديثه عن شجاعة القوم.

بدأ حسان شطري قصيدته بأسلوب خبري طلبى (إن الذوائب، قد بينوا)، وذلك للتأكيد على تفردهم في أخلاقهم وصفاتهم وعلو شأنهم، بخاصة أنه يناقض بها شاعر وفد تميم الذي لم يكن أسلم بعد. فأراد استخدام هذا اللون من التأكيد لأن المخاطب طالب في نفسه التثبيت في الحكم وهو صحة نبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم. ولعله ختم بيته الأول بصيغة المبني للمجهول في قوله (تتبع) ليبين مدى إتباع الناس لهم. وأن هذا الإلتباع شامل للناس جميعاً، وأنه ليس حصراً لطائفة دون أخرى، فأراد الشاعر أن تكون هذه السنة المتبعة المبينة للناس شاملة عامة.

إن تناوب حرفي الطاء والعين في أبياته يسترعي انتباه السامع، فهي ليست بالحروف السلسلة المنسابة كانسياب الماء، إنما هي حروف ثقيلة متنافرة راسخة كرسوخ الجبال، وتتناسب موضع الفخر والمحااجة، وتدعو السامع إلى استخلاص القيم الجمالية والدلالية فيما وراء النص.

إن لتكرار حرف النفي (لا) دلالة خاصة، فهو ينفي عن المسلمين كل منقصة ومعيبة، وأكد على ذلك تصدرها لأبيات عدة بشطريها.

وفي استخدام الشاعر للفظتي (الصاب، والسلع) دلالة على بسالة المسلمين وشجاعتهم، فهما نوعان من الشجر المر، وقد قرنهما (بالسّم) ليقوع الرهبة والخوف في نفوس الأعداء.

وشرع حسان بتعداد فضائل القوم، مستخدماً الضمير لما له من قدرة على إبراز المعنى، فهو ذو فاعلية دلالية في لغة الشعر. فحين يتتبع المتلقي مآل الضمير في السياق يجد دلالة المدح والفخر في لغة حسان بن ثابت، إذ يصادف ما يقرب على الخمسين ضميراً للغيبة في القصيدة كلها - وليس فقط في الأبيات المذكورة- ترجع كلها إلى المسلمين، وذلك ليدلل على أنهم حازوا جميع

مظاهر الكمال الخلقى والسيادة والسلطة جميعاً ، إضافة إلى البطولة الحربية والقوة الجسدية، مما يتيح لهم التفرد والتميز .

إن إلهام الضمير في المواضع كلها، يجعل المتلقي يبحث عن المرجع الذي يربط فيه هذا الضمير، فيشعر بذلك بأهميتهم ومكانتهم. فهم معروفون بتلك الصفات والقيم، وهم قدوة منتقاة متبعة، ونماذج محتذاة، وفي ذلك ترغيب للمتلقي رغبة تلقائية في أن ينضم لهذه الفئة المختارة على من سواها، وربما كان هذا الأسلوب هو الدافع وراء إسلام الوفد بعد سماعه القصيدة. وقد استعان حسان بهذا الأسلوب في أكثر من قصيدة، كقوله:¹

[الطويل]

فما زال في الإسلام من آل هاشم
هم جبل الإسلام والناس حولهم
بهايل منهنم جعفر وإن أمه
بهم تكشف الأواء في كل مأزق
دعائم عز لا تزول ومفخر
رضام إلى طود يروق ويقهر
علي ومنهم أحمد المتخير
عماس إذا ما ضاق بالقوم مصدر

وقد يلتحم ضمير الغائب مع ضمير المخاطب، فيعطيان معنى المواجهة كما في هجاء حسان لكعب بن الأشرف اليهودي، مما يدل على زعم الأخير وإخفاقه وكذبه وادعائه، فيقول:²

[الكامل]

لله در عصاة لاقيتهم
يسرون بالبيض الخفاف إليكم
حتى أتوكم في محل بلادكم
مستنصرين لدين نبئهم
يا بن الحقيق وأنت يا بن الأشرف
جهرًا كأسد في عرين مغرف³
فسقوكم حثفًا بأبيض مزهف
مستنصرين لكل أمر مجرف

إن تناوب ضميري المخاطب مع الغيبة يدل على اختلاف القيم عند الفريقين. فضمائر المخاطب (أنت، إليكم، أتوكم، بلادكم، فسقوكم) الراجعة إلى قوم ابن الأشرف تدل على الزعم والإخفاق، وكذلك على مواجهته لهم بذلك، بينما ضمائر الغيبة العائدة على المسلمين (لاقيتهم، يسرون، مستنصرين، مستنصرين، لدين نبئهم)، تدل على القوة القاهرة للمسلمين والتي دحضت افتراءات بني يهود ودعواهم.

¹ . حسان، الديوان، 224. وكذلك القصائد: 32، 34، 61.

² . حسان، م، ن، 306-307.

³ مغرف: النهر، ابن منظور، اللسان، مادة غرف.

ومما زاد في قيمة الأبيات الجمالية إضافة إلى القيمة المعنوية، التناغم الموسيقي لحرف السين الذي يعطي صورة واضحة للمعركة لما له من قوة إسماعية عالية، وكأن المتلقي يسمع جراً تكرر هذا الحرف صليل السيوف والحركة الدائبة القائمة في هذه المعركة، فيشعر بقوة المسلمين الحربية خاصة مع تكرار لفظة البيض في بيتين متتاليين والتي تعطي دلالة على القوة والبأس.

ولانفصال الضمير في قوله (أنت) قيمة دلالية، إذ يثير اهتمام المتلقي بالمقصود بهذا الضمير، والذي يربط الصفات السيئة به ارتباطاً تلازمياً وذلك في قوله (وأنت يا ابن الأشرف) ومن ذلك أيضاً هجاؤه لأبي سفيان إذ يقول:¹

[الوافر]

أَلَا أَبْلِغُ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي فَأَنْتَ مُجَوِّفٌ نَخْبٍ هَوَاءِ

فالصفات (مجوف، نخب، هواء) ارتبطت بأبي سفيان ارتباطاً كلياً تلازمياً، وذلك بفعل الضمير (أنت).

إن تكرار ضمير (نا) يكشف عن أهمية الذات عند الشاعر وتقديرها، خاصة عند ارتباطها بالأفعال، مما يعكس جانباً من فخره بكونه قادراً على ممارسة أعمال عظيمة مميزة، ويجعل منظومة القيم متكاملة عنده، يقول:²

[الطويل]

أَلَسْنَا بِحِلَالِينَ أَرْضَ عَدُونَا تَأْرَ قَلِيلاً سَلَّ بِنَا فِي الْقَبَائِلِ
تَجِدْنَا سَبَقْنَا بِالْفِعَالِ وَبِالنَّدَى وَأَمْرِ الْعَوَالِي فِي الْخُطُوبِ الْأَوَائِلِ
وَنَحْنُ سَبَقْنَا النَّاسَ مَجْدًا وَسُودَدًا فَنَحْنُ بِأَعْلَى فَرْعِهِ الْمُتَطَاوِلِ
نَصْرْنَا وَأَوَيْنَا النَّبِيَّ وَصَدَّقْتِ وَأَوَيْنَا بِالْحَقِّ أَوَّلَ قَائِلِ

كرر الشاعر ضمير الذات (نا) مع الأفعال في سياق الفخر بقبيلته وذلك قوله (تجدنا، سبقنا، نصرنا، أوينا) مما يمنح الأبيات بناءً مترابطاً، كما يكشف عن رؤية الشاعر وهدفه الذي يسعى

¹ . حسان، الديوان، 75.

² . حسان، م، 166-167.

إليه، وهو الفخر المتعالي بقيم قبيلته وإظهار تميزها. فقومه فاقوا الناس شجاعة وقوة وكرماً وذكراً ونصرة، فأقام بذلك لحمة ما بين الفضائل كلها

ثم ينهي الشاعر الأبيات بذكر فضائله هو، مستخدماً ضمير (ياء المتكلم) في قوله:¹

[الطويل]

وَإِنِّي لَسَهْلٌ لِلصَّديقِ وَإِنِّي لِأَعْدَلُ رَأْسَ الْأَصْغَرِ الْمُتَمَائِلِ
وَأَجْعَلُ مَالِي دُونَ عِرْضِي وَقَايَةً وَأَحْجُبُهُ كَمَا لَا يَطِيبُ لِأَكْلِ

وقد أفاد استخدام (ياء المتكلم) للتأكيد على ارتباط الذات الشخصية بالذات الجماعية، فهو جزء من هذه الفئة المميزة، وهو يؤكد هنا القيم، التي ذكرها في بداية القصيدة لأهميتها ودورها الفعال في المجتمع، فهو سهل للصديق لكنه قوي جبار يعدل رأس كل من يحيد ويميل عن الحق، ويذكر في البيت الثاني العرض ليدلل على أنه يدافع عنه بالقوة وبالمال، فجاء ذكر العرض بعد ذكر الشجاعة لبيان ذلك.

للأفعال بصيغتها المضارعة دور فاعل في تأكيد القيم الذاتية عنده كما في قوله (أعدل، أجعل، أحجب) إذ عبرت عن المعنى بشكل قوي.

استخدم الشاعر الاستفهام في البيت الأول من هذه القصيدة وهو أسلوب إنشائي غرضه التقرير. قصد الشاعر من ورائه حمل المتخاطبين على أن يقرأوا له بالفضائل والقيم التي ذكرها، وقد أكثر حسان من استخدام هذا الأسلوب للغرض ذاته، يقول:²

[الطويل]

أَلْسَنَا نَحْنُ الْعَيْسِ فِيهِ عَلَى الْوَجَا إِذَا نَامَ مَوْلَاهُ وَلَدَّتْ مَضَاجِعُهُ³
أَلْسَنَا نَكْبُ الْبُزْلَ وَسَطَ رِحَالِنَا وَتَسْتَصْلِحُ الْمَوْلَى إِذَا قَلَّ رَافِعُهُ⁴
أَلْسَنَا نُوَازِيهِ بِجَمْعِ كَأَنَّهُ أَتَى أَمَدَّتُهُ بَلِيلٍ دَوَافِعُهُ⁵
أَلْسَنَا نُكَافِيهِ وَنَعْدِلُ دَرَاهُ وَلَا نَنْتَهِي أَوْ يَخْلِصُ الْحَقَّ نَاصِعُهُ⁶

¹ . حسان، الديوان، 167.

² . حسان، م، 145-146.

³ . العيس: الناقة ابن منظور، اللسان، مادة: عيس. الوجا: باطن الخف ابن منظور، اللسان، مادة وجا.

⁴ البزل: الجمال التي أتمت عامها الثامن، ابن منظور، اللسان، مادة بزل

⁵ أتى: السيل الغريب الذي يأتيك ولم يصيبك مطره، ابن منظور، اللسان، مادة: أتى

⁶ الدرا: النشوز والاعوجاج. ابن منظور، اللسان، مادة درأ.

أَلْسِنَا نُحْيِيهِ وَيَأْمَنُ سَرِيَهُ وَنَفْرَشُهُ أَمْنًا وَيُطْعَمُ جَائِعُهُ

يسهم تكرار الاستفهام في النص في فتح المجال الدلالي، وشحنه إيجابياً، بحيث يستدرج المتلقي إلى إكمال النص، ومعرفة ما فيه من حقائق تدل على قيم قومه وشمائلهم. فالشاعر هنا لا يريد جواباً من المتلقي إنما يريد فيه إقراراً معنوياً لما جاء بعد الاستفهام.

ففي البيت الأول يدلل الاستفهام على شجاعة قومه وإقدامهم على فك العاني إذا نام عنه ابن عمه ولذت مضاجعه. وفي استخدامه للفظ (ننص) قوة إيحائية على شجاعتهم تلك، لأنها تعني الحث على السير الشديد، أي أنهم يستخدمون من الناقة أقصى سيرها حتى يشتكي البعير باطن خفه.

وكذلك الحال في الأبيات (الثالث والرابع والخامس)، إذ يدلل الاستفهام على شجاعة قومه ونجدتهم، فهم ينازلون قائد الكتيبة إذا لم يوجد من يقارعه، ويستعين بالتشبيه إذ يجعل جيش قومه كأنه السيل الذي فرقته مجاريه في ليلة ظلماء.

بينما يربط في البيت الثاني ما بين الشجاعة والكرم. فيقول ألسنا ننحر الإبل في حال القحط والجذب والجوع وشدة الزمان، ونستصلح حال ابن العم إذا قلّ ماله. فالكرم ضرب من أضرب الشجاعة المعنوية، إذ ليس من السهل على إنسان أن يقاوم هوى نفسه في الامتلاك والادخار، إلا لمن يمتلك الشجاعة والنجدة والإيثار، فتضامن كل هذه القيم مع قيمة الشجاعة، ويكون للاستفهام دور فاعل في تجسيدها وتقوية المعنى فيها.

ويفرق حسان ما بين الشجاعة والطيش والنزق، فيقول واصفاً خبيب بن عدي الأنصاري رضي الله عنه في معرض الرثاء:¹

[البسيط]

مَا بَالُ عَيْنَيْكَ لَا تَرَقَا مَدَامِعُهَا سَحًا عَلَى الصَّدْرِ مِثْلَ اللُّؤْلُؤِ الْفَلِقِ
عَلَى خُبَيْبٍ وَفِي الرَّحْمَنِ مَصْرَعُهُ لَا فَشَلٍ حِينَ تَلْقَاهُ وَلَا نَزَقِ

¹ . حسان، الديوان، 307.

يقول أن قتل خبيب كان في سبيل الله، جراً إيمانه وتصديقه به، راجياً رضاه وجنته، لا عن جبن وطيش. وقد استعان حسان للتفريق ما بين الشجاعة والبطش صيغة (الصفة المشبهة) لأنها تدل على ثبوت الصفة في نفس الشخص وذلك بقوله (فشل، نزق). فالفشل هو الرجل الضعيف الجبان.¹ والنزق هي الخفة والبطش والسفه.² وكلها صفات أصيلة في الفرد سواء أكان فشلاً أم نزقاً، والشجاعة تتوسط الأمرين.

وكما امتدح حسان الشجاعة وربطها بمختلف القيم الأصيلة، فقد هجا الجبن، وعده من الأمور المستهجنة المعيبة، كقوله في هجاء أبي سفيان:³

[الوافر]
أَلَا أَبْلَغُ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي فَأَنْتَ مُجَوِّفٌ نَخِيبٌ هَوَاءُ
فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيُنْصُرُهُ سَوَاءُ
هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتُ لَهُ بِكُفُوٍ فَشَرُّكُمْ لِخَيْرِكُمْمَا الْفِدَاءُ
فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعَرَضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ

واستعان بتكرار معاني الجبن لإيصال فكرته تلك، فقال (مجوف، نخب، هواء).

ونوع حسان ما بين الإخبار والإنشاء في تكرار مادة (هجا) ليؤكد على الجانب الماكر من أبي سفيان الذي لم يكف لسانه عن التهجم على مقام النبي الكريم صلى الله عليه وسلم. وكأنه يقول له: (أتى لك نيل ما تريد من هجائك).

ففي الموضع الأول نجده قد استخدم الفعل (يهجو) بصيغته المضارعة ليدلل على أن هجاء المشركين - على الدوام - لا قيمة له وأن مكانة النبي صلى الله عليه وسلم لا يرفعها مدحهم ولا يحطّ منها هجائهم، فهو صلى الله عليه وسلم في المرتبة الأولى السامية المرموقة دوماً

¹ .ابن منظور، اللسان، مادة فشل.

² . ابن منظور، اللسان، مادة ، نزق.

³ . حسان، الديوان، 75.

وفي الموضوع الثاني يشير إلى مطلق حدوث الهجاء ووقوعه (هجوت محمداً)، وهذا ما يدل عليه إيراد الفعل الماضي - الإخبار - ليدلل على فشل أبي سفيان، وبطلان هجائه للرجل الذي بعث رحمة ونوراً للعالمين.

بينما يأتي في الموضوع الثالث بأسلوب إنشائي استفهامي غرضه (التوبيخ والإنكار) لما تلبس أبا سفيان من غرور وصلف يقودانه إلى هجاء خير الخلق. وفي هذا الأسلوب استهجان لما قام به أبو سفيان، فشتان ما بين خلق النبي صلى الله عليه وسلم المنزه عن ترهات البشر، وبين أبي سفيان. ورد في حاشية الديوان قوله:¹

[الوافر]

هَجَوْتُ مُطَهَّرًا بَرًّا حَنِيفًا رَسُولَ اللَّهِ شِيمَتَهُ الْوَفَاءَ

وفي هذا الموضوع توضيح لقوله (هجوت محمداً)، فهناك علاقة وطيدة قائمة بين (محمد) وبين الصفات (مطهراً، برّاً، حنيفاً، شيمته الوفاء)، والعلاقة هي ملازمة للصفات لشخص النبي صلى الله عليه وسلم. وفيها مفارقة بين الصفات (مجوف، نخب، هواء) والتي وصف حسان بها أبا سفيان فكأنه يقول له: كيف تهجو رجلاً يحمل تلك الأخلاق وأنت لست له بكفاء وند.

والشاعر يثير وعي المتلقي وانفعاله من خلال التضاد في قوله (فشركما لخيركما الفداء) إذ جعل الكلمتين المتضادتين متجاورتين، ل يتيح بذلك التأمل في مفاهيم الخير والشر، والمقارنة بينهما.

وقد أحر الشاعر في البيت الأخير الخبر (وقاء) بعد العطف ليكشف عن منزلة النبي صلى الله عليه وسلم في نفوس المسلمين، وأن الوقاية تدل على العلاقة الحميمة التي تستدعي من المسلمين بذل كل معاني الطاعة المطلقة والإيثار والفداء والوفاء للرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد أدت (ألا) الإستفتاحية دوراً فاعلاً في تقوية المعنى وتقريره، خاصة عند إتباعها بفعل الأمر (أبلغ). وقد تقوم بدور السخرية والتهكم كما في قوله:²

[المنسرح]

أَلَا غَضِبْتُمْ لِأَعْبُدِ قُتَيْبًا وَيَوْمَ بُعِثَ أَظْلَهُمْ ظَافِرًا

¹ . حسان، الديوان، 75.

² حسان، م، 317 . وورد البيت الثالث في حاشية الصفحة.

وَكَمْ قَتَانَا مِنْ رَيْسٍ لَكُمْ فِي فَيْلِقٍ يُجْتَدَى لَهُ التَّلْفُ
إِنْ سُمِيرًا عَبْدَ طَغَى سَفَهَا سَاعَدَهُ أَغْبَدَ لَهُمْ نَطْفُ

أراد الشاعر من استخدام (ألا) حفز همم الأعداء على القتال ، واستثارة غضبهم للأخذ بثأر قتلهم، وكأنه أراد من وراء ذلك التدليل على اليأس من شجاعتهم ورجولتهم عن رد ما لاقوه من بأس قوم الشاعر.

وقد استخدم حسان (كم التكثرية) وأتبعها بلفظة (رئيس) للتدليل على كثرة القتلى من رؤساء تلك القبيلة، وكأنه يقول لهم: إذا كان هذا حال الرؤساء ، فما الحال مع بقية الجيش.

وكرر لفظة (أبلغ) في كثير من قصائده، إذ تصدرت مطالع كثيرة من قصائده، نظراً لطبيعة الجدل والمحااجة التي سيطرت على شعره الإسلامي، وحرصه على إيصال خطابه إلى طريق الآخر، خاصة في غرض الهجاء، واستخدامه لهذه الصيغة من فعل الأمر دليل على شجاعته ومواجهته للخصم وقوله الحق دون محاباة أو تملق. وقد هجا فيهم كثيراً من خلال المنافية للقيم كالغدر والخيانة، واللؤم، والجبن، وعدم نصره الجار.¹

وطال افتخاره بشجاعة قومه وبسالتهم، وقد جعل الشجاعة القيمة الكبرى في حياة قومه، فأغدق عليها من خياله الخصب صوراً جميلة متناغمة مع معناها، فيقول في همزيتة واصفاً خيل المسلمين المتأهبة للقتال:²

[الوافر]

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا تَثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُهَا كَدَاءُ
يُبَارِينِ الْأَسِنَّةَ مُضْغِيَاتٍ عَلَى أَكْتافِهَا الْأَسْلُ الظَّمَاءُ
تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّراتٍ تَلْطُمُهُنَّ بِالْخُمْرِ النَّسَاءُ

يبدأ الشاعر حديثه بالدعاء، سالكاً في ذلك مسلك الواثق بنفسه ويقومه، المطمئن إلى بلوغ الهدف والأرب، فيأتي بالفاظ مجلجلة تناسب مقام الوعيد والحرب، فهو يدعو على خيل المسلمين بالفناء إن لم تحقق الهدف المرجو منها، وهو إثارة النقع على رؤوس الكفار بموضع (كداء) توطئة لدخول

¹ . ينظر القصائد رقم: 12، 16، 24، 44، 75، 146، 160، 162، 216، 238، 239.

² . حسان، الديوان، 73.

مكة ورفع راية الإسلام خفاقة فوقها. وأسلوب الدعاء هذا له وقع بعيد الأثر في نفوس المشركين ، إذ يبين مدى تضحية المسلمين في سبيل الله.

ففي لفظة (مصغيات) كناية عن استعدادهم للقتال من جهة، وحفزاً لخييلهم على السرعة من جهة أخرى. إذ إن المحاربين يجعلون رماحهم على أكتاف خيلهم بحيث تحاذي أسنة الرماح أذان الخيل، فتتوهم الخيل أن الرمح يسابقها، فتظن أنها بعدوها السريع هذا تتقدم عليها، وكلما أراد الفارس إثارة هذه الخيل للعدو رفع الرمح قليلاً إلى الأمام. وبهذا وضع حسان صورة مليئة بالحركة والحيوية مستغلاً رهافة حسه، وحسن تصويره، ودقة ملاحظته في إدخال الرهبة في قلوب المشركين، وقد أعطت الإستعارة قيمتها الجمالية والدلالية في قوله: (بيارين، الأسل الظماء) إذ تدل على تعطش خيل المسلمين إلى دماء المشركين، فهي تسابق الرماح وتباريها لتصل إلى الهدف المنشود وهو قتال المشركين، فبعث حسان بذلك الحياة في صورته.

وفي البيت الثالث كناية عن أسوأ حال قد يبلغها المشركون من الانهيار والهزيمة أمام جيش المسلمين، إذ توضحها الصورة في قوله (تلطمهن بالخمير النساء) وهي كناية عن اليأس الذي وصلت إليه نساء المشركين بحيث تخرج حاسرات الرؤوس في محاولة لإيقاف زحف المسلمين نحو مكة، فيلطنن بخرهن وجوه خيول المسلمين.

الأبيات تحمل صورتين متقابلتين تماماً في المادة واللون، فالمسلمون رافعو رؤوسهم فوق خيلهم وهي منطلقة لدخول مكة، يملؤها الزهو والفخر والثقة بالنصر المؤزر، ويحملون معهم الأسل اللامعة البراقة، مقابل صورة نساء المشركين اللاتي يملأ قلوبهن السواد والهم والألم، فيلطنن وجوه خيل المسلمين بخرهن، إذ يقدم كل ما يملكن في محاولة يائسة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. وصورة النساء البائسة هذه مقابل صورة الحياة الجديدة للمسلمين في مكة بعد أن يسطع عليها نور الله. وهذه الصورة خير ما يوضح شجاعة المسلمين التي حلت على خيولهم فتأثروا بها.

إن التضعيف الذي اعترى معظم ألفاظ البيت الثالث أكسبه جمالاً إضافياً، فالبيت مكون من ستة ألفاظ ؛ ثلاثة في كل شطر، وجاء التضعيف في أطراف الشطرين، بينما جاء اللفظان غير المضعفين في الوسط، فأعطى ذلك للأبيات جرساً موسيقياً متلائماً مع انتظام وقع سنابك خيل المسلمين عند دخول مكة.

ويقول في موضع مدح شجاعة بني جفنة¹:

[الكامل]

يَمْشُونَ فِي الخُللِ الْمُضَاعَفِ نَسْجِهَا مَشَى الجِمَالِ إِلَى الجِمَالِ البَزْلِ
الضَّارِبُونَ الكَبْشَ يَبْرِقُ بِيضَه ضَرْباً يَطِيحُ لَهُ بَنَانُ المِفْصَلِ

وصف حسان ملوك الغساسنة بالشجاعة والثقة بأنفسهم، فهم يمشون إلى لقاء العدو بدروع متينة مضاعفة النسج، واختار البزل من الجمال ليشبههم بها دليلاً على اكتمال قواهم الجسمية والعقلية، إذ إن الجمال البزل هي التي أكملت عامها الثامن²، والعرب تشبه الرجال بالجمال لبيان صفة الصبر وتحمل الشدائد. ولكن تخصص البزل هنا يفيد القوة والمتانة والشجاعة والحكمة، وهذا ما أرادته لممدوحيه.

ويذكر الشاعر (البيضة) في البيت الثاني على سبيل المجاز فقد أطلق الجزء وأراد به الكل، إذ يعني رئيس القوم المدجج بالسلاح. وقوله (ضرباً يطيح له بنان المفصل) مجاز علاقته السببية، فالأصابع هي التي تقبض على أداة القتل من سيف أو رمح أو نحوه في الحرب، وهي سبب القتل، لذا عمد إلى قطع البنان ليشل بذلك تأثير اليد كلها، فيعجز المحارب عن الوقوف في مجابته، وهو تصرف يدل على الدهاء والتمرس بالأساليب الحربية، لذلك اختار كلمة (البنان) ولم يختار كلمة (الرقاب) مثلاً وما إلى ذلك مما يدل على الموت. ويتضح تفوق حسان في أنه أفرغ كل هذه المعاني في بيت واحد.

ويتحدث حسان عن شجاعة قومه مستخدماً التصريح تارة والإيحاء تارة أخرى، ولذلك ليكشف عن الفضائل الخلقية في قومه (المسلمين) مما يجعلهم قدوة متبعة ونماذج محتذاة:³

[الكامل]

كَمْ فِيهِمْ مِنْ ماجِدٍ ذِي سَـوْرَةٍ بَطَلٍ بِمَكْرَهَةِ المَكَانِ المُخْرَجِ
وَمَسْـوُودٍ يُعْطِي الجَزِيْلَ بِكُفِّهِ حَمَّالٍ أَثْقَالَ الدِّيَاتِ مُتَوَجِّجِ
أَوْ كَلِّلْ أَرْوَاعَ ماجِدٍ ذِي مِـرَّةٍ أَوْ كَلِّلْ مُسْتَرْخِي النُّجَادِ مَدَجِّجِ

¹ . وردت هذه الأبيات في حاشية ص122.

² . ينظر: ابن منظور، اللسان، مادة، بزل.

³ . حسان، الديوان، 300.

فإعطاء الجزيل بالكف، وتحمل الديات، واسترخاء النجاد، كلها كنايات يكشف اجتماعها في صعيد واحد على التكامل بين العطاء النبيل وبين القوة الحربية القاهرة.

ومما يزيد قيمة العطاء بهاءً وجمالاً، ما جاء به النص من معطيات، كاستخدام الفعل المضارع (يعطي) والذي يظهر قيمة العطاء حال حدوثه، وكأنه حاصل الآن وكذلك توضيح أداة العطاء والبذل وهي (الكف)، مما يشعر المتلقي أن قيمة الكرم متأصلة فيهم.

ولنا أن نرى تناوب الحقيقة والمجاز في قول الشاعر (حمل أثقال الديات) فتارة تُكسب الديات المدلول المجازي (الإستعارة) والذي يتضح من معنى (الحمل). وتارة أخرى يكون هذا التعبير بعيداً عن الاستعارة ليكون الحمل مرتبطاً بالنيابة في سداد الدين، فيجيء المعنى حقيقياً صريحاً لا مجازياً إيحائياً.

ويأتي التعبير الكنائى جميلاً في قوله (مسترخي النجاد)، إذ يعبر عن القوة الكامنة في نفوس المسلمين، والتي تعفيهم من الإحساس بالتأهّب والتوتر للقاء العدو.

وبهذا يكون حسان قد جعل من الشجاعة والبطولة قيمة عظمية إذ ربطها بالأخلاق الفاضلة، فصارت محط فخره وزهوه بنفسه وقومه وجماعته.

3. الكرم:

الكرم من أبرز القيم وأعظمها أثراً في حياة العرب، والتي جعلتهم يتنازلون عن مالهم ومتاعهم وطعامهم لمن يعرفون ومن لا يعرفون، ينفقونها وهم في أمس الحاجة إليها، ونفوسهم راضية بذلك، بل يسرون أيما سرور، لأنهم يعتبرون ذلك واجباً مقدساً يقومون بتأديته.

ومهما قيل في أسباب الكرم ودوافعه عند العرب، من قسوة الحياة، وجذب الصحراء، وانتشار الفقر، ونفاد الزاد، فإن الكرم يبقى سجية في العرب متأصلة في نفوسهم. فهم يلقون الضيف بالبشر والترحاب، ويبدلون له أجود ما لديهم من طعام ومتاع، ويتساوى في طبيعة الكرم السادة والعييد والخلفاء والصعاليك، حتى عُدت تلك القيمة من مفاخرهم التي يفاخرون بها.

وحسان شأنه شأن معاصريه، تمدح بهذه الخصلة في ذاته وفي قومه وفي ممدوحيه بكافة صورها المادية المألوفة عند العرب، من نحر الإبل ورفع القدور وإشعال النار، وهداية الضيفان، وإيثاره للمحتاجين على نفسه خاصة في أوقات الجذب والشدة، وكرر تلك المعاني كثيراً في شعره.

يقول:¹

[الطويل]

أَلَسْتُ بِنِعْمِ الْجَارِ يُؤَلَّفُ بَيْتَهُ لَذِي الْعُرْفِ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَمُعْدِمَا
وَنَدْمَانِ صِدْقٍ تُمْطِرُ الْخَيْرَ كَفُّهُ إِذَا رَاحَ فَيَاضُ الْعَشِيَّاتِ خِضْرَمَا
وَصَلْتُ بِهِ كَفِّي وَخَالِطَ شَيْمَتِي وَلَمْ أَكُ سَبَاباً فِي النَّدَامَى مُلَوَّمَا
وَأَنَا لِنَقْرِي الضَّيْفَ إِنْ جَاءَ طَارِقاً مِنْ الشَّخْمِ مَا أَمْسَى صَاحِباً مُسَلِّمًا
إِذَا اغْبَرَّ آفَاقُ السَّمَاءِ فَأَصْبَحَتْ كَأَنَّ عَلَيْهَا ثُوبَ عَصَبٍ مُسَهَّمَا
حَسِبْتُ قُدُورَ الصَّادِ حَوْلَ بَيْوتِنَا قَنَابِلَ دُهْمًا فِي الْمَحَلَّةِ صُيَمَا
يَظُلُّ لَدَيْهَا الْوَاغِلُونَ كَأَنَّمَا يَنْوَبُونَ بَحْرًا مِنْ سُمِيحَةٍ مُعَلَّمَا

يلاحظ المتلقي صورة حية لمشاهد الجذب والقحط التي تتعرض لها القبائل العربية، وبشاهد في هذه الصورة لوحة فنية للواغلين والغادين على قوم الشاعر، ومناظر القدور الضخمة التي كأنها خيول دهم وهي توضع وترفع على النار. فيشعر الإنسان بذلك بالسجية العربية الكريمة التي تؤثر أفضل ما عندها لقرى الضيوف والمعوزين.

توظيف الشاعر زمن الفعل المضارع أعطى قدرة لنقل الدلالة للمتلقي، وكأنها تتراءى أمامه حال حدوثها خاصة مع التحامها بعوامل الحركة واللون.

ففي البيت الأول يأتي الفعل المضارع (يؤلف) دالاً على الحركة الدائبة المستمرة للضيوف في بيته، فهو يجعل بيته مألفاً لذي العرف سواء أكان غنياً أو فقيراً.

كذلك وصفه لنديمه في البيت الثاني بقوله (تمطر) يضيف على البيت جمالية، إذ يشبه كف النديم بالسماء الممطرة التي تجود عليهم بالخير والبركة. وصورة المطر صورة للحركة الدائمة المستمرة المحببة إلى نفوسهم خاصة في أوقات الشدة والجذب خاصة.

¹ . حسان، الديوان، 128 - 129.

كذلك في البيت الخامس تتراءى الحركة والاضطراب بأقصى صورهما. استخدامه للفعل المضارع (بظل) وإتباعه بقوله (الواغلون) وهم الداخلون على القوم يأكلون معهم. ومما يزيد من اضطراب الحدث الألوان التي أضفاها في أبياته من خلال قوله (اغبراً آفاق السماء، ثوب عصبٍ مُسهماً) إذ شبه السماء في أيام الشتاء الفاحلة بالذي كسي بروداً يمنية حمراء.

ونجد في البيت السادس أثراً لهذا اللون إذ يقول (قدور الصاد) وهي قدور النحاس الصفراء، ثم يقول (قنابل دهماً) أي تحولت القدور الصفراء إلى اللون الأسود وكأنها جماعات من الخيول الدهم، وذلك لكثرة بقائها على النار لتكفي الواغلين وتسد جوعهم وبأسهم، فهم لا تنطفئ نارهم ولا تبيض قدورهم. وقد تضافرت الحركة مع اللون في هذه الصورة في قوله (ينوبون).

ومما زاد الصورة فاعلية وجمالاً قوله (بحراً) ليدلل على شدة سخاء وكرم قومه فهو لا ينضب كماء البحر المعروف بغزارة مائه.

ويأتي الشاعر في البيت الرابع بأسلوب خبري طلبى مقروناً بالفعل المضارع (إنا لنقري) وذلك ليرغم السامع على الإذعان والتسليم بكرمهم، وليؤكد على أن قومه ينحرون الإبل السليمة المعافاة من غير مرض أو علة، إذ كان بعض العرب يخلون فيقدمون للضيف أسوأ ما عندهم، كالمرأة العجوز التي أطعمت ضيفها دم الفصيد وكانت العرب تعير بذلك¹.

ومما يخفف من المبالغة التي قد نراها في بعض الأبيات استخدامه بعض الألفاظ التي تعطي معنى التشبيه والتصوير والتقارب (كأن، حسبت، كأنما).

يقول حسان في موضع آخر:²

[الطويل]

وإني لمُعطي ما وجدتُ وقائلٌ لموقِدِ ناري ليلةَ الرِّيحِ أوقِدِ
وإني لقوالٌ لذي البثِّ مرَّجَباً وأهلاً إذا ما جاءَ من غيرِ مرَّصِدِ

¹ يقول إذا جاءني الطارق على غير عدة رحبت به وأعطيته. والبث: الحال والحزن، ابن منظور، اللسان، مادة، بثث. * . قد وصفها عبد الله غنمة قائلاً:

رأت رجلاً لآحه الغزو معلماً له أسرة في المجد راس عمادها
فباتت تعيشه الفصيد وأصبحت يفزَع من هول الجنان فؤادها

المفضليات، المفضلية، 114.

² . حسان، الديوان، 133.

وَأَنِّي لِيدْعُونِي النَّدَى فَأَجِيبُهُ وَأَضْرِبُ بِيضَ الْعَارِضِ الْمَتَوَقِّدِ

كرر حسان في صدر أبياته الأسلوب الخبري الإنكاري، ليؤكد على الفكرة الموحدة في الأبيات الثلاثة، وهي كرم الشاعر وسخاؤه، وليرفع به إنكار منكر ويحملة على الإذعان والتسليم بذلك.

ويؤكد في البيت الأول على كرمه من خلال تكرار صيغة اسم الفاعل في قوله (معطٍ، قائل، موقد) وتكرار هذه الصيغة أبلغ من الإتيان بالفعل نفسه، لأنها تقرن الحدث بالفاعل مباشرة، ثم جاء بفعل أمر (أوقد) يهدف إلى إلزام كل من حوله بهذه الخصلة الكريمة.

وظف حسان صيغة المبالغة في البيت الثاني في قوله (قوال) مستغلاً ما توحى به الصيغة من التكثر والمبالغة، فهو شديد الاحتفاء بضيوفه، خاصة إذا قدموا إليه في وقت الشدة والخوف، فإنه يكثر من قوله، نزلتم مكاناً رحباً، وقصدتم أهلاً.

ويكرر حسان التأكيد في البيت الثالث بصورة جميلة وهي أنه لسخائه أسبق من المطر في البذل والعطاء، مما يضيف على البيت حسناً وجمالاً. وتكرار هذا الأسلوب الخبري يعطي الأبيات ترابطاً وتناغماً خاصة أنه يحمل فكرة موحدة.

ويلحظ في أبياته حول الكرم عموماً، إلحاحه على الفخر بكرم قومه أو كرمه الذاتي في ليالي الشتاء الباردة، حيث البرد والمطر والريح القوية، ذلك أن طارق الليل لا يحتاج إلى الطعام فحسب، إنما يحتاج إلى الأمن والدفء للأحوال التي يقاسيها في الصحراء. والإنسان الكريم هو الذي يؤوي الضيفان والطارقين في هذه الظروف القاسية، ويتحمل بذلك كثيراً من العناء والمشقة والبذل. فيتجلى مع هذه القيمة قيمة أخرى يتضافر معها، لتدلل على نبيل المضيف وشجاعته وحسن خلقه وكرم طبعه وسماحة نفسه التي كفها عن شحها وعن نزعتها إلى التملك والادخار. يقول حسان:¹

[الكامل]

وَأَنَا مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ إِذَا أَزَمَ الشَّتَاءُ مُحَالَفَ الْجَدْبِ
أَعْطَى دُورَ الْأَمْوَالِ مُعْسِرَهُمْ وَالضَّارِبِينَ بِمَوْطِنِ الرُّغْبِ

جاء الشاعر في هذين البيتين بمفردات تدل على سوء حال القوم ويؤسهم (أزم، الجذب، معسرهم، الرعب) فيقول أنا من القوم الذين إذا اشتد الزمان، وأزمت الأزمة، وتفشى القحط والجوع أسعفنا

¹ . حسان الديوان، 149. وينظر القوائد رقم: 29، 30، 70، 71، والتي تربط ما بين الكرم وبين حالة العسر والجذب.

المعسرين بأموالنا. ثم يربط قيمة الكرم مع قيمة الشجاعة، فهما صنوان متلازمان. فيفتخر أنه من القوم الشجعان الذين إذا حاول أحد أن يلمس موطن الكرامة فيهم طعنوا فيه القلب موطن الرعب. فهم كرماء وفي حال الحرب هم أبطال شجعان، وهاتان الصورتان لازمتا غرضي الفخر والمدح عنده. قال حسان في مدح قيس بن سعد:¹

[الوافر]

لَهْ كَفٌّ تَفِيضُ دَمًا وَكَفٌّ يَبَارِي جَوْدَهَا سَحَّ الشَّمَالِ

قرن حسان هنا ما بين الشجاعة والكرم، وجاء باستعارة مكنية تدل على شجاعته إذ جعل كفه كالنهر الفائض، والدم كناية عن كثرة قتلاه في الحرب. وشمل الشطر الثاني من البيت على استعارة مكنية أخرى إذ جعل كفه تباري ريح الشمال في جودها وكرمها وسرعة عطائها. وتضافر هاتين الاستعارتين في شقي البيت يعطيه قيمة جمالية. وقال أيضاً مقرباً بين الأمرين:²

[الكامل]

كَمْ قَدْ وَلَدْنَا مِنْ كَرِيمٍ مَاجِدٍ دَامِيَ الْأَظْفَرِ أَوْ رَبِيعِ مُمَطِّرِ
خُلِقَتْ أَنَامِلُهُ لِقَائِمِ مُرْهَفِ وَلِبَذْلِ مَكْرَمَةٍ وَذِرْوَةِ مَنَبَرِ

فالكريم يجود بنفسه فيكون دامي الأظافر، و يجود بماله فيكون ربيعاً ممطراً. وقال أيضاً:³

[الطويل]

مَطَاعِيمُ بِالْمَشْتَى مَطَاعِينُ بِالْقَتَا إِذَا الْحَرْبُ كَانَتْ كَالْحَرِيقِ الْمُضَرِّمِ

وقد أعطى الجناس الناقص التكامل ما بين القيمتين في قوله (مطاعيم، مطاعين) بعد أن أدى وظيفته الجمالية المنبذة به.

وبهذا يكون حسان قد وضح الكرم كقيمة بطولية، تجمع بين الإيثار والشجاعة. ففي الوقت الذي يصارع فيه الإنسان أسباب البقاء والحياة، ويظهر الكرم كبطل منقذ للفقراء والمعوزين والطارقين. فينقذهم من الفناء، ويعيد إلى عروقهم الحياة. لذلك أكثر حسان من ربط الكرم بالشجاعة.

¹ . حسان، الديوان، 276.

² . حسان، م، 387.

³ . حسان، م، 184.

ويصور حسان الكريم بصورة مثالية فهو جامع لكل خلال الخير، يعيش لقبيلته وأمته، يحمي شرفها ويصون عرضها، يقري الجائع، ويفك الأسير، ويطعم المحتاج، ويدفع الأذى عن المستجير، لا يخون عهداً، ولا يقطع وصلاً، ولا ينكث عهداً ولا يهتك ستراً. فتصبح هذه القيمة بكل معاييرها سلوكاً يسلكه دون تكلف أو عناء، كما تجسدت تلك الصفات في شخص حمزة بن عبد المطلب:¹

[السريع]

المالئ الشَّيْزِي إِذَا أَعْصَفَتْ
والتَّارِكِ القِرْنَ لَدَى لِبْدِهِ
أَبْيَضَ فِي الذَّرْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ
كُنَّا نَرَى فِي حَمْزَةٍ حَرَزًّا لَنَا
وَمَا كَانَ فِي الإِسْلَامِ ذَا تَدْرٍ
عَبْرَاءُ فِي ذِي السَّنَةِ المَاجِلِ
يَعْتُرُ فِي ذِي الخُرْصِ الذَّابِلِ
لَمْ يَمُرْ دُونَ الحَقِّ بِالبَاطِلِ
مِنْ كَلِّ أَمْرٍ نَابِتَا نَازِلِ
لَمْ يَكِ بِالْوَانِي وَلَا الخَازِلِ

يستهل حسان أبياته بذكر الكرم، والذي يجعله أصل المكارم والقيم كلها، فالكريم من يوجد بما عنده مادياً ومعنوياً. وحمزة من أولئك الكرماء النبلاء الذين يجودون بأموالهم وأرواحهم في سبيل إغاثة الفقراء والمعوزين عن جهته، ونصر دين الله وإعلاء شأنه من جهة أخرى.

فحمزة كريم يملأ جفان الخشب بالطعام ليقدمها للأضياف والمعوزين خاصة في السنة القاحلة الماحلة، وهو شجاع مقدم يقابل الأعداء بكل ما أوتي من قوة وعدة وعتاد. وهو عفيف أبيض العرض، في الذروة العليا من بني هاشم، وهو لا يدفع حقاً بباطل، فلا يماري ولا يتملق، وليس بالواني ولا المتخاذل. وكلها خلال يفضي بعضها إلى بعضها الآخر، ويرأسها الكرم في ذلك، وربما يجمعها قوله (كنا نرى حمزة حرزاً لنا).

استخدم حسان صيغة اسم الفاعل ليدلل على فضائل حمزة، مما يجعل ترابطاً معنوياً بين الأبيات من خلال دلالتها من جهة وجرسها من جهة أخرى. وهي (النائل، المالئ، التارك، لم يك بالواني، ولا الخاذل). ومن ذلك قوله في مقام الفخر بقومه:²

قومي بَنُو النَّجَارِ إِنْ أَقْبَلْتِ
لَا نَخْذِلُ الجَارَ وَلَا نُسَلِّمُ المَوَ
شَهَاءَ تَرْمِي أَهْلَهَا بِأَقْتَامِ
لِي وَلَا نَخْصِمُ يَوْمَ الخِصَامِ

[السريع]

¹ .حسان، الديوان، 220-221.

² . حسان، م، 187.

مَنَا الَّذِي يُحْمَدُ مَعْرُوفُهُ وَيُفْرَجُ اللَّزِيَّةَ يَوْمَ الرَّحَامِ

يبدأ حسان أبياته بصورة للسنة الشهباء الممحلة، إذ يصور سنته بمن يرمي الناس بالغبار. ثم يأتي بأسلوب مباشر في قوله (لا نخذل الجار، لا نسلم المولى، لا نخصم يوم الخصام). وجاء الأسلوب مكملاً للصورة، رابطاً بقية القيم بقيمة الكرم. فالكرم يتسم بالغيرية والعطاء، فلا يحتمل أن يكون ميسور الحال في رغد وجاه، بينما يجوع جاره ويذل حليفه، خاصة في أوقات الشدة والبؤس. وأكد على أن الكرم يرأس القيم كلها، فهو ليس خلقاً واحداً مفرداً. حيث يقول:¹

[الطويل]

فَسَوْدَ بَشَرَ بْنِ الْبَرَاءِ لَجُودِهِ وَحَقَّ لِبَشَرَ بْنِ الْبَرَاءِ أَنْ يُسْوَدَا
فَلَيْسَ بِخَطِئِ خَطْوَةِ لَدْنِيَّةٍ وَلَا بِأَسْطِ يَوْمِ إِلَى سَوْءَةٍ يَدَا
إِذَا جَاءَهُ السُّؤَالُ أَنْهَبَ مَالَهُ وَقَالَ خُذُوهُ إِنَّهُ عَائِدٌ غَدَاً

يرينا مقومات السيادة، إذ بدأها بالجود، لأنه لا يبخل على قومه. فيغدق على معسرهم، ويفك أسيرهم، ويكرم ضيفهم، ويسد دين مدينهم، وقد استعان على توضيح ذلك بصورة بيانية هي قوله (أنهب ماله) أي أغدق من ماله على سائليه دون حساب كمن يأخذ وينهب من غير ماله فلا يكثر بنقصانه.

ومن بديع تأثير الكرم على قوم حسان، أن هذه القيمة انعكست أيضاً على كلابهم، فغيرت من طبائعها، إذ صارت تأنس بوجود الغرباء فلا تهر منهم، حتى غدا وصف الكلاب بالجبين دليل الكرم والجود، بينما يدل نبج الكلاب في وجوه القادمين على بخل صاحبها، إذ لم تعد على كثرة الضيفان والطراق لبيتها، يقول حسان:²

[الكامل]

يُغَشَوْنَ حَتَّى مَا تَهَرَ كِلَابُهُمْ وَلَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ

فالشر الثاني جاء مكملاً للشر الأول، وبطريقة النفي مباشرة، دون استخدام الأساليب البيانية، وقد شكلت المباشرة هنا صورة واقعية تتراءى أمام المتلقي حال حدوثها، إلا أنه يشعر معها بخيال خصب. إلى جانب ذلك نراه يذم البخل ويقبحه للنفوس عبر صور ساخرة، يقول:³

¹ . حسان، الديوان، 382.

² . حسان، م، ن، 123.

³ . حسان، م، ن، ص 132.

[الطويل]

إِذَا كَانَ ذُو الْبُخْلِ الذَّمِيمَةُ بَطْنُهُ كَبِطْنِ الْحَمَارِ فِي الْخَلَاءِ الْمُقَيَّدِ

يشبهه حسان الإنسان البخيل الذي يكنز ماله فلا ينفقه شحاً وحرصاً بالحمار المقيد في الخلاء الذي لا هم له إلا ملء بطنه.

والجدير بالذكر أن حسان لم يمجد القيمة لشدة كلفه بحسن الأحداث، وطيب الثناء، وطمعه في اجتلاب المكانة السامية المرموقة، وخوفه من الذم والنشهير. فلم يرد في أبياته ما يدل على ذلك. إنما فخر بوجودها في نفسه وفي قومه لإيمانه بها، ويقينه بأهميتها، فهي في وجهة نظره قانون لا يمكن تجاوزه أو خرقه. فهي قيمة ذات أبعاد اجتماعية وسياسية واقتصادية، فعلى الصعيد الاجتماعي تغرس قيماً مثلى في نفس العربي كالحرص على الجار، وإشراكه في الزاد، وفك العاني والأسير فتوثق بذلك أواصر التكافل في المجتمع. وهي على الصعيد السياسي تجمع كلمة القبيلة، وتمنع التفرق والتشتت، فالكرم الذي يجود في الأوقات العصيبة يجعل قبيلته كالبنيان المتراس الذي لا تزعزعه الحوادث والنوازل. أما على الصعيد الاقتصادي فهي تكفل لجميع أبناء القبيلة حياة كريمة.

ومن الدلائل على أهمية الكرم في هذا الصعيد، بروز طبقة الصعاليك، والتي كان من أبرز عوامل ظهورها العامل الاقتصادي. فقد ثاروا على أصحاب المال الذين يكنزونهم، ولا يقدمون بعضه إلى ذويهم وأرحامهم وأبناء قبيلتهم. ولم يكن هدفهم من ثورتهم كنز المال وتحقيق الثراء، إنما كانت غايتهم بذله للضعفاء والأضياف والمعوزين في أيام الجذب والشدة التي لا يجد فيها الناس ما يطمعون به.

وله حكَم في الكرم والعطاء تبين أثره في التأخي والتكافل:¹

[الطويل]

وَإِنْ أَمْرًا نَالَ الْغِنَى ثُمَّ لَمْ يُنَلْ قَرِيبًا وَلَا ذَا خَلَّةٍ لَزْهِيْدُ
وَإِنْ أَمْرًا عَادَى الرَّجَالَ عَلَى الْغِنَى وَلَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ الْغِنَى لِحَسْوَدُ

¹. حسان، الديوان، 352.

أي أن المرء الغني الذي لا يعطي أقرباءه وأصدقاءه فهو لئيم، ويرى أن الحسود هو الذي يحسد الأغنياء على مالهم، ولا يطلب ذلك من الله الغني الحميد.

4. المروءة:

المروءة من أخلاق العرب التي يقيسون بها الرجال، ويزنون بها العقول، وهي خلق جليل، وأدب رفيع، تميز بها الإنسان عن غيره من المخلوقات. والمروءة: (فعولة) من لفظ المرء، كالفتوة من الفتى، والإنسانية من الإنسان، وبهذا كانت حقيقتها اتصاف النفس بصفات الإنسان التي فارق بها سائر المخلوقات.

وهي خلة كريمة، وخصلة شريفة تحمل الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات، مع الارتقاء بها إلى مراتب الحكمة والمسؤولية. وهي كذلك تدعو الإنسان إلى ترك ما يندسه ويشينه، كالخصام والمعاتبة والمطالبة والممارسة وغيرها.

المروءة هي القيمة المركزية في الموروث العربي الخالص، وهي جملة من القيم التي يتحقق بها السؤدد، كالحلم والصبر ونجدة الجار، والوفاء وتحمل المغارم والديات والحزم والعدل. وأصحاب المروءات ومكارم الأخلاق في الجاهلية إذا أسلموا وفقهوا صاروا خيار الناس في الإسلام.

وتنطبق القيمة على حسان فقد صورها في جاهليته وإسلامه، يقول في مروءة سيد العشيرة¹:

[الطويل]

وتَلْقَى عَلَى أْبْيَاتِنَا حِينَ نُجْتَدَى	مَجَالِسَ فِيهَا كُلُّ كَهْلٍ مَعَمَّ
رَفِيعِ عِمَادِ الْبَيْتِ يَسْتُرُ عِرْضَهُ	مِنَ الدَّمِّ مَيْمُونِ النَّقِيبَةِ خِضْرَمٍ ²
جَوَادٍ عَلَى الْعِلَاتِ رَحْبَ فَنَاوَهُ	إِذَا سُئِلَ الْمَعْرُوفَ لَمْ يَتَجَهَّمْ
ضَرْوِبٍ بِأَعْجَازِ الْقِدَاحِ إِذَا شَتَا	سَرِيعٍ إِلَى دَاعِي الْهَيْجِاجِ مُلَوِّمٍ
أَشْمَ طَوِيلِ السَّاعِدِينَ سَمِيدِعٍ	مُعِيدِ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ مُكَلِّمٍ ³

أكثر حسان من وصف سيد العشيرة بصيغ صرفية مختلفة، ليدل على أن السيد يحمل جملة من الصفات والأخلاق التي تتحقق بها السيادة. فقد أتى بصيغة (الصفة المشبهة) (رفيع، سريع،

¹ . حسان، الديوان، 184.

² النقيبية: الخليفة، ابن منظور، اللسان، مادة نقب.

³ سميدع: السيد الكريم، ابن منظور، اللسان، مادة سميدع.

طويل) لما تحويه هذه الصيغة من معنى الثبوت، فسيد العشيرة ذو أصل رفيع كريم. ورث تلك الأخلاق كائناً عن كابر، وهو شجاع سريع إلى إجابة داعي الحرب، وليس بالجبان المتخاذل، وهو كريم جواد، قد كنى عن تلك القيمة بقوله: (طويل الساعدين) مما أضاف لذات الصفة قيمة جمالية.

وجاء أيضاً بصيغة اسم المفعول في قوله (معّم، ميمون، معلّم). ففي قوله معّم دليل على سيادته لأن تيجان العرب العمائم،³ وقد عُمّ لما يحمله من خلال أصاب بها السؤدد. بينما نجد لفظة (ميمون) جاءت بعد فكرة طيب عرقه وأصله، ليدل على أن هذا الميمون المبارك قد اكتسب الصفة من أصله الرفيع. أما في قوله (معلّم) فهي دليل على شجاعته وبسالته فهو مجرّح لكثرة خوضه الحروب والمعارك. وقد أتى بلفظة واحدة على صيغة أفعال التفضيل وهي (أشم) إذ تعني علوه في الأمور كلها فجمعت خلال كلها، لذلك حق لذلك الشيخ أن يعّم ويسود لمروءته.

وفي موضع آخر يوضح حسان شروط السيادة عندهم، يقول:¹

[الطويل]

وإنّا لَقَوْمٌ ما نُسَوِّدُ عاجياً ولا نأكلُ عِنْدَ الحَمالةِ زُملاً
ولا مانعاً للمالِ فيما يُنوبُه ولا عاجزاً في الحربِ غُمراً مُغفلاً²
ولا جُبُساً عَبابَةً مُتَهَكِّماً عَلَيْنَا ولا فَهاً كَهاماً مُقَيلاً³
نُسَوِّدُ مِنْما كُلُّ أَرْوَغٍ بارِعٍ أَعَرَّ تَراهُ بِالْجَلالِ مُكأَلاً
إذا ما أُنْتَدى أَجنى النُّدى وابْتنى العُلا وأُلفي ذا طَوْلِ عَلى مَنْ تَطوَّلاً

أقر حسان شروطاً يجب توافرها في سيد العشيرة، والتي تجمعها كلمة (المروءة). فعلى هذا السيد أن يكون من ذوي السن والخبرة والحكمة والحلم، وسداد الرأي وبعد النظر، والكرم، والشجاعة، وطلاقة اللسان، بحيث يحوز رضا القبيلة وإعجابها، وينال احترامها، فالقبيلة ترضى لها رئيساً أو شيخاً تتوافر فيه صفات الرجولة والبطولة والنجدة والكرم وعراقة الأصل وصفاء النسب، وكلها صفات تؤهله للقيادة والزعامة.

* ابن منظور، اللسان، مادة عمم. وربما أراد أن كل جناية يجنيها أحد في العشيرة تعصب برأسه.

¹ . حسان، الديوان، 273.

² . عمر: رجل غير مشهور، ابن منظور، مادة عمر.

³ . جعيساً: الأحمق، ابن منظور، اللسان، مادة جعيس. فهأ: العي، ابن منظور، اللسان، مادة فهأ. كهاماً بطيئاً عن النصرة والحرب ابن

منظور، اللسان، مادة كهم. مقيلاً: رجل ضعيف الرأي، ابن منظور، اللسان، مادة فيل.

واستعان حسان بالترادف لتوضيح الصفات، إذ يلتقي في الترادف التكرار والتأكيد في خط واحد، وذلك لتقرير الأمر في الذهن وتمكينه من النفس.

وجاء الترادف على الصفات التي لا ينبغي توافرها في الشيخ المعمم وهي:

- **الحمق**: وهو ضد العقل والحكمة والحنكة، والأحمق يقود قومه إلى الضلالة والهلاك. ومن مرادفاته في هذه الأبيات (جعبس، مغفل).

- **الجبن**: فالجبان عاجز عن الدفاع وعاجز عن البذل وعاجز عن إبداء رأيه. ومن مرادفاته (عاجزاً في الحرب، ناكلاً عند الحمالة زملاً) فهذا السيد الجبان ينكص على عقبيه في الحرب وعند تحمل الديات والمغارم.

- **سوء الخلق**: ومن مرادفاته (متهمك، عاجياً، عيابة). وسوء الخلق لا يسلم أحد من أذيته، ويأتي الفواحش والنقائص.

- **العجز**: ومن مرادفاته في الأبيات (فهاً، مفيل، الكهام) لأن العاجز لا يستطيع أن يكون حازماً شجاعاً ذا رأي وصواب.

- **البخل**: وجاء في البيت الخامس، فهذا الرئيس يجد المجتدي عنده كل ما يطلب. وقد جاء باستعارة مكنية ليجيب هذه الصفة إلى النفوس بقوله (أجنى الندى) وهي مستمدة من جناء الشجر.

ليست المروءة في اتیان الفضائل فقط، وإنما أيضاً كف الأذى، واحتمال العثرات، وصيانة النفس وتزكيتها وتنقيتها من الشوائب وحملها على الوقوف مواقف الخير والصلاح. تلك الصفات جسدها حسان في رثائه لعدي بن مطعم:¹

[الطويل]

أَجَزْتَ رَسُولَ اللَّهِ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا عِبَادَكَ مَا لَبَّى مَلَبَّ وَأَحْرَمَا
لَقَالُوا هُوَ الْمُوفَى بِخَفَرَةِ جَارِهِ وَذِمَّتْهُ يَوْمًا إِذَا مَا تَدَمَّمَا
أَبِيًّا إِذَا يَأْبَى وَالْيَيْنَ شِيمَةً وَأَنْوَمَ عَنْ جَارٍ إِذَا اللَّيْلُ أَظْلَمَا

حسن الجوار وإغاثة الملهوف من المروءة، وهذا المطعم بن عدي أجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما اشتد أذى قريش عليه وعلى قومه، وقد بين حسان هنا مكارم الأخلاق التي تحلى بها المطعم بن عدي، فهو يوفي بذمة جاره وعهده إذا طلب أن يدخل في ذمته، وهو أبي يرفض

¹ . حسان، الديوان، 243-244

الذل والهوان وقد جاء حسان هنا بكناية في قوله (أنوم عن جار) أي لا يؤذي جاره، وقد أعطت الكناية نوعاً من التخفيف ، إذ أن أسلوب القصيدة تقريرية مباشر.

ربط حسان هنا بين القيم، فالأبي لا يرضى الذل لنفسه، لذلك لا يرتضيه لغيره، فنجده يجبر من استجاره، ويحفظ الذم، ويغفل عن إيذاء جاره.

ومن الملاحظ أن المروءة في الشعر العربي عامة وشعر حسان بخاصة ، غالباً لا تأتي بلفظها الصريح، وإنما تأتي بما تحويه من قيم وفضائل كالحلم مثلاً. فالحلم هو احتمال الأذى، وكظم الغيظ، والعفو عن المسيء والإحسان إلى المخطئ وملك النفس عند الغضب.

لم يحفل شعر حسان بذكر الحلم كثيراً، ربما لأنه كان سريع الانفعال، فلا يحب أن يتغنى بما ليس فيه، ولكنه ذكرها في غيره إذ يقول:¹

[الطويل]

وَلَوْ وُزِنَتْ رَضْوَى بِحِلْمِ سُرَاتِنَا لَمَالَ بَرِضْوَى حِلْمُنَا وَيَلْمَأَمِ
فَنَحْنُ كَمَاكَ، الدَّهْرَ، مَا هَبَّتِ الصَّبَا نَعُودُ عَلَى جَهَّالِهِمْ بِالتَّحْلَمِ
فَلَوْ فَهَمُوا، أَوْ وَقَّفُوا رُشْدَ أَمْرِهِمْ، لَعُدْنَا عَلَيْهِمْ بَعْدَ بُؤْسَى بِأَنْعَمِ

يبدأ حسان أبياته بتشبيهه قد يصل إلى حد المبالغة، فيقول لو وزنت عقول رجالنا وحلمهم لفاقا جبلي رضوى ويللم. بل لمال هذان الجبلان بنقل حلمهم ورجاحة عقولهم.

وفي قوله (التحلم) معنى التظاهر بالشيء والتكلف به. ويحتاجون لذلك مجاهدة شديدة، لكنهم يحاولون هذا حتى يكونوا قدوة حسنة ويعيدوا الجهال إلى رشدهم، فإذا ما عادوا أنعموا عليهم. أما عند مدحه آل النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الحلم بمعناه الحقيقي لا بالتكلف والتظاهر، لأنهم بإسلامهم قد بلغوا هذه المرتبة العليا، وكان الله الحليم قضى لهم نصيباً منها. يقول:²

[البسيط]

لَا يَجْهَلُونَ وَإِنْ حَاوَلَتْ جَهْلُهُمْ فِي فَضْلِ أَحْلَامِهِمْ عَنِ ذَاكَ مُتَّسِعُ

¹ . حسان، الديوان، 183.

² . حسان، م. ن، 238.

فالحلم أفضل من كظم الغيظ، لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلّم أي تكلف الحلم. ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه، ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة، ولكن إذا ما تعود ذلك مدة، فلا يهيج الغيظ. وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب ومشقة. وهنا يكون الحلم الحقيقي، وهو دلالة على كمال العقل، وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل، ولكن ابتدأه بالتحلم¹، لذلك كان ذكر التحلم في شعره الجاهلي، فإذا ما جاء الإسلام وهذب النفوس، أصبح الحلم. وهذا لا يعدم سيد العشيرة عندهم، أو كبار قومه من الاتصاف بالحلم، إلا أن تأثير الإسلام عليها كان أعظم، لما يلقاه العلماء عند الله من جزاء.

وكذلك العدل، تلك القيمة الجامعة لمعاني الخير، إذ هي ترجيح لجانب الخير على الشر، والإحسان على الإساءة. ولكي تتحقق قيمة العدل في مجتمع ما، لا بد لأفراده من مراعاة القواعد الإنسانية التي يقرها ذلك المجتمع، ويعترف بها.

من هنا كانت صورة العدل تختلف بعض الشيء عن صورتها في الجاهلية، إذ ردها في الإسلام إلى المنهاج الربّاني القويم. وهذا ما تمثّل في شخص الزبير بن العوام رضي الله عنه:²

[الطويل]

أَقَامَ عَلَىٰ مَنَاجِيهِ وَطَرِيقِهِ يُوَالِي وَلِيَّ الْحَقِّ وَالْحَقُّ أَعْدَلُ
 إذ جعل العدل هو السير على الطريق المستقيم القويم، فلا يحيد عنه، حتى لا يعدل عن الحق بالباطل، وقد استخدم هنا الأسلوب المباشر لأنه إزاء توضيح فكرة معينة وهذا هو النهج الذي التزمه غالباً في شعره الإسلامي. ومنه قوله:³

[البسيط]

وَقَائِلُهُمْ بِالْحَقِّ أَوْلُ قَائِلٍ فَحُكْمُهُمْ عَدْلٌ وَقَوْلُهُمْ فَصْلٌ.

والذي اتبع فيه الأسلوب نفسه، بينما يلاحظ في أسلوبه الجاهلي استخدامه للأساليب البيانية، يقول:⁴

[الكامل]

وَتَزُورُ أَبْوَابَ الْمُلُوكِ رِكَابَنَا وَتَمِي نَحْمًا فِي الْعَشِيرَةِ نَعْدِلُ

¹ . ينظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، 238/3.

² . حسان، الديوان، 294.

³ . حسان، م، ن، 142.

⁴ . حسان، م، ن، 125.

إذ جاء باستعارة مكنية في قوله (تزور ركابنا) والركاب هي الإبل التي تحمل القوم، فجاء بالمشبه به وهو الإبل وحذف المشبه وهو القوم، وجاء بشيء من لوازمه وهي (تزور). وقوله:

[المتقارب]

ويثرب تعلم أنا بها إذا ألبس الحق ميزانها

إذ جاء بمجاز مرسل علاقته المحلية، فذكر المحل وأراد الحال في قوله (يثرب).

ولعل النعوت تكثر في الشعر البدائي، لطغيان النزعة الوصفية عليه، ولعجزه عن التعبير النافذ المباشر الذي يقبض على أعماق الحقيقة بالصورة القاطبة، فهذه النعوت هي وسيلة من وسائل نقل الانفعال من نفس الشاعر، إذ يخيل إليه أن ما يحشده من نعوت تتناوله في كل احتمال وكل جهة، في حين يغلب التقرير والسرود على طبيعة الشعر الإسلامي لأنه يرتبط بأحداث الواقع ويحتاج إلى المعارضة والنقاش والرد والبرهان.

ولم يكن لهذه القيمة ذكر كثير في شعر حسان، ربما لأنه استعاض عن ذكرها بقيم أخرى تدل عليها، كالنجدة والنصرة والكرم. ويعيب حسان كثيراً من الأفعال المنافية للمروءة، كما في هجائه للحارث بن عامر الذي سرق الغزال من الكعبة، يقول:¹]

[البسيط]

يا حارٍ قد كُنتَ لولا ما زُميت به لله دركٍ في عزٍّ وفي حسَبِ
جَلَّتَ قومَكَ مَخْزاةً وَمَنْقَصَةً ما لَنَ يَجَلُّهُ حَيٌّ مِنَ الْعَرَبِ
يا سالبَ البيتِ ذي الأزمانِ حليتهُ أدَّ الغزالَ فلَنَ يَخْفَى لِمُسْتَلِبِ

وقد بين حسان استيائه من هذا الفعل باستخدامه أداة نداء البعيد (يا) مكررة في البيت الأول لتحقير الحارث بن عامر، ولبيان بعده عن كل القيم والأعراف المتداولة في أي مجتمع كان. وقد أتبع النداء بالاسم المرخّم مرة ليؤكد على هذا التحقير وتصغير الشأن، واتبعه باسم الفاعل مرة أخرى (سالب) ليجعل من السلب صفة لصيقة بالحارث ينادى بها نظراً لفعلة المشينة.

¹ حسان، الديوان، 293.

كما وظف الشاعر الترادف في البيت الثاني (مخزاة ومنقصة) بشكل جيد يؤدي المعنى المنوط به، وهو بيان ما وقع فيه الحارث من بلية وشر وشهرة فذل بذلك وهان. وقد يكون (ما) في الشطر الثاني بدلاً من المخزاة والمنقصة فتكون مؤكداً ثالثاً للهوان الذي حلّ به.

وقد أتبع ذلك بقوله (ما لن يجلله حي من العرب) باستخدام (لن) التي أفادت التأييد، بمعنى أن ما ألبسته لقومك لن يلبسه حيّ من العرب أبداً.

وقد أدى فعل الأمر (أد) دوره في القصيدة بغرض الإهانة والتحقير، إذ يأمره بإعادة ما سلبه من البيت ذي الأركان، إذ كيف يجروء على سرقة البيت الحرام (ذي الأركان). وهجا حسان سارقاً آخر هو طعمة بن أبيرق الظفري، وكان قد سرق درعي حديد في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.¹ وقد هجا أقواماً لما فيهم من خلال مناقضة للمروءة، كاللؤم والجبن، والغدر، والخديعة، وعدم حفظ الغيب.²

ومن خير قصائده وجيادها، مرثيته الدالية التي رثى بها المصطفى صلى الله عليه وسلم، وقد بين فيها كل ما يتصل بالمروءة من صفات وخلق وشيم وفضائل، فهو صلى الله عليه وسلم أهل المروءة والفضل. وإن كان حسان قد اجتهد بتصوير بعض منها، وقصّر عن بعضه الآخر، وحسبه ذاك، فمن يدرك تلك الشخصية بكاملها فعلاً أو قولاً؟

تتحصر معاني القصيدة في فكرة رئيسة واحدة، هي رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم منها أفكار جزئية مترابطة الحلقات. وهي قصيدة تتوفر فيها الوحدة الموضوعية إذا نظرنا بمنظار العصر الذي قيلت فيه.

لقد عجّ صدره بالحزن والأسى، لفقد النبي صلى الله عليه وسلم لذلك تكررت مادة (بكي) كثيراً في القصيدة، منها مرات في بيته القائل:³

[الطويل]

يُبْكُون مَن تَبْكِي السَّمَاوَاتُ يَوْمَهُ وَمَنْ قَدْ بَكَتْهُ الْأَرْضُ فَالنَّاسُ أَكْمَدُ.

¹ . حسان، الديوان، 285.

² . ينظر: مبحث الهجاء من الفصل الثاني.

³ . حسان، م.س، 378.

ثم يحول الحديث إلى عينيه فيخاطبهما قائلاً:¹

[الطويل]

فَبَكَّى رَسُولَ اللَّهِ يَا عَيْنَ عِبْرَةٍ وَلَا أَعْرِفَنَّكَ الدَّهْرَ دَمْعَكَ يَجْمَدُ
وَمَالِكَ لَا تَبْكِينَ ذَا النِّعْمَةِ الَّتِي عَلَى النَّاسِ مِنْهَا سَابِغٌ يَتَغَمَّدُ

أي أكثرني يا عين من البكاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أعهد دمعتك يجمد مدى الدهر، ومالك لا تكثرين البكاء على ذي النعمة الكاملة التي غمرت الناس وشملتهم بفضلها؟ وجمود العين بالدمع كناية عن انقطاعه. فالشاعر يطلب من عينيه أن تجود بالعبارة في الوقت الذي لن يكون لها بعده حاجة لبكاء غيره صلى الله عليه وسلم. وإحاحه عليها بالبكاء كناية عن ثقل الرزية التي رزى بها حسان وغيره من المسلمين بفقد المصطفى صلى الله عليه وسلم، والذي اجتمعت فيه أفضل القيم والشمائل.

وقد استعان حسان على ذلك بالأساليب الخبرية كاستخدام فعل الأمر الذي أدى غرض التمني. فالأمر ينطلق من مشاعر مكنونة إلى رؤى هيهات لها أن تتحقق. وقد استخدم في الشطر الثاني الأسلوب الخبري الطلبية، إذ أكد بنون التوكيد الثقيلة، وكأنه في قوله (لا أعرفنك) إذ أكد بنون التوكيد الثقيلة، وكأنه يحتاج عينه ويؤكد لها سالف عهدتها بالبكاء.

وكذلك الحال في البيت الثاني لجأ الشاعر إلى الاستفهام الاستنكاري في قوله (مالك لا تبكين)، إذ ينكر على عينيه ويستهنج منها عدم بكائها على سيد الخلق.

وقد ابتدأ حسان بمادة (بكي) قبل ذكره مآثر النبي الكريم وفضائله وأخلاقه، ليبين مدى الحزن والألم والفراغ الذي تركه النبي صلى الله عليه وسلم فيهم بعد رحيله. وكأنه يجد في ذكر فضائله سلوى وتصبيراً لما يجيش في صدره من ألم وحزن. ثم يبدأ بتعداد مناقب النبي صلى الله عليه وسلم فيقول:²

[الطويل]

لَقَدْ غَيَّبُوا حِلْمًا وَعِلْمًا وَرَحْمَةً عَشِيَّةً عَلَّوهُ الثَّرَى لَا يُوسِّدُ
عَفْوٌ عَنِ الزَّلَّاتِ، يَقْبَلُ غُدْرَهُمْ وَإِنْ يُحْسِنُوا، فَاللَّهُ بِالْخَيْرِ أَجْوَدُ

¹ . حسان، الديوان، 379.

² . حسان، م، ن، 378-379.

وَإِنْ نَابَ أَمْرٌ لَمْ يَقُومُوا بِحَمْلِهِ فَمِنْ عِنْدِهِ تَيْسِيرٌ مَا يَتَشَدَّدُ
عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَجُورُوا عَنِ الْهُدَى حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَسْتَقِيمُوا وَيَهْتَدُوا
عَطُوفٌ عَلَيْهِمْ لَا يُثْنِي جَنَاحَهُ إِلَى كَنَفٍ يَخْنُو عَلَيْهِمْ وَيَمْهُدُ
أَعْفٌ وَأَوْفَى ذِمَّةً بَعْدَ ذِمَّةٍ وَأَقْرَبُ مِنْهُ نَائِلًا، لَا يُتَكَدُّ
وَأَبْذَلُ مِنْهُ لِلطَّرِيفِ وَتَالِدٌ إِذَا ضَنَّ مِعْطَاءً بِمَا كَانَ يُتَدُّ
وَأَكْرَمَ صَيْتًا فِي الْبُيُوتِ إِذَا انْتَمَى وَأَكْرَمَ جَدًّا أَبْطَحِيًّا يُسْوَدُّ
وَأَمْنَعُ نِزْوَاتٍ وَأُثْبِتَ فِي الْعُلَى دَعَائِمَ عِزِّ شَاهِقَاتٍ تُشْيِدُّ
وَأُثْبِتَ فَرْعًا فِي الْفُرُوعِ وَمُنْبِتًا وَعُودًا غَدَاةَ الْمُزْنِ، فَالْغُودُ أَعْيِدُ

يتناول الشاعر بعضاً من صفاته صلى الله عليه وسلم النبوية، التي ميزه الله بها عن البشر، وقد اغترف الشاعر من الصيغ الصرفية للمشتقات لإعطاء المدلول الواضح لكل صفة منها.

فقد استعان بصيغة المصدر في قوله (حلماً وعلماً ورحمةً) وكان النبي صلى الله عليه وسلم لكثرة اتصافه بالقيم الربانية أصبح مصدر هذه الصفات المعنية. ويؤكد ذلك بأن جعل اللحم، والعلم، والرحمة صفات محسوسة قد غابت بغياب جثمانه الطاهر في الثرى. وهذا ما أوضحتها الاستعارة في الشطر الأول من البيت الأول.

ووظف الشاعر صيغة الصفة المشبهة في قوله (عزیز، عفو، حریص، عطوف، رشید) ولذلك ليكسي هذه الصفات معنى الثبوت والدوام، فالنبي صلى الله عليه وسلم هو خير من حمل هذه الصفات في شخصه الكريم. وقد أكد ذلك باللجوء إلى صيغة أفعل التفضيل لتدل على سبقه صلى الله عليه وسلم وتفرد به بما تم ذكره من قيم، وذلك في قوله (أعف، أوفى، أقرب، أبذل، أكرم، أمنع، أثبت) فلن يكون أعف وأوفى منه ذمة، وأقرب من عطائه المبارك، وأبذل منه للمال الحديث والقديم الموروث، وهو عفو عن الزلات، رحب الصدر عند وقوع الهنات، يقبل العذر، ويصدق التوبة، كما أنه صلى الله عليه وسلم يسهل على المسلمين أموراً تنقل كاهلهم فيكشف غمها، ويزيل ثقلها. وليس هناك من يفوقه نسباً وعراقة، فهو ينتسب إلى أكرم أحياء قريش، وأنه في أعلى درجات العز والسؤدد، وأثبتها دعائم شاهقات، وأثبت فرعاً وأطيب منبتاً وعوداً.

بينما نجد اسم الفاعل يأخذ دوراً مهماً في أداء المعنى وتربط الأبيات كقوله (الهادي، جاهداً، معلم، سابغ) إذ تدل كلها على أنه يعمل جاهداً لهداية الناس وتعليمهم الحق والصواب، فهو منار الحق، ودليل يقودهم إلى النهج المستقيم.

وكذلك أعطى اسم المفعول دلالاته الخاصة، إذ ربط أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم بالمصدر الرئيسي لها، وهي تربية الله سبحانه وتعالى له، إذ أدبه فأحسن تأديبه، وتولى تربيته حتى استوت على سوقها، ثم اصطفاه إلى العالمين كافة، ليجعل خاتم الأنبياء ومبلغ الدين الحنيف، وذلك في قوله (مسدد، محمود، مصطفى).

ويتبع الشاعر بعض الصفات بالفعل المضارع في الأبيات الثالث، والرابع، والخامس، والسادس، ليدلل على أن سنته قائمة متبعة إلى يوم الدين، وذكره باق خالد إلى ما شاء الله. لهذا بدأ الشاعر قصيدته بتقديم الجار المجرور على المبتدأ في قوله (بطيبة رسم للرسول ومعهد)، ذلك اهتماماً منه بذكر المدينة الطاهرة التي ترك فيها الرسول صلى الله عليه وسلم منزله ومسجده، إذ قد تزول هذه الديار ورسومها ولكن آيات تلك الدار وصفات ساكنها لا تمحي ولا تدرس.

استهل الشاعر كثيراً من أبياته بالأساليب الخبرية الابتدائية ليدلل على أن مناقب النبي الكريم صلى الله عليه وسلم لا تحتاج إلى مؤكدات تؤكدتها، فهي أمور معلومة واضحة للجميع، لا ينكرها منكر، فهو صلى الله عليه وسلم (عفو، عزيز، عطوف، أصف، أوفى، أبذل، أكرم، أمنع، أثبت).

وكتف الشاعر من الأساليب الخبرية في هذه القصيدة لميله إلى السرد والمباشرة في تعداد مناقب النبي صلى الله عليه وسلم، وما تركه رحيله فيهم. إلا أنه لجأ إلى الأساليب الإنشائية أحياناً، ليحرك العبارة، ويتحول بها عن رتابة السرد المباشر، إلى نوع من التبديلات والصيغ التي تتنفس فيها الانفعالات النفيسة، فتراه حيناً يعمد إلى الاستفهام كقوله:

[الطويل]

وَمَا لَكَ لَا تَبْكِينَ ذَا النُّعْمَةِ الَّتِي عَلَى النَّاسِ مِنْهَا سَابِغٌ يَتَغَمَّدُ

[الطويل]

وَهَلْ عَدَلَتْ يَوْمًا رَزِيئُهُ هَالِكٌ رَزِيئَةُ يَوْمٍ مَاتَ فِيهِ مُحَمَّدٌ

والدعاء في قوله:

[الطويل]

وَبُورِكَ لِحَدِّ مِنْكَ ضَمَّنَ طَيِّباً عَلَيْهِ بِنَاءٌ مِنْ صَفِيحٍ مُنْضَدُّ

لم يستخدم الشاعر أساليب الأمر والنهي والطلب، لأن المقام ليس مقام ثورة أو نقمة أو غضب، إنما مقام رثاء يحصى به مناقب المرثي، ويحاول من خلاله التنفيس عما يعانيه من فقد وألم. وعمد الشاعر إلى استخدام التّضاد إذ ينهض بدور فني في تحقيق البناء الشعري في القصيدة، فهو ليس مظهراً بديعاً أو حلية يمكن الاستغناء عنها. إنما له دور فاعل في إبراز التلاحم والبناء بين الأبيات. حيث يدخل في تكوين بنية النص جنباً إلى جنب مع معطيات ومفاهيم الصورة. كما في قوله في معارف النبي صلى الله عليه وسلم وأخلاقه:

[الطويل]

مَعَارِفُ لَمْ تُطَمَسْ عَلَى الْعَهْدِ آيُهَا أَتَاهَا الْبَلَى فَاَلَا يُ مِنْهَا تَجَدُّ

فالطباق في قوله (تطمس، تجدد) وقد أدى دوراً مهماً لإعطاء الصورة قيمتها الجمالية، إذ إن تلك المعارف مهما طمست فإنها تجدد. كذلك يعطي الطباق أيضاً معنى المقارنة كما في قوله:

[الطويل]

وَأَبْذَلُ مِنْهُ لِلطَّرِيفِ وَتَالِدٍ إِذَا ضَنَّ مِعْطَاءٌ بِمَا كَانَ يُثْبَدُّ

وذلك في قوله (أبذل، ضن، طريف، تالد) وقد أعطت صيغة المبالغة في قوله (معطاء) لمسة جمالية على المقارنة، فالنبي صلى الله عليه وسلم يكرم حتى وإن بخل الرجل المعطاء الكثير العطاء.

كذلك نهض أسلوب الشرط بدور فاعل في هذه القصيدة، فهو يقوم عادة على وجود طرفين يتصلان فيما بينهما اتصال السبب بالنتيجة، فأحدهما مؤد إلى الآخر. وأسلوب الشرط هنا ذو دلالة ذاتية على التلازم المنطقي بين طرفي المعنى، وذلك ليبين أن طاعة النبي صلى الله عليه وسلم واتباع أوامره، واجتناب نواهيه هي سبيل السعادة، لأنها تدعو إلى مكارم الأخلاق محاسن الصفات، كقوله:

[الطويل]

إِمَامٌ لَهُمْ يَهْدِيهِمُ الْحَقَّ جَاهِداً مُعَلِّمٌ صَدَقَ إِنْ يَطِيعُوهُ يَسْعَدُوا
عَفْوٌ عَنِ الزَّلَّاتِ يَقْبَلُ عُذْرَهُمْ وَإِنْ يُحْسِنُوا فَاللَّهُ بِالْخَيْرِ أَجْوَدُ
وَإِنْ نَابَ أَمْرٌ لَمْ يَقَوْمُوا بِحَمْلِهِ فَمِنْ عِنْدِهِ تَيْسِيرٌ مَا يَشْتَدُّ

لا ينبغي أن نغفل عن الجانب الفاعل في هذا التركيب العام للنص، وهو الجانب المعنوي حيث أن قيمة الشرط لا تكمن في معناه وحده، وإنما في الطبيعة التأثيرية الواردة فيه. وذلك من خلال الضغط الحاصل على الجواب، مما يكون كفيلاً بأن يريح بال المستمع جراء ما يحدثه فعل الشرط من إثارة وترقب.

قد أدت الموسيقى الداخلية للأبيات دوراً فاعلاً، من خلال الهيمنة النسبية لأصوات المد التي تدل على أن حال الشاعر تستدعي البث والشكوى والحنين، لأن الذي يبكي مضطر لرفع صوته ليرسمه الناس، وأصوات المد تعطي هذه الجزئية من الدلالة.

قد لعب الخيال بدور أساس في المراثية من حيث الأداء ودقة العبارة، إذ استطاع أن يوفر للصورة البيانية مكوناتها الملائمة، فبعد أن يذكر الصفات والفضائل المتمثلة في شخص المصطفى صلى الله عليه وسلم، يقول:¹

[الطويل]

وَأَمَسَتْ بِلَادُ الْحَرَمِ وَخَشَاءَ بِقَاعِهَا لِعَيْبَةٍ مَا كَانَتْ مِنَ الْوَحْيِ تَعْهَدُ
قِفَاراً سَوَى مَغْمُورَةِ الْأَخْدِ ضَافِهَا فَقَيْدٌ يُبْكِيهِ بَلَاطٌ وَعَرْقَدُ

إذ صور مكة وما حولها من بلاد الحرم قفاراً موحشة بعد انقطاع نزول الوحي على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم باستثناء اللحد الذي يضم جثمانه الطاهر، وما حواه من خلق وشيم وفضائل، فإيا له من خيال خصب، إذ تقفر البلاد وما زال الناس أحياء فيها، ويعمر القبر ويكون منارة وأنساً وعمارة. وكل ما تقدم كناية عن خلق من حلّ فيه، وما تركه موته من وحشة وغربة، فبفقدانه أقرت الدنيا واكفهرت.

وحسان يكون بهذا انطلق بخياله ولغته إلى آفاق رحبة عصية أثرى بها قصيدته، وإن كانت في حقيقة الأمر مهما بلغت تقصر عن الحديث عن خير البشر.

وبهذا تكون الدراسة الأسلوبية قد أبرزت الخصائص المميزة لأسلوب حسان في موضوع القيم، وقد تجاوزت الطريقة التقليدية المعتمدة على الشرح والتوضيح، إلى الربط ما بين الظواهر المختلفة، وبين الدلالات التي تحملها. وبناء على هذا نجد أن للقيم دوراً فاعلاً في حياة حسان من خلال تكراره لألفاظ معينة: كصون اللسان والعرض، والجود والضييف، والسماحة، والخير، والشيمة،

¹. حسان، الديوان، ص379.

والكرم، والعدل، والجار، والمولى والحليف. وصور فنية محددة : كصورة السماء والرياح في أيام القحط والجفاف مجتمعة مع صورة القدر الضخمة، في معرض حديثه عن كرم قومه. وكذلك صورة المرأة المصونة الحبية، التي يشبها بالدر المكنون، وبالغرثى عن لحوم الغوافل . وكذلك وصفه للمعارك الدائرة بين قومه وخصومهم، بما فيها من صور للخيل والأبطال.

الخاتمة:

ليس من المبالغة في شيء أن ندعي أن حياة الإنسان -أي إنسان- حياة قيمية، يسير فيها وفق مجموعة من القيم، رتبت على نحو معين، بحيث تحكم تصرفاته وعلاقاته مع الناس والأشياء، وتتحدد في ضوءها ملامح شخصيته.

وحسان بن ثابت ثابت كغيره من الناس، تحددت معالم شخصيته وفق قيمه التي آمن بها وتمثلها في جوانب حياته المختلفة، فكان لها الوضوح الأبرز في شعره. فعلاقة الشاعر بقيمه كعلاقة النهر بالمصب. **ومن ثم يمكننا استخلاص تلك القيم وأثرها في شعره بما يأتي:**

1. تمثل حسان كثيراً من القيم في جاهليته وإسلامه، فكان نبيل الخلق، أبي النفس، كريم العنصر، عفيفاً، شريفاً، أريحياً، جواداً، ينأى بنفسه عن سفاسف الأمور وصغائرها، وكان لهذه الفضائل دور فعال في تبوئه مكانة مرموقة في قومه.

2. قدم حسان صورة ضمنية لإعادة النظر إلى المرأة، والاعتراف بدورها في المجتمع والحياة، وقد صورها في شعره شكلاً ومضموناً، دون أن يغلب جانباً على الآخر، فأعطى بذلك صورة للجاهلي العفيف.

3. ضمّ فخره كثيراً من القيم الإنسانية المتعارف عليها بين القبائل، كالالتزام بالعهود والمواثيق ورعاية حقوق الجار، والالتزام بأمن القبيلة والدفاع عنها، والعدل والصبر والجلد والمرورة.

4. بطلان دعوى ضعف شعر حسان الإسلامي وليونته، وما أسنده الباحثون في هذه التهمة ما هو إلا تقليد لمقولة الأقدمين. وعلى من يتصدر مثل هذا القول أن يرى مبلغ اتصال كل من شعره الجاهلي والإسلامي ببيئته، وملاءمته للأوضاع والأحوال التي لابسته، فسيجد أن كلا منهما رائع في موضعه.

5. موقف الإسلام من الشعر كان رهناً بالشعراء أنفسهم فهو لم يمسه كفن من الفنون، ولم يحكم عليه من حيث هو شعر، إنما هو أداة فما وافق الحق أباحه، وما لم يوافق نبذه، لأن الشعر يجب أن يسخر لخدمة المجتمع والخير والصلاح.

6. لم يكن حسان في جاهليته شاعراً مادحاً، لكنه في الإسلام وضع النواة الأولى لقصيدة المدح الجديدة، إذ ربط هذا الغرض بالدعوة الإسلامية، وشاعت في مدائحه روح الاعتدال، والبعد عن الغلو والإسراف.

7. في حين قامت قصيدة الفخر الجاهلية عنده على التعالي والصلف، قامت قصيدة الفخر الإسلامية على إظهار الحقائق دون مغالاة أو إسراف، وقد ضمت القيم المتوازنة التي أقرها الإسلام وأرسى قواعدها في قومه.

8. تخلص حسان في رثائه الإسلامي عن العصبية القبلية التي صبغت كثيراً من شعره الجاهلي.

9. لم يكن هجاؤه نابعاً من منظور سوداوي قبيح، هدفه تتبع عيوب الناس وكشف عورتهم، وإنما هدفه الأول الدفاع عن الدعوة، ورد غائلة المعتدين، وذم النقائص والعيوب، فكان في ظاهره قدح ودم، لكن في باطنه إصلاح وتهذيب.

10. حقق قدراً كبيراً من التوافق بين اللفظ والمعنى لإيصال شعره، فترقّ ألفاظه وتعذب في الأغراض التي تستدعي ذلك، بينما نجده يتخير المعاني القوية والألفاظ الساخرة الموجهة في موضع آخر، وهدفه من ذلك إيصال الفكرة والقيمة المرجوتين.

11. تأثر حسان بالقرآن الكريم والسنة المطهرة، مما أعطى للتناص الديني حضوراً واضحاً في أساليبه الشعرية، وصبغ بعض قيمه ومثله بالطابع الديني.

12. جاءت الصور الفنية عند حسان مقتضبة سريعة، تتناوب فيها الحقيقة مع المجاز، مما ربط القيمة مع واقعه المعيش.

13. إن الدراسة الأسلوبية تكشف عن ذات الشاعر، وميوله، واتجاهاته، وذلك من خلال تمحيص النصوص المتعددة مجتمعة وتحليلها، ونظراً لذلك تبين أن للقيم الإنسانية دوراً فاعلاً في حياة حسان فلم يتنافَ قوله مع فعله.

وختاماً: فإني أحمد الله تعالى الذي قدر لي الخير في إتمام هذا البحث الذي أظن أنه أبرز القيم الإنسانية، والجوانب المشرقة لشاعر الإسلام الأعظم حسان بن ثابت. وقد تراءى لي أن هناك جوانب أخرى بحاجة لدراسة وبحث:

1 - عمل دراسة أسلوبية لأغراض حسان الشعرية كافة، مما يبرز القيمة الجمالية في شعره والتي طعن بها الكثيرون.

2 - إجراء دراسة شاملة للقيم الإنسانية عند الشعراء المخضرمين، ومقارنة قيمهم تلك بين جاهليتهم وإسلامهم.

نسأل الله التوفيق والسداد في القول والعمل، والعصمة من الزلل، وأن يتقبل عملنا، وينفع به ويثيبنا عليه. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحابته وسلم.

فهرس المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

أولاً: المصادر:

1. ابن أبي سلمى، زهير، الديوان، قدم له وعلق حواشيه سيف الدين الكاتب وزميله، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1986م.
2. ابن أبي الصلت، أمية، الديوان، جمع وتحقيق ودراسة عبد الحفيظ السطلي، ط3، دمشق، 1974م.
3. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الجزري (ت 630هـ):
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق خليل مأمون شيحا، ط1، بيروت، دار المعرفة، 1418 هـ/1997م، ج2.
- الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، 1402هـ/1982م، ج1.
4. ابن ثابت، حسان، الديوان، تحقيق سيد حنفي حسنين، القاهرة، دار المعارف.
5. ابن حنبل، أحمد بن حنبل الشيباني (ت241هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مصر، مؤسسة قرطبة، ج1.
6. ابن خلدون، عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ط1، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1424هـ/2003م.
7. ابن ربيعة، ليبيد، الديوان، شرحه وضبط نصوصه عمر فاروق الطباع، ط1، بيروت، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، 1417/1997م.

8. ابن رشيقي، أبو العلي الحسن بن رشيقي القيرواني (ت 456هـ)، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه**، تحقيق محمد قزقزان، ط1، بيروت، دار المعرفة، 1408هـ/1988م، ج1.
9. ابن زهير، كعب، **الديوان**، حققه وشرحه وقدم له علي فاعور، بيروت، دار الكتب العلمية، 1417هـ/1997م.
10. ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري، **الطبقات الكبرى**، ط1، بيروت دار الكتب العلمية، 1410هـ/1990م. ج2-3.
11. ابن شداد، عنتر، **الديوان**، قدم له وعلق حواشيه سيف الدين الكاتب وزميله، بيروت، دار مكتبة الحياة.
12. ابن العبد، طرفة، **الديوان**، اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي، ط1، بيروت، دار المعرفة، 1424هـ/2003 م.
13. ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن حمد (ت463هـ)، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، تحقيق علي محمد البجاوي، ط1، بيروت، دار الجيل، 1412هـ/1992م، ج1.
14. ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي (ت328هـ)، **العقد الفريد**، تحقيق مفيد محمد قميحة، بيروت، دار الكتب العلمية، 1417هـ، 1997م، ج1.
15. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي (ت571هـ)، **تاريخ مدينة دمشق**، تحقيق عمر بن غرامة العمروي، بيروت، دار الفكر، 1415هـ/1995م، ج12.
16. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت276هـ):
- **تأويل مشكل القرآن**، تحقيق السيد أحمد صقر، ط1 [طبعة جديدة ومنقحة] ، القاهرة، مكتبة دار الهلال، 1424هـ/2006م.

- الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط2، القاهرة، دار الحديث، 1418هـ/1998م،

ج1.

17. ابن كلثوم، عمرو، الديوان، دار صادر، بيروت، ط1، 1996م.

18. ابن معمر، جميل، الديوان (جميل بثينة)، ط1، قام بشرحه إبراهيم جزيني، بيروت، دار الكاتب

العربي، 1388هـ/1968م.

19. ابن الملح، قيس، الديوان (مجنون ليلي)، جمع وتحقيق وشرح عبد الستار أحمد فراج، مكتبة

مصر.

20. ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم (ت711هـ)، لسان العرب، ط1، إشراف عبد أ. علي

مهنا، دار بيروت للطباعة والنشر، 1424هـ/2002م.

21. ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام العافري، السيرة النبوية، تحقيق علي القطب وزميله،

بيوت، المكتبة العصرية، الأجزاء 1-4.

22. ابن الوردي، عروة، الديوان، شرحه وقدم له سعدي ضناوي، ط1، بيروت، دار الجيل

1416هـ/1996م.

23. أبو داوود، سليمان بن الأشقر السجستاني الأزدي (ت275هـ)، سنن أبي داوود، تحقيق

محيي الدين عبد الحميد، ط4، القاهرة، مطبعة السعادة، 1370هـ/1951م.

24. الأصفهاني، أبو الفرج (ت356هـ)، الأغاني، تحقيق سمير جابر، ط2، [طبعة جديدة

ومنقحة]، دار الفكر، الأجزاء 2،3،4،8،11.

25. الأصمعي، عبد الملك بن قريب (ت215هـ)، كتاب فحولة الشعراء، تحقيق المستشرق كوري،

قدم له صلاح الدين المنجد، بيروت، دار الكتاب الجديد، 1400هـ/1980م.

26. الألوسي، السيد محمود شكري البغدادي (ت1342هـ)، **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**،
عني بشرحه وتصحيحه وضبطه محمد بهجة الأثري، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية،
2009م.
27. الألوسي، أبو الثناء شهاب الدين محمود بن عبد الله (ت1267هـ)، **روح المعاني في تفسير
القرآن العظيم والسبع المثاني**، قرأه وصححه محمد حسن العرب، دار الفكر للطباعة والنشر
والتوزيع، بيروت، 1414هـ/1994، ج11.
28. امرؤ القيس، **الديوان**، شرح محمد الإسكندراني وزميله، بيروت، دار الكتاب العربي،
1428هـ/2007م.
29. البخاري، محمد بن إسماعيل الجعفي (ت256هـ):
- الأدب المفرد، تحقيق كمال يوسف الحوت، بيروت، عالم الكتب، 1404هـ
-الجامع الصحيح المختصر، تحقيق مصطفى ديب البغا، ط3، بيروت، دار ابن
كثير، 1407هـ/1987م.
30. البرقوق، عبد الرحمن، **شرح ديوان حسان بن ثابت**، مصر، المطبعة الرحمانية،
1347هـ/1929م.
31. البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت1030هـ)، **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، قدم له
ووضع هوامشه وفهارسه محمد نبيل طريقي، بيروت، دار الكتب العلمية 1418هـ 1998م.
32. الترمذي، محمد بن عيسى السلمي، **الجامع الصحيح سنن الترمذي**، تحقيق محمد شاكر
وآخرون، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
33. الحاجز، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت255هـ)، **البيان والتبيين**، تحقيق عبد السلام هارون،
دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج2.

34. الجمحي، محمد بن سلام (ت231هـ)، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، جدة، دار المدني، جزءان.
35. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت748هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ج2.
36. السكري، أبو الحسن بن الحسين، شرح أشعار الهذليين، تحقيق عبد الستار أحمد فراج وزميله، ط2، القاهرة، مكتبة دار التراث، 1425هـ/2004م.
37. السيوطي، جلال الدين، المزهر، شرح وتعليق محمد جاد المولى بك وآخرون، بيروت، منشورات المكتبة العصرية، 1412هـ/1992م، ج2.
38. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت764هـ)، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرنؤوط وزميله، ط1، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1420هـ/2000م، ج11.
39. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (ت1255هـ)، فتح القدير الجامع بين دفتي الرواية والدراية في علم التفسير، حققه وخرج أحاديثه وفهرسها سيد إبراهيم، ط3، القاهرة، دار الحديث 1418هـ/1997م، ج4.
40. الطبري، أبو جعفر بن جرير (ت315هـ)، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، تحقيق صلاح عبد الفتاح الخالدي، ط1، دمشق: بيروت، دار القلم، الدار الشامية، 1418هـ/1997م، ج5.
41. العسقلاني، ابن حجر (ت752هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق علي محمد البجاوي، ط1، بيروت، دار الجيل، 1412هـ/1992م، ج1.
42. العسكري، أبو هلال الحسن عبد الله بن سهل، كتاب الصناعتين؛ الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي وزميله، بيروت، المكتبة العصرية، 1406هـ/1986م.

43. الغزالي، أبو حامد محمد (ت505)، إحياء علوم الدين، علق عليه جمال محمود وزميله، ط1، القاهرة، دار الفجر للتراث، 1420هـ/1999م، ج3.
44. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، قدم له خليل محيي الدين الميس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1414هـ/1993م.
45. الفزويني، محمد بن عبد الرحمن (ت739هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق عبد الحميد هنداوي، ط2، القاهرة، المختار للنشر والتوزيع، 1424هـ/2003م.
46. المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، الكامل، عارضه بأصوله وعلق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، بيروت، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، 1418هـ/1997م، ج1.
47. المنتبي، أبو الطيب، الديوان، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، مصر، المطبعة الرحمانية، 1348هـ/1930م.
48. المرزباني، أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى (ت384هـ)، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق وتقديم محمد شمس الدين، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1415هـ/1995م.
49. المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن، شرح ديوان الحماسة، تحقيق أحمد أمين وزميله، ط1، بيروت، دار الجيل، 1411/1991م.
50. المفضل، أبو العباس بن المفضل بن محمد بن الضبي، ديوان المفضليات، شرح وتقديم محمد حمود، ط1، بيروت، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع، 1998م.
51. مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت261هـ)، صحيح مسلم، بشرح الإمام النووي، تحقيق خليل مأمون شيحا، ط4، بيروت، دار المعرفة، 1418هـ/1997م.

52. النابغة الذبياني، الديوان، قدم له وبوبه على بو ملحم، ط1، بيروت، دار ومكتبة الهلال، 1991م.

53. النووي، يحيى بن شرف الدين النووي(ت676هـ)، متن الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، السيدة زينب، دار التوزيع والنشر الإسلامية.

54. النيسابوري، الحسن بن حمد بن حسين القمي، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ضبطه وخرج أحاديثه زكريا عميرات، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1416هـ، 1996م، ج5.

ثانياً: المراجع:

1. أبو العدوس، يوسف، الأسلوبية؛ الرؤية والتطبيق، ط2، عمان، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، 1430هـ/2010م.
2. أبو فاضل، ربيعة، حسان بن ثابت شاعر الرسول، ط1، بيروت، دار العلم للملايين، 1993م.
3. الأسد، ناصر الدين، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ط5، القاهرة، دار المعارف، 1978م.
4. الإسكندري، أحمد وآخرون، المفصل في تاريخ الأدب العربي في تاريخ العصور القديمة والوسيلة والحديثة، ط1، 1994، دار إحياء العلوم، بيروت.
5. أدلر، ألفرد، معنى الحياة، ترجمة عادل بشرى، ط1، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2005م.
6. الأعظمي، وليد، شاعر الإسلام حسان بن ثابت؛ دراسة أدبية تاريخية، القاهرة، مطبعة المدني، 1962م.
7. أمين، فوزي، الشعر الجاهلي؛ دراسات ونصوص، دار المعرفة الجامعية، 2004م.
8. أنيس، إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، ط2، القاهرة، 1392هـ/1972م.
9. البجاوي، علي محمد وآخرون، أيام العرب في الجاهلية، دار الفكر.
10. البهبهتي، نجيب محمد، تاريخ الشعر العربي حتى أواخر القرن الثالث الهجري، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1950م.
11. الجابري، محمد عابد، العقل الأخلاقي العربي؛ دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية، ط1، بيروت، مركز دراسات الوحدة.

12. الجبوري، يحيى:

- خصائص شعر المخضرمين، ط2، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1401هـ/1981م.

- الشعر الجاهلي، خصائصه وفنونه، ط8، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1418هـ/1997م.

13. الجعافرة، ماجد، الشعر العربي؛ دراسة وتحليل، إريد، دار الكندي، 2003م.

14. جيرو، بيير، الأسلوبية، ترجمة منذر العياشي، ط2، مركز الإنماء الحضاري.

15. الحامد، عبد الله، الشعر الإسلامي في صدر الإسلام، الرياض 1400هـ/1980م.

16. الحاوي، إيليا، في النقد الأدبي، ط4، [طبعة فريدة ومنقحة]، بيروت، دار الكتاب اللبناني،

ج2.

17. حجازي، مصطفى، التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، ط9، الدار

البيضاء، المركز الثقافي العربي.

18. حور، محمد إبراهيم، النزعة الإنسانية في الشعر العربي القديم، ط2، أبو ظبي، مكتبة

المكتبة، 1405هـ/1985م.

19. الخفاجي، محمد عبد المنعم، دراسات في الأدب الجاهلي والإسلامي، ط1، بيروت، دار

الجيل، 1992م.

20. خليف، يوسف:

- الحب المثالي عند العرب، القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.

- دراسات في الشعر الجاهلي، القاهرة، دار غريب.

- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ط4، القاهرة، دار المعارف.

21. درويش، محمد طاهر، حسان بن ثابت، القاهرة، دار المعارف.

22. رومية، وهب، قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأموي، بين الأصول والإحياء والتجديد، دمشق، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
23. الزركلي، خير الدين، الأعلام، قاموس تراجم أشهر الرجال والنساء من العرب والمستعمرين والمستشرقين، ط13، بيروت، دار العلم للملايين، 1998م.
24. زناتي، محمود محمد، نظم العرب قبل الإسلام، 1992 .
25. زيدان، جرجي، المختصر في تاريخ آداب اللغة العربية، مطبعة دار الهلال، 1946.
26. سالم، محمد عزيز نظمي، القيم الجمالية، دار المعارف، القاهرة.
27. سيد أحمد طهطاوي، القيم التربوية في القصص القرآني، ط1، القاهرة، دار الفكر العربي، 1416هـ/1996م.
28. السيد، شفيح، الاتجاه الأسلوبية في النقد الأدبي، القاهرة، دار الفكر العربي.
29. الشايب، أحمد، تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني، ط5، بيروت، دار القلم.
30. الصفار، ابتسام مرهون، الأمالي في الأدب الإسلامي، عمان، دار المنهاج للنشر والتوزيع، 1426هـ/2006م.
31. صيام، زكريا عبد الرحمن، الأدب العربي في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، ط3، القاهرة، دار النصر، 1411هـ/1990م.
32. ضيف، شوقي:
- العصر الإسلامي، ط1، القاهرة، دار المعارف.
- العصر الجاهلي، القاهرة، دار المعارف.
- فصول في الشعر ونقده، ط1، دار المعارف، 2008 .

33. طليحات، غازي، الشعر في عصر النبوة والخلافة الراشدة، ط1، دمشق، دار الفكر، 1428هـ/2007م.
34. العاكوب، مصطفى، التفكير النقدي عند العرب، مدخل إلى نظرية الأدب العربي، ط1، دمشق، دار الفكر، 1417هـ/1997م.
35. العاني، سامي مكّي، الإسلام والشعر، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1983م.
36. عباس، دلال، القرآن والشعر، بيروت، دار المواسم للطباعة والنشر والتوزيع، 1421هـ/2000م.
37. عبد الجبار، عبد الله وزميله، قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي، مكتبة الكليات الأزهرية، 1400هـ/1980م.
38. عبد العزيز محمد، القيم الفلسفية الكبرى، الحق والخير والجمال.
39. عبد الله، صلاح مصلحي، التقليد والتجديد في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1991م.
40. عبهري، كمال جبيري أمين، شعر الصراع بين الإسلام وخصومه في عصر النبوة، ط1، عمان، دار المناهج للنشر والتوزيع، 1419هـ/1999م.
41. عفيفي، محمد عبد الهادي، في أصول التربية، القاهرة، مكتبة المصرية، 1970م.
42. العقاد، عباس محمود، الإنسان في القرآن، بيروت، دار الهلال.
43. علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط2، 1413هـ/1993م. ج4.
44. علي، محمد عثمان، في أدب الإسلام عصر النبوة والراشدين وبنو أمية، دراسة وصفية تحليلية، ط2، بيروت، دار الأوزاعي، 1406هـ/1969م.
45. عياد، شكري، مدخل إلى علم الأسلوب، ط1، 1402هـ/1982م.

46. الفروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم)، ط2، بيروت، دار العلم للملايين، 1381هـ/1969م.
47. فشان، محمد سعيد، الدين والأخلاق في الشعر، النظرة الإسلامية والرؤية الجمالية، ط1، 1405هـ/1985م.
48. فضل، صلاح، علم الأسلوب؛ مبادئه وإجراءاته، القاهرة، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، 1992م.
49. فهمي، نورهان، منير حسن، القيم الدينية للشباب من منظور الخدمة الاجتماعية، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، 1999م.
50. فيصل، شكري، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، من امرئ أقيس إلى ابن ربيعة، دمشق، مطبعة جامعة دمشق، 1379هـ/1959م.
51. القط، عبدالقادر، في الشعر الإسلامي والأموي، بيروت، دار النهضة العربية، 1407هـ/1987م.
52. قطب، سيد، في ظلال القرآن، ط17، القاهرة، دار الشروق، 1412هـ/1992م، ج4.
53. كحالة، عمر رضا، الأدب العربي في الجاهلية والإسلام، دمشق، المطبعة التعاونية، 1972م.
54. المسدي، عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ط3.
55. معروف، نايف، الأدب الإسلامي في عهد النبوة وخلافة الراشدين، ط1، بيروت، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، 1410هـ/1990م.
56. المعوش، سالم، القواعد المعرفية الإسلامية في أدب صدر الإسلام، ط1، بيروت دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1422هـ/2001م.

57. مغنية، حبيب يوسف، الأدب العربي من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي؛ دراسة وصفية نقدية، بيروت، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر، 1995م.
58. المناصرة، عباس، مقدمة في نظرية الشعر الإسلامي؛ المنهج والتطبيق، ط1، بيروت، دار مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، 1418هـ/1997م.
59. النحوي، عدنان علي رضا، الأسلوب الأسلوبية بين العلمانية والأدب الملتزم بالإسلام، ط1، الرياض، دار النحوي للنشر والتوزيع، 1419هـ/1999م.
60. وهبة، مجدي، معجم المصطلحات الأدبية، بيروت، مطبعة دار القلم، 1974م.
61. يوسف، حسني عبد الجليل، الأدب الجاهلي؛ قضايا وفنون ونصوص، ط1، الإسكندرية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، 2007م.
62. اليوسف، يوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، ط1، دمشق، دار الحقائق، 1975م.

ثالثاً: الدوريات

- 1- عودة، خليل، المنهج الأسلوبي في دراسة النص الأدبي، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، مجلد2، عدد 8، 1994م.

فهرس المحتويات:

الصفحة	الموضوع
أ	الإقرار
ب	الإهداء
ج	الشكر
د	الملخص بالعربية
هـ	الملخص باللغة الإنجليزية
و	المقدمة
1	التمهيد: حسان بن ثابت بين الجاهلية والإسلام
10	الفصل الأول: المعاني الإنسانية في شعر حسان الجاهلي
11	مدخل: القيم الإنسانية، مفهومها ودلالاتها
15	المبحث الأول: في الحديث عن المرأة
23	المبحث الثاني: في الحديث عن الذات:
23	حسان والذات
27	نصرته للعشيرة
28	ترفعه عن الكلام الهذر
30	الكرم
33	عفته وحرصه على شرفه
34	حفاظه على رفاقه وندمائه
36	الصبر والجلد
37	نجدة الجار
39	المبحث الثالث: في حديثه عن القبيلة:
39	الانتماء القبلي
40	الولاء للقبيلة
43	حسن الجوار
46	الكرم
49	الحلم والأناة

50	الحزم
51	المروءة
52	العدل
54	الفصل الثاني: المعاني الإنسانية في شعر حسان الإسلامي
55	المبحث الأول: علاقة الشعر بالدعوة الإسلامية
55	حسان والدعوة الجديدة
61	قضية ضعف شعر حسان الإسلامي
62	أسباب تعود إلى علماء اللغة
65	أسباب تعود إلى العجز عن تمثّل القيم وقضايا الدين الجديد
69	أسباب النحل والوضع
72	الارتجال
74	المبحث الثاني: علاقة الشعر بالخير والشر
74	موقف الإسلام من الشعر
81	ثنائية الخير والشر عند حسان بن ثابت
88	المبحث الثالث: حسان بين التقليد والتجديد
89	القيم الإنسانية في المديح في شعر حسان الجاهلي
91	القيم الإنسانية في المديح في شعر حسان الإسلامي
100	القيم الإنسانية في الفخر
106	القيم الإنسانية في الرثاء
115	المبحث الرابع: علاقة الهجاء بالقيم الإنسانية
124	الفصل الثالث: دراسة فنية
125	علم الأسلوب
130	دلالات أسلوبية في شعر حسان
130	1- العفة
130	الشرف (صيانة العرض)
135	عفة اللسان
140	عفة الأذن
141	عفة النفس
143	2- الشجاعة

154	3- الكرم
162	4- المرءة
175	الخاتمة
177	المصادر والمراجع
190	فهرس المحتويات
193	فهرس الآيات القرآنية
195	فهرس الأحاديث النبوية الشريفة
197	فهرس القوافي

فهرس الآيات القرآنية

الصفحة	السورة/الآية	الآية	
49	البقرة - 219	﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾	.1
97	النساء - 36	﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾	.2
130	الأعراف - 22	﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَ بَدَتَا لَهُمَا سَوَآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾	.3
95	التوبة - 128	﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾	.4
75	الأنبياء - 5	﴿بَلْ قَالُوا أَضْعَاطُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾	.5
8	النور - 11	﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾	.6
98	الفرقان - 36	﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾	.7
12	الفرقان - 67	﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾	.8
74	الشعراء - 227/224	﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾	.9
75	يس - 69	﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾	.10

		﴿وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾	
75	الصفات - 36	﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَأْرُكُوا آلِهَتَنَا لَشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾	11.
ز	الشورى - 52	﴿وَإِنَّكَ لَنَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾	12.
75	الطور - 30	﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبِّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾	13.
32	الحشر - 9	﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾	14.
140	الصف - 3	﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾	15.
ز	القلم - 4	﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾	16.
75	الحاقة - 41	﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾	17.

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

الصفحة	رقمه	الحديث
6	صحيح مسلم (6345)	1. [هجاهم حسان حتى شفى واستشفى]
47	سنن الترمذي (1497)	2. [لا يضحى بالعرجاء بين ضلعها، ولا بالعوراء بين عورها ولا بالمريضة بين مرضها، ولا بالعجفاء التي لا تتقى]
75	صحيح مسلم (6345)	3. [إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن رسول الله]
66	الإمام البخاري، الأدب المفرد (237)	4. [إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق]
68	صحيح مسلم (5846)	5. [كان النبي يقول بعد كل قافية من شعر أمية أن أبي الصلت "هي"]
77	صحيح مسلم (6345)	6. [اهجوا قريشا فإنه أشد عليهم من رشق النبل]
77	صحيح مسلم (5847)	7. [فلقد كاد أن يسلم في شعره].
77	صحيح مسلم (5848)	8. [أشعر كلمة تكلمت بها العرب كلمة لبيد]
78	صحيح مسلم (4640)	9. [من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله]
78	صحيح مسلم (7423)	10. [لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين]
84	مسند الإمام احمد (7127)	11. [صاحب لواء الشعراء إلى النار]
91	صحيح مسلم (7431)	12. [إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب]
99	صحيح مسلم (6193)	13. [لكل نبي حوارى، وحوارى الزبير]
99	صحيح مسلم (6318)	14. [اللهم فقه]
103	صحيح مسلم (4574)	15. [لقد حكمت بحكم الله عزوجل]
110	صحيح مسلم (6120)	16. [إن من أمن الناس علي في ماله]

		وصحبه أبا بكر، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا]	
111	صحيح مسلم (6152)	[والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك]	.17
111	صحيح مسلم (6160)	[إن عثمان رجل حي]	.18
112	مسند الإمام أحمد (2040)	[أشبهت خلقي وخالقي]	.20
130	صحيح مسلم (151)	[الحياء شعبة من الإيمان]	.21

فهرس القوافي

الصفحة	عدد الأبيات	الوزن	قافية الهمزة
60	1	الوافر	تأطمهن بالخمير النساء
61	2	الوافر	قتال أو سباب أو هجاء
93	1	الوافر	يقول الحق إن نفع البلاء
94	1	الوافر	أمين الله شيمته الوفاء
96	2	الوافر	وأجمل منك لم تلد النساء
118	2	الوافر	فأنت مجوف نخب هواء
151	3	الوافر	تثير النقع موعدها كداء
الصفحة	عدد الأبيات	الوزن	قافية الباء
21	2	الطويل	تجاوز رأس الأربعين وجريا
22	1	الطويل	وليس بمعذور إذا ما تطريا
48	2	الكامل	أزم الشتاء محالف الجذب
82	1	البسيط	لا يستوي الصدق عند الله والكذب
91	3	الكامل	بنيت على طلق اليمين وهوب
111	4	الطويل	بأبيض يتلو المحكمات منيب
111	2	البسيط	باب صريع وباب محرق خرب
117	5	الكامل	عند الهياج وساعة الأحساب
120	5	البسيط	الله درك في عز وفي حسب
121	2	الكامل	هيهات منك مكارم الأنساب
121	1	الوافر	فبئس العهد عهد الكذوب
122	1	البسيط	ضلت هذيل بما جاءت ولم تصب
132	5	الكامل	بوصية أوصى بها يعقوب
132	1	الكامل	بلهاء أنسة الحديث كعاب
139	1	الطويل	سريع إلى الخيرات غير قطوب
الصفحة	عدد الأبيات	الوزن	قافية الجيم
118	2	الكامل	كنجاء مهر من بنات الأعوج
154	3	الكامل	بطل بمكرهة المكان المحرج

الصفحة	عدد الأبيات	الوزن	قافية الدال
15	3	المتقارب	خذول العشييرة حسادها
17	1	الطويل	ولا وقعات الدهر يفلن مبردي
20	3	المنسرح	يقطعن من كل سريخ جدد
21	4	المنسرح	خمر لأفيت مثرى العدد
25	1	الطويل	وميسمنا فينا القوافي الأوابد
30	2	الطويل	علي لساني في الخطوب ولا يدي
31	4	الطويل	وإن يعنصر عودي على الجهد يحمد
31	1	الطويل	وأطوي على الماء القراح المبرد
32	1	الطويل	كبطن الحمار في الخلاء المقيد
38	1	المنسرح	ولا يخاف جاري ما عشت من وبد
41	2	الطويل	متى ترهم يا ابن الخطيم تبد
49	2	الطويل	ومن يعط أثمان المحامد يحمد
59	8	البسيط	جلد النحيظة ماض غير رعديد
95	3	الكامل	عف الخليفة سيد الأجداد
95	1	البسيط	على البرية بالتقوى وبالجود
95	1	الطويل	فمن يرضى ما يأتي من الأمر يهتدي
104	2	الطويل	أذاه ولا مزر به وهو عامد
108	1	البسيط	جار فأصبحت مثل المفرد الصادي
108	10	الطويل	عليه وقد غارت بذلك أسعد
109	4	البسيط	مثل النبي رسول الرحمة الهادي
111	1	الطويل	وأوفاكم قدما لدى كل مشهد
121	2	الطويل	أبي غير لؤم كهلهما وولديها
122	2	الطويل	بنو عابد شاه الوجوه لعابد
122	4	الطويل	أعيت على الإسلام أن تتمجدا
135	3	الطويل	عمرأ ووعوقاً إذ تجهز غاديا
157	3	الطويل	لموقد ناري ليلة الريح أوقد
160	3	الطويل	وحق لبشر أن يسودا
162	2	الطويل	قريبا ولا ذا خلة لزهيد

169	1	الطويل	ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد
169	2	الطويل	ولا أعرفك الدهر دمك يجمد
170	11	الطويل	عشية علوه الثري لا يوسد
17	1	الطويل	على الناس منها سابغ يتغمد
173	1	الطويل	رزية يوم مات فيه محمد
172	1	الطويل	عليه بناء من صفيح منضد
172	1	الطويل	أتاها البلى فالآي منها تجدد
172	1	الطويل	إذا ضن معطاء بما كان يتلد
172	1	الطويل	معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا
172	1	الطويل	لغيبية ما كانت من الوحي تعهد
الصفحة	عدد الأبيات	الوزن	قافية الـــــــراء
16	3	الطويل	ضيق الذراع وعة الخفر
18	1	الطويل	برديتا متحير عمر
28	1	البسيط	إذا لأنبشت في البرزواء أظفاري
29	4	الكامل	وعلى المكاشح ينتحي ظفري
35	2	الكامل	وهديتم بمهامه غير
36	2	الكامل	إذ لا يضيق بحاجتي صدري
36	1	الكامل	نغتاله بنجائب صعر
48	2	الرمل	سبط المشية في اليوم الحضر
53	1	الرمل	سبقا الناس بإقساط وبر
94	1	البسيط	للمؤمنين إذا ما عدل البشر
94	1	الكامل	منكم فإن محمدا لم يغدر
97	5	الطويل	دعائم عز لا تزول ومفخر
104	3	البسيط	وصدقوه وأهل الأرض كفار
105	2	المتقارب	ل والمجد كابر عن كابر
112	1	الطويل	وفاء وأمرا حازما حين يأمر
113	1	الطويل	بعيد المدى في النائبات صبور
113	1	الطويل	وكم من كريم يبئلي ثم يصبر
119	1	الطويل	إلى اللؤم أنذال ثماد بحورها

121	1	الكامل	مثل الزجاجاة صدعها لا يجبر
133	1	الطويل	ومقالة كمقاطع الصخر
145	4	الطويل	دعائم عز لا تزول ومفخر
158	2	الكامل	دامي الأظافر أو ربيع ممطر
الصفحة	عدد الأبيات	الوزن	قافية الطــــــــــــــــاء
19	1	الخفيف	بعدها تحلها في نشاط
20	1	الخفيف	لج من بعد قرية في شطاط
36	1	الخفيف	من لساني خيانة الانبساط
الصفحة	عدد الأبيات	الوزن	قافية الظــــــــــــــــاء
122	1	الوافر	وما هو بالمغيب بذى حفاظ
الصفحة	عدد الأبيات	الوزن	قافية العــــــــــــــــين
28	5	البسيط	وما يغيب به صدري وأضلاعي
44	1	البسيط	نحو الصريخ اذا ماثوب الداعي
87	4	الكامل	واقعد كأنك غافل لا تسمع
97	3	البسيط	قد بينوا للناس سنة تتبع
98	2	البسيط	في فضل أحلامهم عن ذاك متسع
98	4	البسيط	ومن عدو عليهم جاهد جدعوا
98	2	البسيط	فيما يحب لسان حائك صنع
118	1	الكامل	بطن إذا جارهم لم يشبع
120	1	الطويل	بذي كرم من الرجال أودعه
120	1	الطويل	فإنك حياد عن الحق مانع
147	5	الطويل	إذا نام مولاه ولذت مضاجعه
الصفحة	عدد الأبيات	الوزن	قافية الفــــــــــــــــاء
45	1	المنسرح	ساعده أعبد لهم نظف
145	4	الكامل	يا بن الحقيق وأنت يا بن الأشرف
119	1	الوافر	قبيح أعور من ثقيف
150	3	المنسرح	يوم بغاث أظلم ظلف

الصفحة	عدد الأبيات	الوزن	قافية القواف
84	2	البسيط	على المجالس إن كيسا وإن حمقا
148	2	البسيط	سحاً على الصدر مثل اللؤلؤ الفلق
الصفحة	عدد الأبيات	الوزن	قافية الكواف
119	1	الوافر	فإن اللؤم معدنه حراكا
الصفحة	عدد الأبيات	الوزن	قافية الالام
8	2	المتقارب	وخان قراع يدي الأكل
27	1	الكامل	فنتيق أمر العضلات ونعتلي
30	1	الطويل	تكوي مواسمه جنوب المصطلي
33	1	الكامل	من دون والده وإن لم يسأل
41	1	الطويل	بمرهفة كالمح مخلصه الصقل
45	1	الطويل	على رغمه بعد التخبط والجهل
46	1	الكامل	ولا يسألون عن السواد المقبل
51	1	الكامل	فيهم ونفصل كل أمر معضل
52	1	الكامل	ومتى نحكم في العشيرة نعدل
84	3	الطويل	أحب من الأخلاق ما كان أجملا
89	1	الكامل	بين الجوابي فالبضيع فحومل
90	2	الكامل	والمنعمون على الضعيف المرمل
90	2	الكامل	بردى يصفق بالرحيق السلسل
96	5	البسيط	مع الرسول فما آلو وما خذلوا
99	6	الطويل	حوارية والقول بالفعل يعدل
102	2	الكامل	فلما أتى الإسلام كان لنا الفضل
102	2	الطويل	فما عد من خير فقومي له أهل
103	6	الطويل	وليس على سؤالهم عندهم بخل
104	2	الطويل	وشبابنا بالفحش أبخل باخل
105	3	البسيط	على السماحة صعلوكا وذا مال
105	2	الطويل	ولست بخوان الأمين المجامل
	1	الطويل	لأعدل رأس الأصغر المتمايل

105	1	الطويل	وأحبه كي لا يطيب لأكل
109	6	البسيط	ولا تملن من سح وإعوال
110	3	البسيط	فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
113	7	الكامل	من للجلاد لدى العقاب وظلها
113	7	السريع	وابك على حمزة ذي النائل
130	3	الطويل	من المؤمنات غير ذات غوائل
134	2	البسيط	لا بارك الله جعل العرض بالمال
137	1	البسيط	خير البدية سمح غير نكال
146	4	الطويل	تأر قليل بنا في القبائل
153	2	الكامل	مشي الجمال إلى الجمال البزل
158	1	الوافر	بياري جودها سح الشمال
159	5	السريع	غبراء في ذي السنة الماحل
163	5	الطويل	ولا فاعلاً عند الحمالة زملا
166	1	الطويل	يوالي ولي الحق والحق أعدل
167	1	البسيط	فحكهم عدل وقولهم فصل
الصفحة	عدد الأبيات	الوزن	قافية المــــــــــــــــيم
18	2	السريع	في رصف تحت ظلال الغمام
19	2	السريع	مألفها السدر بنعفي برام
20	2	الطويل	لدي فتجزيني بعاداً وتصرمي
34	2	الطويل	إذا راح فياض العشيات خضرم
37	1	الطويل	كذي العرف ذا مال كثير ومعدما
40	6	الطويل	كرام وأنا أهل عز مقدم
41	1	الطويل	بكيد على أرماحنا بمحرم
42	2	الطويل	وغسان ونمنع حوضنا أن يهدما
44	2	الطويل	لنمنعه بالضائع المتهضم
44	2	السريع	شهباء ترمي أهلها بالقتام
45	1	الخفيف	صل حين التقت عليه الخضوم
47	5	الطويل	من الشحم ما أمسى صحيحا مسلما

47	1	الطويل	إذا الحرب كانت كالحريق المضرم
47	2	السريع	ويفرج اللزبة يوم الزحام
48	1	الطويل	إذا سئل المعروف لم يتجهم
49	3	الطويل	لمال برضوى حلمنا ويللم
51	1	الطويل	نكون على أمر من الحق مبرم
51	1	الطويل	مروءته فينا وإن كان مصرما
52	4	الطويل	مجالس فيها كل شيخ معمم
58	5	الطويل	عبادك ما لبي ملب وأحرما
90	2	الطويل	من الذم ميمون النقيبة خضرم
90	1	الطويل	سريع إلى داعي الهياج ملوم
95	4	الكامل	هلا ذكرت مكارم الأقبام
103	1	المتقارب	كرام إذا الضيف يوما ألم
117	5	الكامل	فنجوت منجى الحارث بن هشام
131	1	الكامل	بلهاء غير وشيكة الأقسام
الصفحة	عدد الأبيات	الوزن	قافية النون
21	3	الوافر	سراة الأوس لو نفع السكون
42	3	المتقارب	إذا ألبس الحق ميزانها
45	1	المتقارب	نحس أن القبائل إخوانها
48	1	المتقارب	إذا قحط القطر نوانها
الصفحة	عدد الأبيات	الوزن	قافية الياء
119	2	البسيط	أن لست هاجبها إلا بما فيها